

فِي الْحَيَاةِ وَالْآدَبِ

لِسُلَامَةِ مَرْسِي

صاحب ومحرر المجلة الجديدة



يطلب من عبد الحميد محمود

صاحب مكتبة الجامعة المصرية

الثمن ١٢ قرشا

مطبعة المجلة الجديدة

٢٩ / ٧ / ٩٠

في الحياة والكتب

لسلامه موسى

صاحب ومحرر المجلة الجديدة



الادباء في كل مقام وزمان ثلاث: محقق، متوسط، ومبدع. اما في الشرق
فانهم من النوع الاول، اذ رجعوا الى ما مضى في كل حين، فغير شيا مما درجوا عليه
او التمسوا مع التطور الحديث، فاجابوا به اراء وفكرات عليهم مما درجوا عليه من القديم، وذلك
انهم يحاربون بكل ما اوتوا به من يد القدر والارام كل اديب يدعو الى التقدم او التمس
مع الحضارة الغربية، وعلامة الاخص الاستاذ سلام موسى زعيم اليهودية في الشرق، وهم
يفضلون ذلك لما في مادي، وما فيه تقييد لا غير. ومن هؤلاء ابناء الكتاب السوريلي
المعروفين بعد راسم المصالح والصلال والمقطف. وليس ذلك الا لانهم
التمسوا في مجلات الاولين واحد بجله، فزعموا بانهم "المجلة العربية" تقفهم بمواهب
وايجاز في العبارة الحديثة. اما هذا الكتاب فهو مجموعة مقالات طامه قد كتبت بعد ما
في اجتماعات مجلة "كل شيء" ايام كان محرر في دار الصلال. وهذه المقالات
الكبرى ليل على هذه وعنوان هذه افكاره وكوارها جميع مطبعة المجلة الجديدة

مؤلفات سلامه موسى

المقدمة

هذه المقالات القصيرة التي جمعتها في هذا المجلد قد سبق لي نشرها في احدى المجلات الاسبوعية التي تصدر عن القاهرة . وقد كانت جميعها وحي الحوادث والظروف . والخطاب فيها للشباب . ولكني لم أجمعها جزافا وانما اخترت منها هذه المقالات لاعتبارات مختلفة وتركت ما كنت قد كتبت به باملاء الساعة وبعض الحوادث التي ربما تكون قد نسيت فلا تتضح منها العبرة الآن

أما هذه الاعتبارات التي قررت لي اختيار هذه المقالات فتختلف . وربما كان أهمها مغزى من حادثة يراد به رفع الشباب والتسامي بافكاره . أو اتجاه نحو الحضارة الاوربية التي لا أعتقد أن لنا طريقاً آخر نستطيع أن نسلكه ونوفق فيه في هذه الدنيا غيره ، أو الحض على اتخاذ الطرق العلمية بدلا من الطرق الادبية الشرقية المألوفة في معالجة المواضيع . ولست في ذلك احتقر الادب بل أنا اؤثره على العلم وأرى فيه الوقاية من أخطار العلم ولكني أحتقر ذلك الادب الذي نشأنا عليه ودرسنا طريقته في مدارسنا أدب اللهو والزخارف والسخف وفسيفساء الالفاظ . هذا الادب الذي مازال مدرسو اللغة العربية يؤذون به الشباب المصريين في مدارسنا

أما الاتجاه نحو الحضارة الاوربية فقد أصبح محتوما علينا أن نحض عليه وتوسل اليه بكل الوسائل اذ قد أفلست حضارة الشرق وأصبحنا هدفا لهذه الحضارة الغربية التي اذا لم نعتقها وننخذها وندغم فيها سحقتنا سحقا . وكلما أسرعنا في اعتناق مبادئها كان لنا من هذه السرعة ما ينقذنا من حال التقلقل الناشئ من ضياع القيم الاخلاقية القديمة قبل اتخاذ قيم أخلاقية جديدة وما يجلبه هذا التقلقل من فوضى

سلامه موسى

نظرية التطور وأصل الانسان
مختارات سلامه موسى
أشهر الخطب ومشاهير الخطباء
اليوم والغد
أحلام الفلاسفة
أشهر الفصص التاريخية
العقل الباطن
حرية الفكر وتاريخ ابطالها
تاريخ الفنون وأشهر الصور
الاشتراكية

فتوحات العلم

لو أن انساناً أراد أن يعيش في مفاجآت متوالية من مخترعات ومكتشفات لما وجد أوفق من هذا العصر الذي نعيش فيه . فلا جرم أننا نعيش في عصر العجائب ولسنا نعني بذلك أننا أسعد حالاً من آبائنا وإنما نحن ننظر إلى الحياة بخلاف ما كانوا ينظرون إليها . نحن ننظر إليها باعتبارها معملًا كبيراً للتجارب نجرب فيها كل ما يخطر لنا في بال فإن نجحت التجربة فذاك والا فنحن عائدون إلى تجربة أخرى . ومن هنا كثرة ما يجد كل يوم في ميدان الصناعة والعلوم . أما آباؤنا فكانوا كـبعض الأمم الشرقية الآن يقتنعون بما صنعه لهم السلف الصالح ولا يعارضون في القديم المألوف . ومن هنا قلة اختراعاتهم هأنذا أحد الناس أذكر أنه قد جد في حياتي أكثر من عشرة مخترعات ومكتشفات . لقد رأيت الاتومبيل لأول مرة في القاهرة وأنا طفل وعدوت وراه مع سائر الأطفال لكي انظر إليه وسمعت من حولى وهم يتعجبون من براعة هؤلاء الافرنج الذين يجعلون الجراد يجرى في الشوارع . ثم هأنذا قد سمعت بأذى هذا العام وأنا في القاهرة أصواتاً حملها الاثير بلا سلك من لندن

أليست هاتان عجبتين؟ وهل أحتاج إلى ذكر الطيارات التي تحمل هذه الصحيفة أحياناً إلى بغداد؟ وهل أحتاج إلى ذكر عجائب التلغراف اللاسلكي أو إلى ذكر الذرات التي تخيل الاغريق وجودها وصار العلماء الآن يقيسونها ويزنونها ثم ماذا نقول عن المعالجة بالغدد التي فتحت فتحاً جديداً في الطب وتكاد تجعل الشباب يغارون من الشيوخ والتي ربما سيطول عمر الانسان بواسطتها إلى أكثر من مائة سنة؟

أليس كل هذا عجبا؟ ثم يجب ألا ننسى أعجب العجائب: روسيا التي تحت الماضي من الوجود وصارت تنظر إلى الحكومة والعائلة والتعليم والمال كأنها أشياء قابلة للتجربة . ولست في هذا امتدح ماعلمته روسيا وإنما أتعجب من تلك الجرأة التي يتسم بها ذهن الانسان هذه الايام حتى صار ما قدسه الزمن والعادة قابلاً للتعديل والالغاء والتجربة وليس أحد ينكر مخاطر التجربة . وهذه روسيا شاهد على ذلك . ولكن ما من تقدم

حديث في العالم إلا ودان نتيجه الخروج على المألوف وابتكار الشيء الجديد . ولولا هذا ما كان اختراع أو اكتشاف

ولكن يجب مع ذلك ألا نغتر فنعتقد أننا في جديداً قد فقنا السلف وخرجنا عليه . فأنما نحن نبني على ما أسس . حتى ثوراتنا وانقلاباتنا أن هي الا تطور كانت لهم فيه البديهة . فجميع بذور المخترعات الحديثة ظهرت في القرن التاسع عشر وهذه البذور نفسها لم تكن لولا أن أبناء القرن الثامن عشر قد هيأوا لها التربة وهكذا إلى من قبلهم

أجل . أن حبل الثقافة متصل من السلف إلى الخلف . ولكننا في حاجة من وقت لآخر إلى الشك في حكمة هذا السلف وإلى الخروج على بعض مبادئه وإلى أن نجعل العقل فوق النقل لأنه بذلك ارتقت أوروبا . وبمعكس ذلك تأخر الشرق . ومن هنا نجد أن عصر العجائب هو عصر الاوربيين أما الشرقيون فلا شأن لهم في هذه العجائب

هذا العالم

حدث منذ سنوات قريبة أن أحد الاميركيين كان يحول في جبال الروكي في غرب الولايات المتحدة فوجد راهباً فرنسياً يفعل فعله ، يتوغل الجبال ويخاطر بحياته في مجاهلها . فلم يتمالك الاميركي من ابداء استغرابه لهذا الراهب الفرنسي الذي كان ينتظر منه أن يعتكف في صومعته ويلزم دير له لأن يخرج إلى الجبال الشاهقة حيث تبلغ الارض السحاب وحيث يحمل الانسان حياته في كفه كما يقول الانجليز

وأدرك الراهب ما جال بخاطر الاميركي فقال : « أنك تعجب لوجودي هنا ولكنك اذا عرفت قصتي لم تعجب . فقد حدث لي منذ عام أني مرضت وأوشكت أن أهلك لفرد ما أضناني المرض . وكان يغشى على وأستفيق فاصلي في فترات الصحو واستعد بصلاقي للوثة . وبينما أنا في ذلك واذا بهاتف يهتف بي كأنه ملك من السماء ويقول : « والآن أيها الأب أنك توشك أن تدخل إلى العالم الآخر . فإذا رأيت من هذا العالم الذي أنت مغادره الآن ؟ » وصكت هذه الكلمات أذني فافقت وأنا أتساءل : حقاً ماذا رأيت من هذا العالم الذي ساغادره قريباً؟ ثم لم تكن إلا أيام معدودات عقدت فيها العزم وتبأت لرؤية هذا العالم وتركت فرنسا وخرجت أجول وأجوب فربحت عافية

الجسم وغذاء العقل بمعرفة هذا العالم العجيب الذي كنت أجهله . وهذا هو السبب في وجودي هنا الآن كما ترى .

والحق أنه لسبب وجيه ولم يتقرب الراهب لربه بأحسن مما تقرب اليه برؤيته عجائبه في هذا العالم وضربه في الارض الواسعة يرى النبات والحيوان والانسان . يحس خلوة الصحراء الصامتة وعجيج الحياة في الغابة يتسمع الى صوت الطبيعة في عباب الاقيانوس أو على قمم الجبال حيث تتصل ثلوج الغبراء بسحب السماء . يرى الشمس وهـ تبرز قرصا يتوقد ويسدد ضباب الصباح أو الحقول وهى حافلة بآلاف الاحياء من نبات وحيوان . يرى آسيا وأفريقيا وأميركا وسائر قارات هذا العالم العجيب . وهل أفضل من أن يتقرب الانسان الى رب هذا الكون برؤية عجائبه ؟

أنها لمأساة عظيمة تلك التي يمثلها انسان يقضى عمره عاكفا على صناعته لازما ببلدته كأنه شجرة قد نبتت في مكانها لا تهرح . وأنه لعمر قفر جديد ذلك الذي يقضى في دائرة ضيقة من أعمال المعاش مهما طالت أعوامه وتعددت أيامه

ولكننا لسوء الحظ وأيضا لسوء النظام الاقتصادي لا يمكننا كلنا أن نسيح في هذه الكرة كما فعل ذلك الراهب وحسبنا الآن ما يقال لنا من أن هذه السياحات ستكون من حظوظ أولادنا . وإنما في مقدور كل منا أن يعرف هذا العالم بالواسطة اذا أعجزته معرفته مباشرة . وذلك بأن يدرسه ويعرف تاريخه وجغرافيته وحيوانه ونباته بل جماده . واذا نحن درسنا هذا العالم تكشف لنا عن ملكوت عظيم نزداد تعلقا به وتقديرا كلما زدناه تعرفا واختبارا

شرف الصناعة

ذكر جوستاف لوبون في أحد كتبه أن من الالفاظ المألوفة في المصانع الاميركية والالمانية ان تسمع احد العمال ينادى عاملا آخر بقوله . . يا دكتور . يا أستاذ . ونحو ذلك من الالفاظ الغريبة التي يعتقد الانسان أنها بعيدة كل البعد عن ان تلتصق بعامل يعمل بيديه

وانما نحن نستبعد ذلك ونستغربه لبقية باقية في اذهاننا من اعتقادات القرون الوسطى وآداب بغداد . تلك الآداب الشرقية التي لاتتفق وروح العصر الحاضر عصر الصناعة

والعمل . فالغزالي مثلا يخبرنا بان الحجامة والصباغة من الصناعات الوضيعة التي يجب أن يأنف منها الرجل الشريف . مع ان الحجامة أى الحلاقة من الصناعات الشريفة في أيامنا هذه . وقد كان امبراطور المانيا وهو رجل السيف والشرف المؤثر مساهما في شركة حلاقة كبيرة في برلين . أما الصباغة فحسبك أن تعرف ان المانيا قد احتكرت أسرارها وان الحكومة الانجليزية قد انفقت آلاف الجنيهات لكي تقف على هذه الاسرار

فالصناعة الآن هى شعار التقدم واليه يرجع الفضل في تقدم أوروبا وسبقها للشرق . وهى لم تتقدم الا لأن ذوى الازدهان الكبيرة قد دخلوا فيها فصار منهم « الدكتور » يعمل بيديه قطعة من الخزف أو يبتكر رسما جديدا للقماش . وصار منهم « الاستاذ » يترك جامعته ويدخل في المصنع لكي يعرف مقدار ما تمتاز به آلة من آلة أخرى في توفير الوقود أو في متانة الصنع . ويمثل هؤلاء الصناع الأذكيا . اخترع الأوروبيون الطائرات والاتوموبيلات والحرير الصناعي والاصباغ والعمود المختلفة ومئات المخترعات الاخرى العديدة . وهل كنت تظن ان عاملا يستطيع أن يأتي بهذه المخترعات لولا انه قد ثقف ودرب على أن يفكر تفكيراً عالياً صحيحاً توافق نظرياته عملياته ؟ وهذا الثقيف يحتاج الى تربية مدرسية طويلة لا تقل مدتها عما يقضى في درس الحقوق مثلا . ولكننا نحن الآن متخمون بالحامين تخمة مؤذية في حين اننا في أشد الحاجة الى صناع متعلمين يتولون صناعاتنا المختلفة من ادارة الفنادق الى صنع الاحذية والخزف والاثاث والمطابع والقهوات ونحو ذلك . وحسب القارىء أن يعرف ما يربحه الاجانب في مصر من احتكارهم للفنادق ويتحقق عندئذ مقدار الخسارة التي نخسرها كل عام باحتقارنا الصناعات التي كان يقول عنها الغزالي وأمثاله انها وضيعة . ولو كانت وزارة المعارف عندنا تتمشى مع روح الزمن لارسلت بعثاتها لتعلم الصناعات لتعلم العلوم النظرية فان هذه يمكن درسها من الكتب . ولكن الصناعة كالسباحة لا يتعلمها الانسان الا اذا مارسها بنفسه وعالجها بيديه وانغمس فيها وتلوث بمدادها الشريف

لقد مرت بذهنى هذه الخواطر وأنا أجول في المعرض الزراعى الصناعى فهناك من الصناعات ما يرفع الرأس ويبهج القلب ولكن هناك أيضا ما ينجل المصرى لضعف صناعته وسوء فنه . ولا علاج لذلك الا بأن يدخل ذوو العقول الكبيرة النيرة هذا الميدان ويفيضوا من أذهانهم عليه ما يرفع الصناعة ويجعل لها من الشرف ما يتسابق الى حيازته الاذكيا المتعلمون وعندئذ نرى الدكتور والاستاذ يعمل بيديه في وسط معمله فتحترمه ونجله أكثر مما نحترم المزارع أو المحامى أو الطبيب لاننا نعرف انه هو سبيل نهضتنا

الصناعية وثروة البلاد التي لا يمكن الرقي الادبي بدونها . لأن الثروة في هذا العصر أساس كل شيء . وأكبر أساس للثروة هو الصناعة

أوروبا ام اسيا

في النزاع الحاضر بشأن الخلافة أو القبة أو غيرهما من الشؤون ظواهر تبدو على السطح وبواطن تحتاج الى التعمق لاستكناه سرها وتعرف أصولها . ومن مصلحة الامة أن تعرف سر هذه النزعات لكي تدرك العوامل التي تستثير شبانتا وشيوخنا وتدفع كلا منهما الى أن يخطط لنفسه طريقا في الحياة يختلف عن طريق الآخر

فليس شك بعد عرض حركات شبانتا في هذه السنين الاخيرة انه تتنازعهم رغبتان : الاولى هي التطلع الى أوروبا والتشبه بها والرغبة في الانضمام اليها والثانية هي الحنين الى آسيا ورعاية التاريخ الماضي الذي كان يربطنا بها

فشبانتا يرون الآن أن الاوربيين هم سادة العالم فيهم الجمال والذكاء والثروة والقوة . منهم علماء يستكثرون ذرات المسادة ويكدون يلبسون منها سر الوجود . ومنهم أدباء وفلاسفة ينشرون على الناس أرقى الافكار وأنصع الخواطر . ومنهم مخترعون ركبوا السحاب ومخروا بسفنهم تحت الماء وملأوا العالم بالقطرات والبواخر وسائر الآلات . ومنهم رجال ابرار يتفق أحدهم ملايين الجنيهات لوجه العلم لا يبغي جزاء ذلك أجرا . ثم فيهم — مع ذلك — وطنية تدفعهم الى أن يقتل في حرب واحدة من حروبهم عشرة ملايين من شباهم احقاقا لما يعتقدونه حقا . ثم لهم مع ذلك أرقى الحكومات وأمثل المدارس وأنظف المدن وفي نساتهم من روح الجد والقوة ما يدفعهم الى الدخول نائبات في البرلمانات والى أن يكن معلمات أو قاضيات أو تاجرات

هذه هي أوروبا التي يراها شبانتا أو بعضهم وينزع الى تقليد أبنائها على نحو ما فعل الاتراك بل هو يرى اننا أولى بتقليدهم لأننا من الجيل الارى أما الاتراك فمغول أسويون . ولكن هناك فئة لاتزال تحن الى آسيا والشرق وتعتبر اننا شوقيون . وهذه الفئة قليلة بالطبع وحجتها تاريخية لا أكثر ولا أقل

أذا ما هي آسيا الآن ؟ أليست هي مجموعة من الامم قد ذلها الاوربيون وبسطوا عليها نيرهم ولم ينبج من هذا النير سوى اليابان . وهي انما نجحت لانها اصطنعت حضارة الاوربيين واعتفتها بلا قيد ولا شرط وحملت القبة شارة الاوربي على رموسها ؟

فشبانتا الناهضون الذين يرغبون في اصطناع القبة لا يريدون القبة بالذات وانما هم يريدون مدلولها . يريد احدهم أن يتصل من آسيا ويعيره أحد بانه شرقي لانه هو يرى في ملامح وجهه ونزعات نفسه أنه غربي . وهو لو كان شرقياً حقاً لانكر شرقيته لانه يأنف أن يوضع في صف واحد مع الصيني والهندي والملق اذ هو تصبو نفسه الى أن يكون على مستوى واحد مع الالماني والانجليزى والفرنسى . ثم هو يرى أن مبادئ الغرب مثل الحكومة البرلمانية وحرية المرأة والتعليم العام جديرة بأن يجرى عليها المصريون وأن يحدوا ما قبلها من المبادئ الشرقية . ونقول بعبارة أخرى انه يرغب في اتخاذ القبة لان نفسه تتوق الى الرقي الاوربي ولانه يأنف أن يكون شرقياً . ثم يرى أيضاً أن من الخرق البالغ أن نحاول ابتكار لباس خاص لرؤسنا فان في العالم نحو ١٨٠٠ مليون نفس منهم نحو ٧٠٠ مليون من المتمدينين يلبسون القبة . فهل نقف نحن في وسط هذا العالم ونشد عنه مع أننا متمدينون مثله فنلبس لباساً خاصاً حتى يأتي السائحون فينقلون صورنا كأننا جيل خاص

وانما الالام الاخلاق

ولسنا في حاجة الى أن نسرده ألقاظ هذا البيت الشريف الذي ألفه شاعرنا شوقي . فان الاشارة اليه تغني عن ذكره . ولكن هل نحن ندرك قيمة الاخلاق في حياة الالام وخطرها في رفعتها أو انحطاطها تمام الادراك ؟ وهل نحن نعمل لرفع مستوى الاخلاق في مصر بحيث نبلغ بها ذلك المستوى العظيم الذي تأمله لبلادنا ؟

ان من يستقرى التاريخ يجد أنه مامن أمة نهضت إلا وكانت نهضتها متمشية على نسبة أخلاقها . ففي نهضة العرب نجد عمر بن الخطاب الذي لم يكن في الحقيقة سوى كتلة أخلاق عجيبة هي الغاية القصوى في المتانة والثبات ومحاسبة النفس على كل ما جمل ودق . فلم يكن الرجل عالماً ولا فيلسوفاً بل هو نفسه قد ضحك مرة من نفسه لان احدى النساء أصلحت له خطاه . ولكنه كان في الخلق كأنه جبل راسخ وسائر الناس تراب . وحسب أمة ينبج فيها مثل الفاروق أن تفتح نصف العالم المتمدن في بضعة سنوات

ومن تأمل في أحوال الانجليز وخاصة كبارائهم وزعمائهم لامندوحة له من الاعتقاد بأن سبيل النجاح في هذا العالم ليست المعرفة بل الاخلاق . اذ لسنا نجد عند أية أمة أخرى عدداً كبيراً من رجال الخلق العظيم مثلاً نجد بين الانجليز . ففهم أمثال اسكويث الذي نال رئاسة الوزارة عدة مرات وكان ينفق بأمره في الحرب الكبرى من خزانة الدولة نحو ثلاثة

ملايين جنيه في اليوم ومع ذلك قالت زوجته وهي تلتقي خطبا مأجورة في أميركا انها تفعل ذلك لان زوجها معدم

وكان اللورد كرومر عندنا هو السيد الفعلي للبلاد وبقي بيننا نحو عشرين سنة أو أكثر ومع ذلك تبين عند ما استقال انه فقير لا يمكنه أن يقوم بحقوق اللوردية لفقره فأنعمت عليه الحكومة البريطانية بخمسين ألف جنيه سداً لحلته

ومنذ نحو مائة سنة كان في مصر سائح انجليزي يدعى لين كتب كتابا عنا يصف فيه أحوالنا وخرافاتنا. وما ذكره بالاعجاب ببني وطنه ان المصري عند ما يريد الصدق يقول: «كلام انجليزي» يريد عدم المراوغة وكراهة المماكسة

أليس هذا الخلق المتين هو أصل رفعة الانجليز وتفوقهم على سائر الامم وسبقهم لها في ميادين التجارة والصناعة والقوة؟

لقد ذكرنا عمر بن الخطاب في نهضة العرب ويمكننا أن نذكر أيضاً في نهضات الامم الاخرى أمثاله أو من يقاربونه في قوة الخلق مثل كرومويل في إنجلترا أو غاريا لدى في إيطاليا أو كوشوث في المجر فجميع هؤلاء كانوا من متانة الخلق ونزاهة القصد في خدمة بلادهم بحيث عاشوا وماتوا وهم من قلوب أبنائها في المكان الاسمي

ولقد تنظر في القاهرة الى المخازن التجارية الكبرى الناجحة في أعمالها حيث الاقبال والرواج وإلى تلك الحيوانات الصغرى الاخرى التي تتعثر بين كساد مقيم وفترات زائلة من الرواج المضطرب فتجد في الاولى خلقا متينا يدعوك إلى أن تؤمن بما فيها من الاثمان الثابتة التي لا ينزل عنها أصحابها وفي الثانية تجد المماكسة والمساومة التي هي دليل الغش والمكر الذي لا يحق إلا بأهله

الفاظ عتيقة

كان الرومان في أيام جاهليتهم يسمون جميع الامم التي تقيم في خارج إيطاليا «برابرة» أي متوحشين. وكان العرب يسمون جميع سكان العالم الذين لا ينطقون بالعربية «أعاجم» أي الذين لا يفصحون. وكان المسيحي يسمي اليهودى كلفراً والكافر يرد التحية بأحسن منها فيسمى المسيحي كافراً ووثنياً أيضاً

ولكننا نعيش الآن في ضوء القرن العشرين ونعرف ان هذه الالفاظ لاتلائم روح العصر. ففي العالم متمدينون وكان فيه متمدينون قبل الرومان. وفي العالم أمم فصيحة اللسان

غير العرب أما الكفر فعند الله سره وهو أعلم بحقيقة الايمان وحقيقة الكفر. وما بينه وبين العبد حساب خصوصي لاشأن لأحد أن يدخل فيه

ليس في العالم على ما اعتقد رجل أفهم قلبه بالايمان والدين مثل غاندى الهندي. ومع ان هذا الرجل قد حارب الانجليز وخلق من العدم حركة هندية وطنية عنيفة فانه لم يسب دين الانجليز مرة واحدة ولا نسب دينهم الى الكفر. وليس سبب لذلك الا أن الرجل مستنير يعرف أن البذاءة بذاءة في كل مكان وأن قومه لم يحتكروا الايمان الصحيح دون غيرهم من الامم وان الله أكرم من ألا يوسع جنته لجميع أبناء الارض على السواء

وليس من الحجج أن نستند الى الكتب الدينية ونترزع منها عبارة نسب بها من لا يؤمن بديننا. فان الكتب السماوية فيها كل شيء ويمكن أن نبرهن بها على كل شيء. فقد كان «ديوان الفتيش» يستند في قتله مخالفة الى الكتب الدينية. وبين العلماء الان من يستند اليها أيضاً في اثبات النظريات العلية. وقد كانوا في الحرب الكبرى يباركون البوارج والجوش باسم المسيح رسول السلام. وفي بعض الكتب الدينية من القصص ما لو ذكرته إحدى الصحف لتعرضت للعقاب لمنافاته لروح الاداب الحاضرة

ثم يجب أن نذكر اننا أمة ضعيفة في حاجة الى عطف أوربا والاتجاه من وقت الى وقت الى محبة ضميرها. واذا نحن فقدنا هذا العطف فقد فقدنا كل شيء. فماذا يكون مركزنا بازاء أوربا اذا فهم الاوربيون أننا نعتبرهم أخط من الحيوانات نجاسة وانهم منا بمكان الواقف على شفا بركان قد يثور به ويقتله في أى وقت؟ وهذا مع العلم باننا ونحن نسلمهم كفاراً نلبس ما يصنعونه لنا من الملابس ونقرأ ما يطبعونه على مطابعهم من الكتب المصنوعة على ورق خارج من مصانعهم. ونعلم أولادنا في المدارس علومهم وتعالج من أمراضنا بطرق العلاج التي ابتكروها وتركب قطاراتهم وبواخرهم

ألا يضحكون منا عند ما يروننا نلقبهم بلقب الكفر وهم مع ذلك يعولوننا ويعرفون أنه لو انقطعت مادة حضارتهم عنا لعادنا الى جاهلية تشبه التوحش؟ لقد كان غاندى يقول انه يستحي من أن يسب الانجليز مادام الهنود يلبسون الثياب التي يصنعونها لهم ونحن في حاجة الى أن نشعر بازاء أوربا بهذا الاستحيا

وفضيلة القرن العشرين هي التسامح في الرأي والدين والعقيدة. فلنترك لكل انسان دينه أو رأيه ولا نشتمه أو نتهمه بالكفر لانه يخالفنا في صفة الجنة أو في المعنى الفلسفي للالهية أو في حرثات الصلاة أو فيما نصوم عنه من الطعام وما نحرم وما نحلل من الحيوان فقد حارب اسلافنا من أجل هذه الاشياء وثبت لهم خطأهم فعادوا الى التسامح بعد التصاعب

وانتهوا من البذاء الى حسن الادب . وصارت الكنائس تبني جهرآ في القاهرة كما تبني المساجد جهرآ في باريس

من هو العظيم

حدث مرة أن جريدة الماتن استفتت قراءها عن أعظم رجل فرنسي خدم فرنسا ؟ فجاءتها الخطابات تترى من جميع الانحاء وجميع كاتبها غيورون على أن يكون عظيمهم عظيم الامة باجمعها . وكان المنتظر أن نابليون سيفوز باكثر عدد من الأصوات ولكن جاءت النتيجة عكس هذا المنتظر وظهر على قمة العطاء شخص قد لا تكون قد سمعت به وهو باستور

ومن باستور هذا الذي أربت أصواته على الأصوات التي نالها نابليون ؟ باستور رجل وضع الاصل اشتغل بالعلم فعرف الميكروب وأوجد مصلا لمرض الكلب وعالج كروم فرنسا من وباء كان يفتك بها واهتدى الى طريقة لتطهير اللبن . وهذه الاشياء الوضيعة أدرك الشعب الفرنسي انها أكبر من المعارك العظيمة التي خاضها نابليون ورفع بها شأن فرنسا الحربى . ولذلك حكم باستور بالتفوق في العظمة

فالشعب الفرنسي يقول بصريح القول أن العظمة هي الفائدة التي تعود على الامة من العظيم الذى ينشأ بينها . وعظمة نابليون ليست سوى طبل أجوف رنان لا فائدة فيه فان فرنسا كانت في بداية تسليه مقاليدها أكبر مما كانت عند ما انهزم وأسره الانجليز ونفوه بعد أن كبدا الفرنسيين نحو مليون قتيل . وأما باستور فانه أنفذ ثروة الوطن ووقى الاطفال من الموت أو خفض آلام المرضى وفتح للطب فتحاً عظيماً . وإذا كان الاطفال يستهويهم ذكرنا بليون ويتغنون بمدحه ويصلصلون بسيفه فان الرجل الذكى لا يرى مندوحة من أن يحكم بالعظمة الحقيقية لباستور دون نابليون

وما أحرانا نحن في مصر أن نراجع أنفسنا ونعيد النظر في تقدير عظمتنا ومقدار الفائدة التي عادت من كل منهم على بلادنا . ولكن كيف نقيس هذه الفائدة ؟ أن العظيم يجب أن يكون هو الرجل الذى كسب للامة حقوقاً لم تكن لها من قبل . وهو الرجل الذى وجه العقول الى وجهة وطنية مصرية بعد ان كانت قوميتها متلاشية في فوضى الافكار التي ورثناها عن المماليك . وهو الذى رفع التعليم . وهو الذى نظم للبلاد طرق الرى والصرف ورفع مستوى الصحة

ولسنا نعين شخص هذا العظيم الآن وإنما يجب أن نقيسه بمقدار الفائدة التي عادت من وجوده على البلاد . فاذا قيل لك أن هذا الرجل أو ذاك عظيم فاسأل ماذا فعل للبلاد وما هو الربح الحقيقي الذى جنته منه ؟ ولوسئلت أنا هذا السؤال لأجبت بأن العظيم في مصر هو الذى ينجى الفلاحين من البلهارسيا والانكلستوما وهو الذى يعمم التعليم الحقيقي لتعليم القرن الوسطى وهو الذى يخترع لنا طريقة لعمل الاسمدة الكيماوية

وأخيراً هو الذى بوجه الامة نحو الحضارة الاوربية . وبعبارة أخرى نقول أن العظيم هو من أشبه باستور بتواضعه ومثابرته على خدمة أمتة في الشؤون الصغيرة وليس هو نابليون بجميع ما فيه من طبل أجوف رنان . فبلادنا مثلاً مفتقرة الى الصناعة يضع قطننا كل عام بأبخس الاثمان ثم نعود فنشتري بعضه بأرفع الاثمان . فالعظيم حق العظمة هو ذلك الذى يستطيع أن يعلم الفلاح كيفية غزل القطن ونسجه ويوجد في البلاد حركة صناعية تضمن لنا حياتنا الاقتصادية حين يطغى علينا قطن السودان

رياضة الشيوخ

الرياضة للبدن تعيد اليه الصحة وتكسب العافية وتنشط الدم وتنبه الذهن . وهذا هو السبب في عناية الامم الراقية بها حتى صار من أعيب العيوب لديهم أن يبدو انسان وهو مستكرش له بطن يتدلى أمامه . وحتى صار الشيوخ قبل الشبان يهرعون الى الملاعب للعب وترويح النفس . ويرى القارىء صورة أغنى أغنياء العالم رو كفلر ملك البترول في أميركا يلعب الجولف وهو منتصب القامة كأنه قى في العشرين

وليس ينفرد رو كفلر بذلك بين الشيوخ العظام . فان كليمنصو باقعة الخلفاء له ساعة معينه كل يوم يصحب فيها أستاذة في الرياضة البدنية ويتمرن جملة تمارين تنشط دمه وتملأ عروقه اهرمة بروح الشباب . وهو شيخ فقط بالسن وأما في الروح والنشاط فهو يعد في شبابه وأن كان قد جاز السبعين . وقد أصدر منذ أشهر كتاباً عن الخطيب الاغريق ديموستينس أثبت فيه أنه يستطيع أن يفرغ من همومه السياسية لدرس الادب الاغريق . وعرض عليه الدكتور فورونوف منذ مدة أن يجرى عليه عملية التجديد فرفض وهو يقول : أتى لم أدخل بعد في طور الشيخوخة

وهذا لويد جورج قد قارب السبعين وهو لا تفوته لعبة من لعب الخلاء . ولذلك بلفور وكذلك غيرهما من العطاء شيوخ الاجسام شباب العقول

والآن أيها القارئ الشاب كيف أنت وهؤلاء الشيوخ وهل تعرف مقدار ما يفوتك من صحة الجسم بالعود على القهوة والاستسلام للنوم في قاعة النهار ؟
أن أقل ما في الإفراط في النوم والراحة أن يستكرش البطن ويسمن الجسم . وأكبر دليل بل البرهان المحسوس الذي يمكنك أن تستنتجه عن ضرر السمن والاستكرش فوق ما فيهما من سماجة الهيئة وتخلقها أن شركات التأمين تتوقع الخطر على الصحة بنسبة تضخم البطن ، فهي تؤمن ضامر البطن بأجر أقل مما تؤمن المتضخم . وشركات التأمين لا ترغب في غير الربح وقد دلتها التجارب على ضرر السمن والاستكرش
والرياضة البدنية هي العلاج للسمن فهي التي تمنع الترهل والاسترخاء وتبني اللحم بدل الشحم وتؤخر الشيخوخة وتديم للجسم اكسير الشباب . وهي إذا كانت واجبة للرجال فهي أيضاً واجبة للنساء . ولذلك تجب العناية بها في مدارس البنات كما في مدارس البنين . وكذلك ينبغي للشباب الذين أنقضت مدة دراستهم بالمدارس أن يلتحقوا بالأندية الرياضية . وأنه لفرق عظيم بين شاب يخرج في الساعة الخامسة مساءً من منزله فيقعد على أول قهوة تلاقيه ويتجرع شيئاً أسود يسمى قهوة ويقضى الساعتين أو الثلاث وهو يتمطى ويتشاء ويتحدث وبين آخر يخرج إلى الحلاء فيقفز ويعدو وراء الكرة حتى ينشط دمه ويتورد خده ويستيقظ ذهنه

هل يعاقب المريض

من رأى إحدى الصحف الأميركية أنه لن يكون بعيداً ذلك الزمن الذي يشرع فيه الناس بجحد في معاقبة المريض كما يعاقب المجرم . بل المريض يعاقب الآن نوعاً من العقاب قد يعد في نظر بعض الناس أقصى عقاب في العالم نغني بذلك أن المرضى بالتدريج وبعض الأمراض التناسلية يجرمون من الزواج في زوج وتركيا وبعض الولايات المتحدة . وعندنا هنا في مصر يعاقب المريض بعادة تناول الكوكيين بالحبس . وموظفو الحكومة يرفقون أحياناً كثيرة لهم ضهم

ومن منا قعد في دار للتمثيل ملاً وسمع هذا يعطس وذاك يسعل وذلك يعمق بلغمأ ملعوناً ولم يتمن العقاب لهؤلاء المجرمين الذين يفسدون على الإنسان ليلة قد خصها لسروره ؟

أنا الآن نأخذ السكران الذي يعربد على الناس في الشوارع ونبقيه في غرفة القسم إلى الصباح حتى يقدم للمحاكمة ويدفع الغرامة . ولكن العريضة أمرها يسير هين في جنب متدرب يقعد قريباً منك في قهوة ويسعل السعلات المتوالية على وجهك فتقوم وقد زرع في رتيك نحو ألف مكروبة نشيطة تغذوها من دمك فتلد لك الملايين من بنى جنسها
أنا نجمل شيئاً كثيراً عن طبيعة الأمراض ولكن الأطباء واثقون أن الاسراف في الخمول والاسراف في الجهد يؤديان إلى المرض . فلو أننا عاقبنا المرضى بهذين الداءين لاستقامت أحوالنا الاجتماعية بعض الاستقامة . فكلنا يعرف أن المجد الذي يعمل باعتدال لا يندلق بطنه كالقربة بدليل أنك لست ترى فلاحاً يحمل الفأس قد استكرش له بطن . وكذلك لن نجد غنياً قد حصل على ماله بانهاك صحته حتى لا يستطيع أن يأكل حمامة
ومن حسنات « المودة » أنها تحتم على السيدات هذه الأيام أن يكن ضامرات البطن . وضمور البطن يتسق مع الصحة بخلاف الاستكرش الذي هو أصل عدد كبير من الأمراض

وقد يظن القارئ أن المريض لا يجوز عقابه لأنه لا يؤذى سوى نفسه . ولكننا أشرنا إلى أنه أحياناً ينشر العدوى بعطاسه وسعاله وبصاقه وهو أيضاً يعيش في وسط أسرة يعودها عاداته في الطعام والشراب وسائر أحوال معيشته التي هيأته هو نفسه لقبول المرض فقضى به وتنتشر بذلك عاداته السيئة بين الناس . فان أولاد السمان تجدهم على الدوام سماناً لا لانهم وورثوا السمن بل لانهم نشأوا على عادات آبائهم في الطعام والاسراف فيه

فالمريض لا تقع عليه تبعة مرضه وحده بل أمراض الآخرين . والمريض أكثر ما يكون دليل نقص في الاخلاق مما هو دليل نقص في بنية الجسم . ولذلك يجب ألا نستغرب وجوب معاقبة الناس لارتكابهم الأمراض

وعند الصينيين عادة جميلة واحدة بين مئات من العادات الشرقية السيئة وهي أنهم يدفعون أجراً للطبيب ماداموا في عافية فإذا أصيبوا بمرض انقطعوا عن دفع الأجر حتى تعود اليهم عافيتهم . فالطبيب يرجع هناك بمقدار ماحوله من الصحة والعافية لا بمقدار ماحوله من الأمراض كما هو الحال عندنا . وقد اصطنع بعض الأميركيين هذه الطريقة وزادوا عليها تغريم الطبيب بغرامة إذا مرضوا

ولم نجد من الحكومة عقاباً للخباز سوى الغرامة لقمنا بالثورة الجائحة عليها . وليس الخبز المغشوش بأفسد لأجسامنا من اللبن المغشوش لأجسام الاطفال

لقد سمعنا كثيراً عن واجبات الابناء للاباء أفأنا الآن الزمان لأن نسمع شيئاً عن واجبات الاباء الابناء ؟ ان بين الاباء من يمارس قتل الابناء على غير وعى منه ويظن مع ذلك أنه لن تتعلق به تبعه لأنه لم يقصد الى موت ابنائه . ولكن التبعة كلها فوق رأسه . فهو اذا كان مريضاً يجب أن يكف عن التناسل ويترك هذه المهمة للأصحاء ، واذا كان جاهلاً بترية الطفل يجب أن يتعلم

ان في البلاد جمعية للرفق بالحيوان . وكثيراً ما نجد ونحن بازاء أولئك الاطفال الذين يغطي عيونهم الذباب وتسيل خدودهم شحوباً وصفرة انا في حاجة الى جمعية رفق بالاطفال تنزع هؤلاء الاطفال من آباءهم لانهم غير جديرين بالابوة غير قادرين واجباتها حق قدرها ولا شيئاً منه

روح التسامح

ربما كان القارئ يحجل ان النظام البرلماني انما يقوم على أساس التسامح وينجح بمقدار ما في الامة من روح التسامح في الاراء والمذاهب . لان هذا النظام يقضى بحكم الكثرة وخضوع القلة لها ريثما يدور الزمن وتعود القلة الى كثرة . فلو تشددت القلة في التسك برأها وأبت الخضوع لرأى الكثرة لانهدم النظام البرلماني من أساسه وسادت القوضى مكانه . ومن هنا نجد ان الامم العريقة في هذا النظام مثل انجلترا تختلف اعضاء برلمانها جد الاختلاف في الرأي فلا تسمع من احدهم كلمة بذيئة في حق الآخر . وهذا على خلاف ما يحدث في الامم التي تجد فيها هذا النظام على أساس استبداد قديم سابق حيث تبلغ الخصومة السياسية حد الضرب والقتل كما كان يحدث الى عهد قريب بين بعض الامم التي تعيش في البلقان

ولكن اذا كان التسامح ضرورياً لنجاح النظام البرلماني فهو أكثر ضرورة لنجاح سائر مرافق الامة . اذ لا أدب ولا تجارة ولا تعليم الا بالتسامح . فالادب لا يرقى بل لا يعيش الا اذا اشرب القراء والكتاب روح التسامح . فاذا كان كل قارئ يقف مستعداً لكي يضرب كل مؤلف لا يكتب وفق ما هو يهوى ويجب ان يؤلب عليه الناس لكي يقطعوا رزقه ويحرموه من العيش ، لكسر كل كاتب قلبه واقفرت الامة من مصايح الهدى التي تهديها ولو كان كل نائب يقف من نفسه « شاهد ملك » ليدل الحكومة على ما آخذ كل كاتب آخر ويطلب اليها معاقبته

حقوق الطفل

الطفل أعجز مخلوق عن المطالبة بحقوقه ولكن له مع ذلك حقوقاً يجب على الهيئة الاجتماعية أن تحافظ له عليها . فهو الآن طفل وهو غداً رجل وليس من الحق أن نقول انه يحصل الآن على حقوقه لأنه لو كان هذا حقاً لما مات من الاطفال عندنا . في الالف ولما شب منهم عدد كبير وهم عريان أو ناقصون من بعض الكفايات

فللطفل حقوق أهمها أن يعيش في صحة وفي رفاهية حتى يقضى أيام طفولته . وليست صحة الطفل بالامر الهين فانها يجب العناية بها قبل أن يولد بسنوات اذ ليس كل انسان جديراً بأن يكون أباً للاطفال فالأبلة والمريض كلاهما يجب أن يمنع من ولادة الاطفال . لأن للطفل الحق في أن يولد صحيح الجسم وما دام أبواه أو جداه مريضاً فهو لن يحصل على الصحة . ثم من حقه بعد أن يولد من أبوين سليمين أن يعنى به في لباسه وغذائه وراحته . فلكل طفل أن يطالب المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه بأن تكون أمه قد تعلبت وقد أحسنت تربيتها حتى لا تثقل عليه باللباس فترهقه ولا تهمل نظافته فتؤذيه ولا تفسد غذاءه بالكثرة أو بالقلة فينشأ ضعيف الامعاء عرضة لعدة أمراض . فللطفل أن يطالبنا قبل أن يولد بأن تكون أمه متعلمة لاتؤمن بالتائم والرقى ونهمل الطب . وله أن يطالبنا بالانسماع لامرأة بأن تلد ولداً الى هذا العالم اذا كانت لاتزال تعتقد أن غسل العين الرمء يؤذيها وان وفرة الملابس على الطفل تمنع عنه البرد وأن الرأس يجب أن يترك بلا غسل حتى يعمه القرع

هذه هي حقوق الطفل لكي ينشأ صحيحاً . وله حق آخر في أن يعيش في رفاهية وفي راحة . فليس من حق الوالدين أن ينهيا على سريره قدر أو يفسدا عليه مزاجه بالضوضاء أو بخرج المسكان أو بالافراط في التقييل أو التجميش . لان الطفل ليس لعبة للابوين يتسلان بها بل هو انسان قبل كل شيء . من حقه أن يعامل أحياناً بالجد وعلى الدوام بالعدل

ومن حق الطفل الذي لاتستطيع أمه ارضاعه أن تعني الحكومة باللبن الذي يباع له في السوق . وليس معنى عناية الحكومة أن تجعل بائع اللبن المغشوش يدفع غرامة بسيطة يخرج بعد الحساب منها راجحاً . ولو كنا نحن البالغين نشترى الخبز مخلوطاً بنشارة الخشب

لما بقي في الأمة رجل واحد يكتب. وكذلك لو أننا تشددنا في التجارة وسألنا كل من يعاملنا عن دينه ورأيه لما تبادلنا التجارة مع أحد. ولقد أصيبت أوروبا عند ختام الحرب بمثل هذه النزعة فرفضت الاتجار مع روسيا لأنها شيوعية ثم تغلب عقلها على عواطفها وعادت فتساحت وتبادلت وإياها المتاجر. واعتبر ذلك أيضاً في التعليم. فهذه نظرية التطور مثلاً تدرس في مدارسنا الآن فلو أن روح التعصب كانت تشمل برامجنا التعليمية لحرم ابنائنا من درس هذه النظرية العظيمة التي أصبحت مفتاحاً لجميع العلوم والآداب والأديان

فتقدم العالم يقتضى التسامح وأساس التسامح هو معرفة التسامح بحبله كما أن أساس التعصب هو غرور المتعصب بمعرفته. وليس في العالم حقيقة لا يمكن الشك فيها أولاً يمكن النظر إليها من وجهتين مختلفتين حتى أن اثنيتين يشك الآن في البديهيات ويكاد يقول أن مجموع اثنين واثنين ليس على الدوام أربعة

فاذا كان الشك يبلغ هذا الحد في البديهيات فكيف بالبحث في التاريخ أو الاجتماع أو السياسة حين يكون الرأي الجديد مخالفاً للصالحية الشخصية لبعض الطوائف أو مناقضاً للعادة المألوفة المحبوبة أو مصادماً للملاذ السكسل التي يأبى المتعصب بها أن ينشط لدرس الجديد ؟

فهل لنا أن نطلب إلى الشيخوخة المسنة أن تتمهل وتسامح مع نشاط الشباب وأن تعرف أن الأمة تحتاج على الدوام إلى النظر إلى الامام وإلى المستقبل كما تحتاج أحياناً إلى النظر إلى الخلف وإلى الماضي ؟

إن بضير الأمة أن يؤلف أحد شبابها كتاباً يخالف رأى شيوخها لأن هذا الكتاب ستتناوله العقول بالنقد والتحجيص فيزول غشه ويبقى ثمينه على مدى الزمن. فلنقتل الكتاب بحثاً وفحصاً ولكن يجب أن نترك المؤلف فلا نطلب أن نقطع رزقه لأن هذا الطلب الأخير هو من الخطوط التي اندثرت بزوال القرون الوسطى حين كانت « محكمة التفتيش » تصدر من تهمته بالزندقة في أملاكه وتستصفىها

إننا لانزال جبهة بحقائق هذا العالم وجهلنا هذا يمنعنا من البت والجزم ولهذا يجب أن تسامح فيما يقوله غيرنا لأننا لسنا من الثقة بأرائنا بحيث نستطيع أن نقطع بسخافة آراء الغير أو ضررها. ويجب أن نتذكر أن لكل جديد صدمة تشبه ما تلقاه النفس لأول ما تسمع لناً جديداً. فقلنا نستطيع اللحن الجديد لأول سماعنا إياه ولكن الاستطابة تعقب المعاودة. وكذلك الآراء الجديدة تصد عنها النفس كما تصد عن الزى الجديد ثم تستحسنه بالمعاودة والالفة. والتقدم والرقى كلاهما مستحيل مالم تقبل الجديد وتسامح فيه

برنامج لاصلاح

لقد صارت تركيا جمهورية منذ سنوات وأخذت حكومتها تنفيذ برنامجاً غريباً فيه شيء كثير من الغلو لانهاض الأمة. بل مصطفى كمال لا يرضى بالتطور لأنه يرى فيه من البطء مالا تطيقه نفسه الوثابة فهو لذلك يعتمد إلى الطفرة فينفذ برنامجاً بالسوط وأحياناً كثيرة بالسيف

ولسنا في مجال تقدير اصلاحات مصطفى كمال فإن فيها كما قلنا شيئاً كثيراً من الغلو الذي لا يوافق عليه شرقي وإنما العبرة التي نستفيد منها أنه يمكن اصلاح الأمة وتغيير أخلاقها بواسطة القوانين والحكومة. وإن الطفرة قد لا تقل أحياناً في الفائدة عن التطور على ما فيها من صدمة للرأى العام ونحن هنا في مصر نشترك مع سائر أقطار الشرق في أن دهمنا وعامتنا مثل عامة هذه الأقطار ودهمنا من حيث تراكب الجهل وتراكم الخرافات التي خلفتها لنا القرون الماضية. ولكننا نختلف عن هذه الأقطار في شيء آخر وهو أن خاصتنا لا تقل ثقافة وحضارة عن الخاصة في أوروبا وأزمة الحكومة الآن في أيدي الخاصة كما أن أزمة الرأى العام أيضاً في أيديها. فإذا أرادت الخاصة اصلاحاً للأمة في أي فرع من فروع مراقبها استطاعت أن تنفذه بقوة الحكومة وإن تعي الرأى العام لنصرته وتأنيده

لقد كنا في الأربعين السنة الماضية مشغولي الذهن باستقلالنا وبمكافحة خصومنا المحتلين ولذلك لم نفرغ لاصلاح الأهالي اصلاحاً عمرانياً اجتماعياً. ولسنا ندعى أننا قد فرغنا من كفاحنا مع خصومنا ولكننا نظن أننا يمكننا الآن أن نخص الأمة بشيء من الاصلاح الاجتماعي إلى جانب كفاحنا السياسي

ففى أوروبا برامج عديدة للاصلاح الاجتماعي جدير برجال السياسة والحكم عندنا أن يدرسوها وينقلوا إلينا منها ما هو موافق لبيئتنا الاجتماعية. ففى بريطانيا العظمى مثلاً نظام تدريجي للعاشات بحيث أن كل من بلغ السبعين سواء أكان رجلاً أم امرأة بصرف النظر عن صناعته السابقة يتناول معاشاً يجعل دخله السنوى نحو ٢٧ جنيهًا. والحكومة تنفق نحو ٣٠ مليون جنيه في العام على هذا المعاش وهى بذلك قد ألغت من البلاد ضروب الشقاء التي كانت تنتشر بين الفقراء وتضطرهم إلى هوان النفس بالاستكداء

وفي معظم الأقطار الاوربية ضريبة متدرجة تقع على الدخل وهى الآن من أكبر موارد إيرادات الحكومات، وهى تصيب الغنى بنسبة أكبر مما تصيب الفقير وتقع على التاجر والمحامي والمعلم والزارع على السواء

وكذلك في معظم الاقطار الاوربية ضريبة على الميراث وهي أيضا تتدرج بنسبة قرابة الوارث ومقدار ما يرثه بحيث تقع على الغنى أكثر مما تقع على الفقير وعلى الوارث البعيد أكثر مما تقع على القريب

فكل هذه اصلاحات يمكن اصطناعها في مصر لزيادة إيرادات الحكومة حتى تقوم بنفقات التعليم مثلا . فان الامة في حاجة الى نحو عشرة آلاف مدرسة جديدة حديثة ولا يمكن تأسيس هذه المدارس والانفاق عليها إلا بمبالغ طائلة . وفلاحنا لا يتحمل أكثر مما يحمل من الضرائب

كيف وماذا نقرأ

الناس رجلان احدهما يحتال للارتفاع من وقته كأنه يجعل من الساعة ساعتين والآخر يحتال لاضاعة وقته بحيث يحيل الساعة الى نصفها أو الى العدم . وهناك وسائل عديدة عند هذا الفريق الاخير لقتل الوقت وتضييع الفرص وتقصير العمر القصير حتى لشعر من اتقاهم معرفة هذه الطرق أنهم يندمون على أنهم قد ولدوا الى هذا العالم . ويمكنك أن تحيل النظر في القهوة وتدرس بعض الالعب حتى تتأكد انها كلها انما تمارس هرباً من الحياة وسامة من الدنيا ونداماً على الوجود لسنا بسيل الكلام مع هؤلاء وانما نريد ان نتحدث الى الفريق الاول الذي يحتال للارتفاع من وقته والذي لا يندم على وجوده في هذا العالم . فمن ضروب الارتفاع بالوقت واكتساب القوة باثارة الذهن نجد القراءة في المكان الاول . وقد كانت القراءة من وسائل الرقي في الازمنة الماضية ولكنها كانت من الوسائل الثمينة التي لا ينالها الا المبالغون في الجد وأبناء الأثرياء . اما الآن فهي ميسرة للجميع لا يتكلف طالبها سوى أقل المال أو لا يتكلف شيئاً مطلقاً

وسأتي زمن ما يعيش فيه الانسان ليقرأ ولا يكاد يجد عملاً في العالم يكده ويملا فراغه . بل كل وقته تقريباً مثل القراءة والدرس

ولكن كيف يجب أن تكون القراءة ؟ هل يجب أن نسير فيها ونسلك سبيلها على النحو الذي يسلكه لاعب الزرد أو الشطرنج تزجية للوقت وفراراً من الحياة فنقرأ القصص تلو القصص وعشرات المقالات السياسية، يرادف معناها في الواحدة معاني الأخرى ؟

كلا . انما يجب أن نقرأ لننتفع . فالمعرفة قوة والجهل عجز . فلنقرأ اذن لكي نعرف ونزداد علماً بالاشياء ، لكي نزداد بذلك ادراكاً للحياة واحساساً بها . وليس في مقدور كل منا أن

يختبر جميع شئون هذه الدنيا اختباراً مباشراً انما في مقدورنا جميعاً أن نكتسب علماً بها عن سبيل الآخرين الذين اختبروها وأثبتوا اختبارهم بأقوالهم بنفقتنا

ومعنى هذا أنه يجب أن يكون لكل منا مكتبة في منزله وأن يعد الكتب من ضروب الاثاث الضروري للنزل بل هي أكثر ضرورة من بعض الاثاث الذي ترتكم به بعض المنازل في غير منفعة سوى الفخر الكاذب والابهة السخيفة . فالكتب هي أثاث الذهن يتقلب فيها ويرتاح اليها ويستفيد منها ويستنير بمعارفها

فيجب اذن أن تعمل عقولنا في انتقاء الكتب والمجلات والصحف فلا نقتنى الا ما ينفعنا ولا نقرأ الا ما هو ضروري لنا انما يرفعنا فوق مستوانا وينير أذهاننا ويزيدنا قوة وخير أنواع الترية حين يربى الانسان نفسه فيقيس كفايانه ويقدر ما يحتاج اليه من الثقيف لانه عندئذ يحسن التقدير ويسير مع هواه في انتقاء المواد . والهوى من أعظم الوسائل في تسهيل الصعب وتمهيد الوعر ومن الناس من لا يسعده الحظ بترية مدرسية وافية ولكنه يجد من وقته الوسيلة لترية نفسه بالكتب والمجلات اذا هو ثابر على القراءة وأحسن الاختيار في اقتناء الكتب . وليست المدرسة الا البداية للترية الحقيقية فهي تغرس في النفس (أو يجب أن تفعل ذلك) تلك النزعة التي تجعل كلا منا طول حياته طالباً للعلم ساعياً وراء الثقافة

ولن يكون ذلك الا بالكتب وتقليبها والنظر فيها واعتياد التنقيب والبحث . هذا الى نزعة موقفة تحملنا على الجد والمنفعة لا التسلية واضاعة الوقت . ولنا نقول أن قراءة الصحف السياسية تخلو من الفائدة وانما نقول ان الادمان عليها مع تكرار معانيها تضييع للوقت والمال معاً . فلنقرأ من التاريخ والشعر وسائر فروع الادب والعلم ما ننتفع به وتركو به عقولنا ويعظم به احساسنا للحياة ، قارئ التاريخ يضيف الى عمره أعمار الاجيال الماضية وقارئ كتب السياحات يضيف الى وطنه أوطاناً أخرى والتعمق في العلوم يمداد بصيرة

الفتاة الحديثة

عندنا في مصر طبقة من الكتاب اذا اعوزتهم مادة الكتابة عمدوا الى موضوع المرأة فتعوا عليها تبرجها وفسادها وانحطاطها . وقد ألف القراء منهم هذه النغمة فلم يعد يبالي بها واحد منهم وقبلها يقرأ أحد هذه المقالات الكثيرة التي تملأ الصحف بها أعندتها عن المرأة لأن موضوعها ومضمونها قد عرفا وسئما معا

ومضمون هذه المقالات أن المرأة الحديثة أكثر تبرجاً وأخطأ أخلاقاً من والدتها أو جدتها .

وليس ينكر أحد أن في مصر وخاصة في القاهرة نساء متبرجات يسرن في ضوء النهار قبل الظهر وبعده بلباس السهرات مكشوفات أعلى الصدر وأعلى الظهر . ومنهن أيضاً من يضعن المساحيق على وجوههن ويصنعن الوشى المختلف والمضحك معاً للملابسن . وكثيراً ما يكون الجهل داعية ظهورهن بهذه المظاهر فهن لا يتعمدن هذا المظهر وإنما يجعلان المظهر اللائق ومقابلة المرأة القديمة بالمرأة الحديثة موضوع دائم الطلاوة يغرى الكتاب بالكتابة حتى في أوربا فهناك ينعون على الفتاة الحديثة ترخصها في عادات كانت جدتها لا تجرؤ على اعتيادها مثل التدخين والمجاهرة بالرأى وتقصير الثياب وتضييقها وقصر الشعر ونحو ذلك

ولكن للفتاة الحديثة من يدافع عنها ويقطع السنة السوداء التي تعبت بشهرتها . فقد رد أحدهم على ما تهم به وقابلها بالجذات القديمة فرجد أن الفتاة الحديثة على الرغم من انطلاقها في الحرية أكثر شعوراً بالمسئولية من جدتها وأكثر استعداداً لمواجهة الشدائد وأكثر اعتماداً على نفسها وأعرف بوسائل العيش الشريف منها . فقد كانت آداب الجدات محصورة في الصمت وتكلف الأدب أمام الرجال والاقتصار على أعمال البيت وكانت تلبس من الثياب الضافية ما يكفي الواحد منها لأن يفصل منه ثلاثة أو أربعة مما تلبسه الفتاة الحديثة . ومن يقف في لندن عند فوهات أو محطات الانبوبة (أى القطار الذى يجرى تحت الارض) ويرى آلاف الفتيات اللواتي يندحن للبعاش وهن مقصوصات الشعر متقلصات الملابس لا يسعه الا احترامهن واكبار نفوسهن . ولو كانت جداتهن في مكانهن لقعن بالقعود في البيت والرضا بالدون من العيش ولكن هؤلاء الفتيات أطعم في مسرات الحياة وأشجع على مشقاتها وأنزع الى الرجولة منهن وأذكى عقلا وأخف يداً وقدماً من أن يرضين بلزوم البيت مع الفقر والمسكنة في حين يمكنهن الاكتساب بالعمل والجد هذا في لندن . والحال ليست كذلك في القاهرة . ولكنها ليست من الخطر بالمقدار الذى يوهمنا به زعماء القديم من كل شيء . فقد سلمنا بأن في القاهرة طبقة من الفتيات تبرج عن جهل لا عن قصد . والذى يدعونا الى هذا الظن أن تبرجن خلو من الذوق . ولو كان عندنا رأى عام مهذب يدري بالاذواق والازياء لكانت لفتة واحدة من الرجال يزدرون بها هذه الازياء تسكفى لان تمنع الفتيات من التبرج منعاً باتاً ولكننا نقول ان الفتاة الحديثة في مصر لا تزال مع ذلك أصبح نظراً للحياة من والدتها أو جدتها . فهي تمشي الآن وحدها في الاسواق معتلة القوام مرتفعة الرأس في حين كانت جدتها تمشي متعثرة مع الخدم . وهي تقرأ بينما كانت أمها جاهلة . وهي لا تبالي بالسمن في حين أمها كانت ترهق أمعاءها بأكل المسمنات . وهي ترى العالم بعينها ولا تضع على وجهها سوى نقاب خفيف بينما كانت أمها تخفى عينيها عن العالم . فإذا قيل بعد ذلك أنها تداعب الفتيان في الطريق فانه يجب على القارىء أن يذكر ان المداعبة تحتاج الى اثنين فإذا لمنا الفتاة وجب أن نلوم الفتى . وهو باللوم أحق لانه هو البادى

والناس يحبون مقابلة الحاضر بالماضى فيصغرون الاول ويكبرون الثانى . فتراهم يصفون القدماء بانهم كانوا أحفظ للذمم منا وكانوا أعف في الحرمات منا وكانوا وكانوا . وكل هذا كذب لا أصل له . فان جدودنا مثلاً رضوا بحكم المالك فكانوا أجبن منا ورضوا بمظالم كثير من حكمهم حتى أشرفت البلاد على الخراب . وقد زار ندلسى قبل نحو ٧٠٠ سنة بلادنا فذكر ان الفحش والزنا في القاهرة لا حد لها وان قذارة مدتنا لا تطاق . فالقول بأن المرأة القديمة تفضل المرأة الحديثة لغو لا يقول به الا الجاهل

عصر السياحات

في الصحف الانجليزية اعلان غرب وضعته شركة كوك المعروفة في مصر . وخلاصة هذا الاعلان أن هذه الشركة ستهي المهمات اللازمة لرحلة كبيرة بين القاهرة والكاب . وستشرع الشركة في القيام بهذه الرحلة ومعها الحرس اللازم والمؤن يوم ١٠ من ديسمبر القادم لقد قرأت هذا الاعلان وأنا أتعجب لشيئين : همة هذه الشركة التي سترتاد قارة وكأنها تقوم الى الهرم أو الى أسوان . وأيضاً اتسام عصرنا هذا بسهولة التنقل ووفرة مافيه من سياحات افريقيا بلاد الاسود والقبيلة وأكلة البشر من الناس . بلاد التماسيح والقردة والزواج الذين لم يهتدوا بعد الى فن الزراعة . بلاد الحر والبعوض ومرض النوم سيذهب الى قلبها لابل سيخترقها من الشمال الى الجنوب جوقة من الناس من أهل باريس ولندن وغيرهما من بلاد النور فيرون بعيونهم الوحوش والتوحش ويرون كيف كان الانسان قبل أن يتحضر . يرون الاصنام تعبد في سنة ١٩٢٦ . ويرون الزعيم زعيماً لان عنده نحو مائة امرأة . ويرون جبال افريقيا ومنايع النيل والشلالات العظمى في افريقيا الجنوبية . يخرجون في الشتاء من القاهرة ويبلغون الكاب في الشتاء أيضاً فيجدعون شمس افريقيا ويقعون تحت لهبها في الصيف

حقاً أنها لرحلة عظيمة تقوم بها شركة عظيمة . فلنعجب الاعجاب كله بهذا الخلق الانجليزي العظيم الذى يستسهل الصعب وتلذ له المجاهدة والمكافئة . ولكن لنترك هذا الان ونلتفت الى مغزى آخر لهذه الرحلة

وهذا المغزى الاخر هو أننا نعيش في عصر السياحة وأن العالم كله قد آل الينا ميراثاً أورثنا اياه العلم والحضارة . فإذا نحن عقلنا انتفعنا بهذا الميراث وإذا لم نعقل بددناه كما يبدد الوارث السفيه تركة أية . وسيل انتفاعنا به هو أن نعرفه ونجربه ندرس مافيه من ناس وحيوان ونبات وجماد لقد كان كاتب هذه السطور يتخيل طوبى . أو مثلاً أعلى للهيئة الاجتماعية فجعل السياحة

للقطب الشمالى أو غيره من الاصقاع النائية شرطاً سياسياً للتربية في تلك الطوفى . وإنما الطوفى تصورها الإنسان خيالاً يرجو أن يتحقق بعد شوائب عام على الأقل . أما هذه الشركة الإنجليزية تقدم على القيام برحلة من القاهرة الى الكاب في سنة ١٩٢٤ فاننا عند تأليف طويبات أخرى يجب أن نرعى للخيال بل نطلقه حتى يتخيل ماشاء بلا قيد ولا شرط دون أن نخشى المبالغة لقد بدأنا نشعر أن التربية الحقيقية يجب أن تعدو حدود الكتب فصارت المدارس تقوم برحلات متفاوتة طولا وقصراً . ولكن يجب أيضاً أن نعرف أن التربية لا تقتصر على طلبة المدارس بل كل منا طالب يطلب العلم ويزداد معرفة الى يوم وفاته . والسياحة وسيلة من وسائل المعرفة فيجب أن نستغل وسائل النقل الحديثة من بواخر وقطرات وطائرات لرؤية العالم . ولسنا نغنى بالسياحة تلك الرحلة السنوية الى باريس حيث يعود الانسان أسوأ صحة وأضعف أخلاقاً مما كان كما اعتاد بعض الاثرياء الذين يحجون كل عام الى باريس

كلكم راع

لقد كنت أقرأ هذا الاسبوع قصة من تلك القصص السرية للكاتب الإنجليزي ولز . وكل قصة من قصص ولز تبحث في موضوع قائم برأسه أكثر ما يكون اجتماعياً أو نفسياً . وأقل الاشياء خطأ في قصصه على خلاف مانرى في القصص الاخرى هو العشق وموضوع هذه القصة رجل يحترف حرقة وضبعة تصد عنها نفسه وطبيعته ولكن عيشه يربطه بها ويقهره على لزومها فيلزمها صاغراً . وأخيراً انطمو به نفسه الى الخلاص منها بطريقة مختصرة غاية في الاختصار وهو انه يحسب نفسه ملكاً ويجن ويرسل للبارستان ومثل هذا الجنون يعرفه المشتغلون بعلم النفس . وقد أخذ المؤلف يحلل نفس هذا المسكين ويعمل جنونه علة بعد علة مما لانرى المجال يتسع لابراده . وإنما نختصر القول بأن نقول أن في نفس كل انسان نزعة الى العلا والخير وأنه مهما كانت حرفته وضبعة ففى قرارة نفسه بذرة الملوكية التي تأبى الضعة والهوان

وبعضنا تنزع به ملوكيته الى الجرى وراء المناصب العليا من نيابة أو وزارة أو غيرها . وبعض آخر تسمو به نفسه الى البر فيؤلف الجمعيات الخيرية أو ماشاء كلها . وثم بعض آخر أيضاً يعمد الى هذا العالم فيبسط عليه سلطان عقله ويدرسه ويتعمق في معرفة أسرار . والمعرفة ضرب من التسلط وبعض آخر يعمد الى التجارة فيستولى بها على مملكة صغيرة من محتويات هذا العالم يطمع بذلك الى نوع من الملوكية وقد يكون مخدوعاً

فكل هذه حالات تدل على نزوع كل انسان الى السمو وحب التسلط والحصول على ضرب من الحكم والرشية في أن تسلط العالم بطلاناً . وهذا ما قصد اليه المؤلف الإنجليزي وقد بالغ في قوة هذا النزوع حتى نسب الجنون الى رجل قهرت فيه هذه العاطفة بلزومه حرقة وضبعة لا يرى فيها مجالاً للظهور في العالم والعمل لرفيه وطبعه بطابعه حتى ثارت عليه نفسه واقتضته دينها كله بأن أوهمته أنه ملك

وفي العرييه قول مأثور وهو . كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته « وهو معنى ما قاله هذا المؤلف حين قال : كلكم ملك وكلكم مسئول عن مملكته »

ولكن كيف نمارس هذه الملوكية وتأخذ على عاتقنا قسماً من مسؤولية الحكم ؟ نمارسها برقابة الحكام ومعوتهم على العدل والبر وكفهم عن الظلم والعسف . ونمارسها أيضاً بأن تتولى نحن شيئاً من الحكم بمعونة الناس على الصلاح والمعيشة الحسنة وامتلاك ناصية الطبيعة بالاكتشافات العلمية لان الاكتشاف نوع من التسلط واذاعة المعارف بين الناس نوع من الحكم أجل يجب أن يراقب كل مناحكومة البلاد التي يعيش فيها ويجب أن نستعد لان نسأل نواب البلاد كما يسأل الملك وزرائه في نهاية العام : ماهو الاصلاح الذى تم على يدكم للبلاد ؟ فاذا لم يكن ثم اصلاح قد تم فان العام قد ذهب سدى وضاعت فرصة ثمينة لتقدم الامة ونجاحها وكذلك يجب أن نغضب عند مانرى موظفاً يهين أحد الناس أو يؤدي عمله بالارتشاء أو يستعمل سلطته في الأذى والضرر . ويجب ألا يقف غضبنا عند حد السخط السلبي بل ينبغي أن نمير عن سخطنا تعبيراً إيجابياً ونعمل عملاً يقتضى تأديب هذا الموظف حتى يعتبر به غيره وثم مملكة أخرى بل ملكوت آخر يجب أن نمارس فيه سلطاننا . وهذه المملكة أو هذا الملكوت هو هذا العالم من حيث حدوده الجغرافية والتاريخية أو من حيث حدود الزمان والمكان فيجب أن ندرسه ونعرفه لانه لا يلىق بملك أن يعيش جاهلاً ولا براع أن يحكم بين الناس وهو يجاهلهم ويجهل تاريخهم

« كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » . أجل . ولكن كيف ترعى رعيته اذا لم تنصب نفسك لدرس شؤون هذه الرعية وتفهم موارد كسبها وأبواب نفقاتها وظلم الظالمين فيها وعدل العادلين بها ؟ فشرط هذه الرعاية بل الشرط اللازم لأن تكون ملكاً هو أن تدرس ثم تراقب حكومتك وأمتك وأن تعمل للخير في وطنك وأن تبذل مالك ونفسك بهمة ملوكية عند ما تقتضى الظروف ذلك منك كما يبذل الملك الشجاع نفسه في الدفاع عن أمة

وكان سائحاً وكان موظفاً كبيراً بلا السياسة وحنكته الدسائس عرف الحب شاباً وكهلاً . وكان يعرف للطعام الحسن قيمته ويشرب أجود الخمر في الليل وأجود أنواع الشاي في النهار فعاش بذلك حياة وفيرة لم يرض فيها على نفسه بشئ . من متعها

ولسنا جميعنا في كفاية جيته وقد لانستطيع أن تتمتع بما تمتع به . بل قد تكون بعض متعه آلاماً لبعض الناس . وإنما قصدنا أن نقول أنه ينبغي لنا الاعتدال في العمل الذي نزاوله لكي نتاح لنا الفرصة للتمتع بالحياة فإن تعدد وجوها يقتضي أن نلزم بها لكي نعرفها دون مبالغة أو ادمان في أحدها

فالاعتدال فضيلة يدعونا إلى ممارستها الاحساس بالقوة لا الاحساس بالضعف . فيجب على المعتدل ألا يخشى تهكم المتكلمين ولم في الحياة من متع نجهلها ونحرم أنفسنا منها وهي على مدى الذراع في تناول كل انسان لو أراد . فنحن نعيش مثلاً في مصر التي هي أصل حضارة العالم أجمع بشهادة العلماء ومع ذلك نجهل آثارها التي تكشف لنا عن تاريخ العقل الانساني وضلالاته . ونحن نعيش في عصر حافل بالاختراعات والمكتشفات وأي شيء أمتع للنفس من أن ندرس هذه الاشياء ونجربها . أجل ، ندرس آلة الطائرة ونركبها فغذى الذهن والاحساس معاً . اليس من العار أن نموت قبل أن نركب الطائرات ونقضي حياتنا مكبين على عجلتنا كأننا مستخرون له ؟

فلنكن عظماء

إن تكن عظيمًا حتى تعد نفسك عظيمًا وتمارس العظمة . وإن تكون شريفًا حتى تعد نفسك شريفًا وتمارس الشرف . فالعادة والممارسة كلتاهما واجبة لكي نصطنع الشرف أو العظمة أو ما يقابل هاتين الصفتين من الدناءة والخطئة

وأنت إذا توهمت نفسك عظيمًا ثم وقفت عند ذلك لما نلت من العظمة إلا الظل . ولكن إذا أنت توهمت العظمة ثم مارست بعض الاعمال العظيمة مهما كان مركزك فانك لابد بالغ نوعاً من العظمة في مستقبل أيامك

فاذا كنت تتوهم العظمة في الثروة فلا قيمة لتوهمك ما لم تشرع في جمع بضعة قروش . وأول المليون واحد . وإذا كنت تتوهمها في العلم فاشرع في الحال في درس ما ترغب فيه . وإذا توهمتها في السياسة فلا تقنط من أن تكون وزيراً وأنت ترى زمننا الديموقراطي يرفع العصامين إلى مراتب الوزارة فيما يشبه الحلم . بل لقد قال أحد وزرائنا أنه حلم بالوزارة قبل أن ينالها . وليس

الاعتدال

كان أحد المتكلمين يقول ان الاعتدال دليل الضعف . وقد يكون كذلك في بعض الحالات . فمن الناس من يتورع عن الخمر أو يعتدل في تناولها لما يرى من أثرها السيء في صحته . ومنهم من يعتدل في الطعام لأن معدته ضعيفة وإن كانت نفسه نهمة

ولكن هناك اعتدالاً يجب أن نصطنعه للقوة لا للضعف . فيجب مثلاً أن نعتدل في الرياضة البدنية حتى نجد وقتاً للرياضة الذهنية . ويجب أن نعتدل في درس العلوم حتي تتمكن من درس الآداب ويجب أن نتوسط ولا نغلو في جمع المال لكي تتمتع بالاصدقاء والكتب وهناء العائلة والنزه

فالحياة الكاملة أو التي تنشئ الكمال يحتاج صاحبها إلى الاعتدال والتوسط . لأن هذه الحياة لا تبلغ القوة والسلطان على الوسط الذي تعيش فيه حتى يأخذ صاحبها بطرف من جميع مهام هذا العالم . الحياة الأديب الذي يمدن النظر في الأدب قد تنتهي به إلى أن يصير دودة من ديدان الكتب يؤثر الجملة المزخرفة والعبارة المبهرجة على متع الحياة الحقيقية . والكتاب مهما قيل في مدحه هو نسخة مترجمة عن الحياة وليس هو الحياة بالذات . وحياة العالم الذي يكب على العلم ولا ينظر في الأدب هي أيضاً حياة ناقصة تدعو إلى قصر النظر وضيق الذهن . وإنما الحياة المثلى هي حياة الاعتدال بين شهوة العلم وشهوة الأدب . وكذلك يمكن القول عن رجل الأعمال المكب على جمع المال المنغمس في شهوة الحصول على أعراض العالم يكبد طول يومه وبعض ليله في اقتناء الدور والمصانع والأراضي كأنه أحد الفعلة الذين يعملون عنده بل قد يكون الفاعل أكثر ثملياً للحياة وتمعناً بمسراتها منه

وقل مثل ذلك في سائر الناس . فالواجب أن نعتدل ونقنع من الحصول على بعض أشياء لكي نجد من الوقت والقدرة ما تتمكن بهما من التمتع بأشياء أخرى لأن الحياة أوسع وأعظم من أن يسعها الاكباب على عمل واحد وادمان النظر . الاجتهاد فيه

ولقد كانت المسيح يتكلم عن « الحياة الوفيرة » المليئة بالتجارب والمتع وكان يتخيل هذه الحياة كمثل أعلى أراء ما كان يرى من حياة ضئيلة يعيشها الناس . وكلم من الناس الآن يعيش حياة ضئيلة لا يعرف من الدنيا سوى عمله الذي يربح منه قوته يكب عليه بكل قوته ويتعامى عن كل ماحوله كأنه لم يخلق إلا لياكل

لقد كان جيته الأديب الألماني ولا يزال مضرب المثل في التمتع بالحياة ، كان أديباً وكان عالماً

حلله معنى سوى أنه كان شديد الاشتياق للحصول عليها فزاول بعض صعاها حتى ارتقى إليها .
وإذا توهمتها في الصناعة فاشرح في الحال في تجاربها الأولى

فالتوهم مفيد لأنه بعد النفس ووجه قواها إلى الغرض . ولكن لابد من المزاولة حتى يتجسم الوهم وينزل من رتبة الخيال إلى الحقيقة ويجب ألا نخشى نقائصنا أو ماتوهم أنه من نقائصنا . فلا الفقر ولا الجهل ولا المرض ولا الآفة المعجزة نفسها تمنع العظيم من أن يحقق عظمته لأن الطموح يسهل كل عقبة ويفتح كل باب مستغلق وبعد ذلك تأتي المزاولة ومتى زاولنا شيئاً فنحن في طريق الخوض فيه إلى النهاية

لقد كان هانير رجلاً أعمى فاجأه العمى فجزع له لأول صدمة ثم تنبه إلى أنه إنسان يجب ألا يرضى بالخضوع والاستسلام فأكب على درس التحل وصار بعد ذلك بمن يوثق بهم في هذا الموضوع الذي يستعصى على معظم المبصرين . وهذا الدكتور طه حسين أصيب بالعمى وهو في الثانية من عمره فما عاقبه هذا عن أن يكون من أكبر أدباء مصر ومن أجراء الكتاب في طلب الإصلاح . وهو لم يبلغ هذا المبلغ لقوة خارقة في ذكائه بل لأنه طامح إلى العلامك على الأدب يمارسه بذمة وأمانة

فلنكن عظاماً . لكن لنا هدف عال نسدد إليه نشاطنا وقوانا ونوجه إليه طامحنا ولنذكر على الدوام أنه مامن إنسان بلغ رتبة كان طامحه دونها فان من يقنع بالقليل يناله ويقف عنده ولكن من يطمح لبوغ الكثير يضمن القليل على أية حال والارجح أنه ينال الكثير أيضاً ، ولنتوهم العظمة في نفوسنا ولودعانا هذا إلى بعض الكبرياء لأن من يمارس الكبرياء لا يجد بداً من النزوع إلى العلا والتباعد عن الدنيا والنبو عن السفساف . ولا ينقصه عندئذ إلا أن يزاول بعض ما يطمح إليه ويشرع في الخطوة الأولى يجد نفسه أنه قد بدأ السير في الدرب الذي تنتهي إليه غاية طامحه فانت أيها القاريء كما تتوهم في نفسك . فإذا توهمت العظمة فأنت عظيم منذ أن تبدأ في تحقيق توهمك . والعظيم لا يجزع وقت الهزيمة لأن نفسه طامحة مستبشرة بالنصر القريب فهو يستبين بالآلامه ويستأنس بأحلامه حتى إذا سنحت الفرصة انطلقت قواه فحقق ما يريد . ولا يهولنك أن يقال لك أنك تمنى نفسك وتستقيم للأحلام لأنه مامن إنسان بلغ رتبة عظيمة الا وكان يحلم بها السنين الطوال قبل أن يحققها

مصالحك هي مصلحة الجماعة

أنك تعمل ضد نفسك إذا عملت لنفسك فقط . لأن مصالحك متعلقة بمصالح الجماعة التي تعيش بينها بل بمصالح العالم كله . وهذه حقيقة عرفها بعض الدول التي كانت تجارب المانيا فانها ظنت ان بالقضاء عليها تنفرد هي وحدها بسلطانها في العالم . ولكن خراب المانيا عاد بالخراب على أعدائها أيضاً لأن أمم العالم متضامنة لا تقدر احداها أن تبيع شيئاً مالم تقدر الاخرى أن تشتريه فاذا عجزت الاخرى عن البيع . فالنية السيئة التي انطوى عليها بعض الدول لمانيا عادت عليها هي نفسها بالضرر نفسه الذي عاد على المانيا بل ربما بأكثر منه

وقد بدأ الانجليز يدركون مغزى آخر لهذه النظرية في أحوالهم الداخلية . فقد رأوا من الرواج في الولايات المتحدة ما تعجبوا له ولم يفهموا سره ازاء الكساد الذي يروونه في بلادهم . وأخيراً عرفوا ان زيادة أجور العمال في أميركا تزيد قدرتهم على الشراء فتروج الاعمال ويعم الرخاء أخذاً وعطاءً أما في انجلترا فان كل محاولة لتقصير الاجور تنشر الكساد بين الناس لان العمال وهم كثرة الامة لا يستطيعون الشراء . فأصحاب المصانع الذين يريدون رواج مصنوعاتهم لا يمكنهم أن يحققوا ذلك ماداموا يعملون في الوقت نفسه على انقاص أجور عمالهم . فمصلحة الممول هي نفسها مصلحة الاجير ولا يمكن الممول أن يطلب السعادة لنفسه اذا كان يطلب الشقاء لاجيره لانهما متضامنان وأنت أيضاً أيها القاريء لا يمكنك أن تخدم مصالحك مالم تخدم مصالح الامة التي تعيش فيها ولا يمكنك أن تسعد اذا كانت الجماعة التي تعيش حولك شقية . لان شقاءها يعود عليك بالذات . فأنت لكي تعيش عيشة صحية ولكي يسلم أطفالك من الامراض يجب أن تنتشر الصحة والعافية بين الجماعة التي تعيش بينها وتنتفي الامراض من بينها . لانه لن يكون أولادك في أمن من المرض مادام أولاد جارك مرضى . فعنايتك بأولادك تقتضي العناية بأولاد جارك حتى لا تنتقل عدواهم اليك . ولن تستطيع أن تشرب ماءً نظيفاً خالياً من جراثيم المرض حتى تحتم وجوب نظافته لجميع سكان البلدة التي تعيش فيها ولن يكون ولدك آمناً في الطريق من لص يسرقه أو ترام يدهمه أو غبار يملأ عينيه أو منظر يفسد أخلاقه مالم تسع لجميع الاولاد لكي يكون طريقهم آمناً أيضاً

فأنت بوسطك لن ترتفع أكثر مما يرتفع معك ولن ينزل هو حتى يجررك وراه . فصالحنا الذاتية تقتضي أن ننظر الى مصالح الآخرين لان خيرهم خيرنا وشرهم شرنا

لقد كنت من مدة أقرأ احد كتب التاريخ لمسكويه . وهو يروى فيه تاريخ بغداد والخلافة ر والزوال حين كانت اللصوصية سلم الامارة والحكم . وقد روى تاريخ أحد الامراء

وكيف أدى سوء سياسته الى خراب بلاده . فقال ان هذا الامير كان اذا جبي الضرائب الفادحة وعجز الاهالى عن الدفع ارتهن أملاكهم بما يتكسر عليهم من الضرائب فاذا غلق الرهن ولم يدفعوا اشترى منهم هذه الاملاك بانحس الاثمان بالرهن أو بقليل زيادة عليه . وانتهت هذه الخطة العجيبة بان أصبحت مملوكات الاهالى كلها ملك هذا الامير السافل . ولكن ماذا حصل لديه بعد ذلك ؟ بعد أن أصبح صاحب البلاد ملكا وملكاً قل دخل الحكومة ونقص عما كان وقت ان كانت المملوكات ملكا للاهالى وأخذت العقارات تندهور نحو الخراب فلا يتحرك الاهالى لترميمها لانهم لا يملكونها وفشا الكساد وعم الفقر جميع الناس

الغاية من الحياة

ذكر الاديب المعروف كايك انه عرف أحد أثرياء أميربا يقضى وقته في السفر على القطار أو الباخرة وهو يلى على كاتبة خطابات خاصة بأعماله . واذا قعد في الاتوميل عقد مجلساً للمفاوضة في شأن خاص بعمله أيضاً . واذا أكل أو تنزه أو تناول الشاي لم ينس الكلام عن أعماله ويخشى كايك أن تتأمرك أوربا فتكبر من شأن النجاح المالى وتجعل الغاية من الحياة احراز الثروة فقط

ولكننا يجب أن نخشى ماخشيه كايك لاننا معرضون على الدوام لفتنة المال تسارقنا شهوته فتعمى أعيننا عن القصد من الحياة وتستغرق جهودنا كلها فترانا وقد بلغنا الشيخوخة ونحن نتساءل : هل عشنا حياتنا وتمتعنا بها على هذه الارض أم قضينا عليها عمرنا فقط . وقطعنا السنين الطويلة في جمع المال ؟ ولنا بذلك ثقل من شأن المال . فان العالم لم يعرف وقتاً بلغ فيه المال من القوة والقيمة مثلاً بلغ في وقتنا هذا . فليس من الممكن أن نعيش معيشة صحيحة أو أن نربي أولادنا أو أن نثقف أنفسنا أو أن نضمن الهناء لوقت الشيخوخة ما لم نستند في ذلك كله الى جدار قوي من الذهب . فالمال قوة لا يحتقرها إلا رجل ابله

وانما عبرة كلامنا ان المال ليس كل شيء فيجب ألا يستغرق كل نشاطنا . وفي المال خاصة وهي اننا اذا بلغنا حداً معيناً لم نستطع أن نزيد مقدار تمتعنا به . فمن المعقول ان الغنى الذى يبلغ دخله الف جنيه يمكنه ان يتمتع بالحياة اكثر كثيراً من ذلك الذى لا يحصل الا على دخل مقداره مائة أو مائتا جنيه . ولكن صاحب الالفين لا يتمتع أكثر من صاحب الالف . وذلك لان متع الانسان نفسها محدودة فلنا نستطيع أن نأكل كثيراً ونحس كثيراً لان أموالنا كثيرة . وليس يسرنا أن ننام على سرير من الذهب أو أن نرى عشرين خادماً في البيت

انما نحن زائرون لهذه الدنيا نقضى في فندقها الكبير نحو سبعين سنة فيجب أن تمتع بما فيها مدة اقامتنا . ولنا نسكر ان نظام هذا الفندق يحتم علينا تحصيل المال فيجب لذلك أن نحصله ونقضى به ثمن تمتعنا ولكن يجب ألا نجعله غاية حياتنا

فالمال وسيلة وليس غاية . فيجب ان يكون لكل منا غاية في حياته غير جمع المال . وأشرف الغايات أن يرقى الانسان نفسه ويعمل لرقى من حوله . وهو إذا جعل هذا العمل غايته من الدنيا وجد حياته حافلة بالمتع العظيمة التى تشغل ذهنه وتملأ وقته وتشيعه الى القبر مسروراً بما أدى في هذا العالم . وإذا فكر الانسان في الرقى فانه يفكر بالطبع في عدة أشياء أخرى : في التعليم والصحة والدين والادب والحضارة والبر والاكتشاف

والاشتغال بهذه الاشياء أمتع للنفس من الاشتغال بجمع المال . وبرهان ذلك ظاهر وهو اننا نرى أناساً يضحون براحتهم وأنفسهم ويموتون في سبيل الدين أو الاكتشاف العلمى أو اختراع آلة . يفعلون ذلك كله ويقاسونه . وقد أخذتهم لذة الرقى فلا يبالون بما يقاسون ، ولم نسمع قط أن رجلاً ضحى بنفسه في سبيل جمع المال

إنما اللذة العليا والتمتع الحقيقى أن نرى أنفسنا كل يوم نرتقى ونجارى التطور في غاياته السامية فتتطور نحن أيضاً ، ففي نفس كل منا شهوة غنية للتطور هي أصل الثورات الاجتماعية والاكتشافات والاختراعات وكل ما يرفع الانسان

ميراث الابناء

منذ مدة نقلنا عن احد أغنياء الانجليز الذى حرم أولاده من الميراث وقال في وصيته : انه ليس من تقاليد عائلته أن يثرى واحد فيها من غير جده وسعيه . وعمو قد أدى واجبه ورباهم وعليهم بعد ذلك ان يسعوا

وهذا شذوذ وغلو في تعليم الابناء الاعتماد على النفس . ولكن التربية المتقنة والعوائد الحسنة التى يكتسبها الابناء من الآباء ميراث كبير قد يفوق احياناً جميع المزايا التى يمتاز بها من يكون ميراثهم الاموال الجزيلة . وهل يمكن انسا ان ينكر قيمة التربية المدرسية مثلاً وما تستتبعه من مزايا لا يحصل عليها المحرومون منها ؟ أو هل ينكر احد قيمة العوائد الحسنة التى يكتسبها الشباب من من والديه كالمواظبة والنظافة والقناعة في الطعام والشراب وكرهة المسكرات او التدخين او بذاءة اللسان ؟

ان القدوة هي اكبر عامل في التربية وليس احسن من ان يرى الابن القدوة الحسنة في ابويه فان سن الطفولة والصبا والشباب هو سن الانطباع والتكيف والتخلق فاذا وجد الابن في ابويه مثلاً صالحاً نشأ هو ايضاً صالحاً يكره بطبعه المفسد ويصد عن المغاوى

ولكن هناك ما هو اهم من التربية وهو الاستعداد للتربية . لان الابناء لا يستوون في الكفايات الطبيعية وان استنوا في جميع ظروف التربية

فاكبر ميراث يرثه الابن من الابوين هو هذه الكفاية الطبيعية التي يولد بها والتي يستعد بها لقبول التربية واكتساب التجارب . وبعبارة اخرى نقول ان اكبر ميراث يرثه الابن هو صحة الجسم وسلامة العقل

وانت أيها القارئ لا بد انك عرفت في حياتك كثيرين من الوارثين ورثوا المال عن ابويهم ثم أضاعوه في سنوات قليلة . ولا بد أنك تساءلت عن العلة في هذا السفه في الابناء مع الحرص الشديد في الآباء . وقد يكون هناك أكثر من علة واحدة ولكن العلة الكبرى هي ان الابن لم يرث من ابويه كفاية طبيعية تضمن له سلامة المال الذي ورثه او استثماره والزيادة عليه ويرجع ذلك كله الى عدم العناية بانتقاء الزوجة فان كثيرين في بلادنا الشرقية لا يعرفون من الفتيات قبل الخطبة الا القليل وذلك لقلة الاختلاط والمعايشة فاذا تم الزواج وجد الزوج ان شريكته في الحياة ناقصة العلم بطيئة الادراك على حدود الغفلة او قد تعد الغفلة احيانا الى البله . وقد يكون الزوج في غاية الذكاء والحصافة ولكن الاباء ليسوا ابائهم فقط فان نصف ذكائهم يرجع الى امهاتهم فاذا كانت الام مغفلة او بلهاء فاولادها يمتون بعرق اليها ولا تنفعهم مزايا الاب امام نقائص الام

وهذا علة ما نراه من خيبة بعض الوارثين في الحياة واضاعتهم اموال آبائهم . فانهم ورثوا المال والعقار ولكنهم فقدوا اهم ما كان يجب ان يرثوه من كفاية طبيعية وحصافة اصلية في النفس والآن نقول انه اذا كانت اهم غاية اجتماعية للزواج هي النسل وجب ان يعنى كل من الزوجين بانتقاء الآخر من حيث سلامة الجسم والعقل اكثر من العناية بالمال او الجمال او غير ذلك من الاعتبارات . ولا يكون ذلك الا اذا عاشر الخطيب خطيبته عدة اشهر قبل الزواج وعرف مقدار ذكائها واتجاه حديثها ونزعاتها التي تنطق بها حتى فلتات لسانها

لقد قيل ان تربية الاولاد تبتدى قبل ولادتهم وذلك بالعناية بالام حتى يولد الولد صحيحاً مستكملاً مدة حملها . ولكننا يجب ان نزيد على ذلك ونقول انه يجب العناية بانتقاء الزوجة ايضاً حتى تكون سليمة الجسم ذكية العقل لكي يرث عنها ابناً هاتين الصفتين الثميتين

والى لا أرى شاباً صغير الرأس دميم الحلقة طائش الحركة مخول المشيئة إلا وأعجب من ذينك الابوين الخاطئين اللذين جلباه الى عالم مزحوم بالناس . ثم أعجب من حكومة أذنت لهما بالزواج

الصغار العظمى

قلنا تأمل في أخلاق بعض الناجحين في الحياة الفائزين بغنائم الدنيا إلا ونجد أنهم يعنون بأشياء تعد صغيرة نافعة ولكنها وتجمعها تعد كبيرة عظيمة

فقد ننظر مثلاً إلى رجل غنى قد جمع ثروة طائلة يحسده عليها زملاؤه ومنافسوه فتساءل عن علة غناه . فيقال لنا : انه الحرص والبخل . وتبحث أنت فيما هو هذا الحرص وهذا البخل فلا تجدهما سوى العناية المفرطة بالصغار أى بالملم والقرش . ونحن نحسد البخلاء الحريصين لسبب واضح وهو أننا نعجز عن العناية بالصغار مثلهم ولا نطبق هذا المثل الانجليزي اللعين الذي يقول : ابحت عن القرش تأتاك الجنهات

وقد ننظر مثلاً إلى رجل سياسى قد نجح وصارت له كلمة الزعامة فتبين أسرار هذا النجاح في أخلاقه فلا تجدها الا في العناية بصغار الامور التي لا يابه لها معظم الناس . فتراه يعنى بلفظة جميلة يختزنها خطبة شائعة يهيشها لاقتناص خصم . أو تراه يتعرف وجوه الناس وأخلاقهم وسيرهم بما لا يتألى به أنت . أو تراه يدخل في تفاصيل نظن أنها لا تهم أحداً سوى اصغار الكتاب

وما اشتهر به أكثر العظماء ميلهم لبحث التفاصيل الصغيرة ودخولهم في أشياء يسهل على الكاتب الصغير القيام بها . فقد كان نابليون مثلاً لا يغادر صغيرة في الجيش إلا ويعرفها ، فبينما كان مثلاً يعد الجيش للغارة بعد ساعة أو ساعتين كان يكتب الخطابات بشأن الجوارب للجنود . وكذلك كان حال محمد علي وولنجتون وسائر عظماء الرجال

وهناك من الصغار ما تكون له أكبر النتائج . فقد يقتل الجراح مريضه اذا لم يعن بصغار العملية . وقد يشيد أحد المهندسين جسراً عظيماً سرعان ما ينهدم لانه أهمل النظر في شيء كان يبدو في غاية التفاهة . ولا بد أنك سمعت عن النار تشب من مستنصر الشرر ولكنك لو أردت لسمعت عن ناس مرضوا أو ماتوا لانهم دعوا الى وليمة وكان الطباخ قد أهمل الآنية وطبخ بها مقدار صغير من زنجارة النحاس . ولو أردت ايضاً لسمعت عن خراب عائلات يرجع إلى عوائد صغيرة اعتادها رب البيت أو ربة البيت ما كان يظن أحدهما أنها كبيرة الأثر إلى هذا الحد

وقيمة الصغائر العظيمة تبدو في الأعمال الفنية أكثر مما تبدو في غيرها فالتجار البقي انهم يتفوق ويمتاز بمقدار مافيه من العناية بالدقائق التي اذا تجمعت صارت جلائل. والمصور الذي يتقن عمله يمتاز من غيره احيانا كثيرة بعنايته بالصغائر التي لا يعنى بها غيره

وقل مثل ذلك في سائر الاشياء والأعمال التي يقرن النجاح فيها الى العناية بالصغائر فالأجانب مثلا يحتكرون إدارة الفنادق والقهوات في مصر ويربحون منها أرباحا جزيلة ما كان احرانا نحن بارزربحها لولا اننا لا نعنى بالصغائر مثلهم. فان النظافة التي يتسمون بها ليست في الواقع سوى عناية زائدة بصغائر لو نظرنا إلى كل واحدة منها على حدة لما وجدنا فيها كبير طائل ولديها اذا تجمعت وتراكت صار لها قوة تجذبنا وتجلبنا في الفندق أو القهوة أو المطعم

والسجارة الأولى التي يدخنها الشاب ليؤكد بها بلوغه اطوار الرجولة تبدو صغيرة غاية في التفاهة ولكنها اذا صارت عادة تملكك صاحبها في سن الشيخوخة حتى لو حسب بعد ذلك ما أنفق في التدخين لبلغ آلاف الجنيهات. والكاس الأولى التي يشربها الشاب مجازاة لآخواته واثباتا لرجولته وتمدينه قد تكون سببا بعد ذلك لخراب عائلته اذا تملكته عادة الادمان. وكل العادتين تبدو صغيرة في اول نشوئها ولكنها عظيمة الاثر في النهاية. والانسان حزمة عادات والعادة عمل تنهون فيه ففكره فيتملأ

فاحرص إذن أيها القارئ على أن تكون عادتك حسنة واعلم أن مامن شيء عمله وتظن صغيراً إلا وله أثر في نفسك وفي مقدار نجاحك في العالم. فعود نفسك إذن العناية بالصغائر سواء في الوقت أو المال أو العمل

سوء التصرف

ان الذي يبدو من سوء التصرف اقل جدا مما يخفى. فنحن نعرف مثلا ان طائفة كبيرة من الوارثين الاغنياء قد حجر عليهم فنعوا من التصرف لانهم بعثوا مقداراً كبيراً من ثروتهم في الملاذ الحيوانية

ولكن سفة الوارث الغني كثيراً ما يكون اقل ضرراً على الهيئة الاجتماعية من سائر اصناف السفة التي ينبغي ان يحجر فيها على صاحبها لأن ضررها لا يقتصر عليه وحده بل يتعداه الى الآخرين وأيضاً لأن سفة الوارث واضح يشتمز من مسلكه العاقل. أما سفة هؤلاء الذين تقصده فخرى قد تبدو احيانا محاسنه ولا تتضح عيوبه

فمن ضروب السفة التي كثيراً ما كانت علة خراب البيوت الكبيرة في بلادنا أن أصحاب الارض لا يقنعون بأرضهم خالصة تعود عليهم بالربح اليسير بل يعمدون الى التوسع فيشتروا

الأرض بالدين ويرهقون انفسهم في استصلاحها. ولكن استصلاحها يعدو قدرتهم فتكون النتيجة افلاسهم وخرابهم. ومثل هذا السفة يخفى على الناس بمثابة المغوى يغويهم الى الاستكثار من الارض لانهم يرون السعة الظاهرة ولا يعرفون الهموم التي تأكل القلوب من الدين الرابك والافلاس الموشك أن يذهب بالملك القديم والجديد. ومثل هذا السفة يبعث عليه الغرور والدعوى بين الناس بالغنى

وهناك ضرب آخر من السفة هو الاستكثار من الزوجات وهو الآن مقصور على الطبقات الدنيا تقريباً. وهذا لا يمكن اصلاحه إلا بالتشريع ويشبه أيضاً ذلك السفة الآخر في الاستكثار من الأولاد. فان تربية الأولاد الحققة تعد الآن من المشاق وتتطلب من التكاليف ما لا يطيقها إلا القادر وقدتهون عدة جنائيات في جانب جنابة ذلك الأب الذي لا يضبط تناسله وهو عارف بعجزه عن تربية ابنه المنتظر. فنحن الآن في زمن لا تحدث فيه المعجزات والرزق لا يقع على الناس ظلمن والسلوى فمن أكبر السفة ألا يحسب الانسان حساب اولاده ويهيء لهم ما يعتدون به في الحياة من مال أو تربية ومثل هذين الضربين من السفة لا يمكن أحداً أن ينصح بالحجر على المصابين به لان الجنابة غير واضحة وهي لسوء الحظ لا تتضح إلا بعد أن تبلغ غايتها في الخراب. ولكن الوارث السفيه أقل ضرراً على الناس من هؤلاء السفهاء الذين يظهرون أمامنا بمظهر العقلاء الشيطانيين أو الانقياء الورعين

وهناك صنف ثالث من السفهاء هو المرأة التي تقتل أولادها بالغذاء الكثير والملابس الكثيرة والخوف الكثير من العين. ففي بلادنا عدد كثير من النساء قد قتلت كل واحدة منهن لا أقل من عشرة من أولادها. وأنت تعرف أن بعض مدارسنا تطرد التلاميذ إذا فشلوا مرتين متوالياتين في امتحاناتها أفلا يجوز أن تمنع المرأة من التناسل إذا فشلت خمس مرات متوالية في تربية الطفل؟ أو لا يجوز أن يحال بينها وبين ابنها السادس حتى تربية امرأة أخرى لا يخشى منها أن تقتله كما يخشى عليه من والدته؟

وهناك ضروب أخرى من السفة وسوء التصرف يبدو عليها مسحة من العقل ولكنها في الواقع عين الجنون كهذه العادة الفاشية في وقف الاملاك على الافراد. وهي عادة الغاها الا تراك والسوريون. فان هذه العادة علة خراب آلاف من البيوت في بلادنا وحسبك أن نحو تسعة أعشار البور الخربة في القاهرة هي وقف كثر المستحقون فيه وتفرقوا فلم يعد أحد يبالي باصلاحه لقلة ما يغله له فاخذ يتدهور في الخراب

فكل هذه ضروب من التصرف السيء الذي كثيراً ما يخفى على الناس ويبدو لهم بهيئة العقل والحكمة وهو في الحقيقة عين الغفلة والبله

في ذلك المثال الذي ذكرناه عن الهند اختل البناء وإذا صحت الامة ببناءها شامخاً مشمخراً كما هو في بريطانيا أو أميركا

ويؤيد رأينا الابحاث الحديثة في النفسولوجية التي تثبت أن أعماق الآثار في نفوسنا هي تلك التي تلقاها في طفولتنا وصبا بالمنزل . وبمعنى آخر هي تلك الآثار التي تنطبع في أذهاننا بالقوة والحديث من أمهاتنا . وليس شيء تعلمه في المدارس أو تلقاه من العالم بعد خروجنا من المدارس له من الأثر ما للآثار في النفس . وليس وسط يؤثر فينا أن شراً وأن خيراً مما يؤثره المنزل في طباعتنا وعاداتنا . وما المنزل سوى المرأة

فالأمم النشيطة الجريئة العاملة الدائمة في العمل ترجع صفاتها الحسنة هذه الى ما عندها من أمهات هن هذه الصفات . والأمم الخاملة الناكسة المريضة ترجع صفاتها السيئة هذه الى أمهاتها أيضاً وبعد فائتها أفضل وأحق بالحياة ؟ أنلك الفتاة التي تسبح ٣٦ كيلو متراً بين الأمواج المتلاطمة أم تلك التي تنزوي وتتجيب وتحمل حتى تمرض بالسل ؟

عاصمة افريقيا

يحكى عن الورد نورثكليف الصحافي الانجليزي المشهور انه كان ينوي أن يؤسس في القاهرة جريدة يومية تطبع بثلاث لغات أو بلغتين العربية والانجليزية وكان في عزمه أن يجعلها جريدة العالم الكبرى تحمل الطيارات الى آسيا وافريقيا وأوروبا وتجلب اليها الاخبار بالتلغرافات والطيارات أيضاً . ومن حظنا السيء انه لم يعيش لتحقيق هذه الفكرة

والحق ان القاهرة في مركز متوسط من العالم القديم يشبه مركز قناة السويس وانه كما أصبحت هذه القناة ذات أهمية كبرى بين الامم فكذلك القاهرة يمكن مع التدبير أن تصبح أكبر مدينة في آسيا وافريقيا بل أوروبا أيضاً . إذ هي تمتاز بأنها باب افريقيا وعاصمة أقدم حضارة في العالم وهي أيضاً بحار آسيا وما تلاها مع أوروبا . فعما قريب ستتم السكة الحديدية بين الكاب والقاهرة فتكون القاهرة المحطة الكبرى بين آسيا وأوروبا من جهة وبين جنوب أفريقيا من جهة أخرى . كما انها ستكون أيضاً محطة الطيارات بين هذه القارات الثلاث . وتقتصر عندئذ مهمة قناة السويس على نقل البضائع أما القاهرة فتكون المركز الأكبر لنقل الناس على الطيارات والسكك الحديدية . ولن تقف أهمية القاهرة عند ذلك . فقد ثبت الآن ان مصر هي أصل حضارة العالم كله بما في ذلك أميركا . وستوافد اليها العلماء والسائحون من جميع الانحاء لكي يفتقروا من آثارنا على المحاولات الاولى للانسان في ايجاد حضارة مبتكرة وعلى مجد الفراعنة المائل في آثارهم وعلى العلل التي اتابتهم من غارات الهمج أو من أمراض الترف حتى تدهورت هذه الحضارة وحتى ذهب أهلها

المرأة اساس الحضارة

روت الصحف الانجليزية هذا الشهر حادثين غريبين لكل منهما مغزى يجب أن يفقهه القارىء . المصري ويطبعه في ذهنه طبعاً لا ينمحي . فالحادث الاول أن فتاة أميركية عبرت بحر المانش سباحة وهذا البحر أو المضيق يبلغ عرضه ٣٦ كيلو متراً وكان أبو الفتاة في زورق يشجع الفتاة على العبور ونجحت الفتاة وانتصرت على الأمواج وأخذت الصحف تنشر صورها معجبة بقوتها وجراتها وثباتها

هذا حادث . وذكرت أيضاً حادثاً آخر خلاصته أنه يموت في كلكتا المدينة الشهيرة بالهند نحو ١٠٠٠٠ شخص بالتدرب كل عام وأن نسبة الوفيات بين الجنسين هي ست من النساء الى واحد من الرجال . وبعبارة أخرى تقول هذه الصحف أنه يموت بالتدرب في تلك المدينة العظيمة في كل عام نحو ٨٥٠٠ امرأة و ١٥٠٠ رجل . وعزت الصحف هذه الزيادة العظيمة في وفيات النساء الى العادة المتبعة في الهند من حجاب المرأة ومنعها من الحركة والسعي واضطرارها الى الانزواء في عقر دارها بعيدة عن ضوء الشمس حيث تعيش في خمول ودعة لا تتحرك عضلاتها ولا ينشط دماها . ومثل هذه الحال داعية الى تقشى مكروب التدرب في جسمها

ومغزى هذين الحادثين هو مما يحزن له كل من يرغب في خير الشرقيين لان معناه أن الغرب يقول بريضة المرأة وأن الشرق يقول بخمولها . وأن نظرية الغرب هي نظرية الحياة والصحة والعافية والقوة وأن نظرية الشرق هي نظرية الموت بالتدرب والضعف والمرض وعبرة ذلك كله لي ولك أيها القارىء أن نعرف أن المرأة هي أساس الحضارة الآن . وأن الفرق بين إنجلترا السائدة والهند المسودة هو فرق بين المرأة الانجليزية التي تمارس الرياضة وتقوى بين المرأة الهندية التي تنزوي وتتجيب وتضعف . ولهذا الفرق صدق في جميع أحوال الامة في خلق الرجال وتعليم الأطفال وفي نظام البيت ودستور الامة وفي شيء آخر حتى في الآداب والفنون ولم لا يكون كذلك ؟ أليست المرأة هي الأم وهي التي تربي أطفالها فإذا كانت تكبر من شأن الصحة والقوة جعلتهم يكبرون من شأنها أيضاً ؟ أليست هي ربة البيت بها ينتظم وبها تنضبط أحواله من مال واقتصاد ؟ فإذا كان البيت مهد الحضارة لانه المدرسة الاولى التي يتربي فيها المرء وهو أيضاً المملوك الصغيرة التي يتعلم فيها الصبي ضبط النفس وأدب المعاشرة وعادات النظافة والمواظبة والمثابرة فان المرأة التي هي محور هذا البيت هي أساس هذه الحضارة . وإذا اختل الأساس كما هو

فهذه القاهرة هي عاصمتنا التي يجب أن نغنى بها وأن نجعلها جديّة باستقبال أبناء العالم من القارات الثلاث . وإذا لم نكن نحلم بهذا الحلم الذي حله اللورد نورثكليف فلا أقل من أن نجعلها تبدو للزائر في هيئة لا تزدري بنا . وأن نجعلها مدينة صحيّة يعيش فيها أهلها عيشة الصحة والعافية ويزورها الزائر فلا يتأذى من غبارها أو قدرها

لقد ذكرت الصحف من زمن قريب أن اللورد لويد يشكو ألماً في عينيه أصابه من غبار القاهرة وقد جعلت بعض الصحف هذا الخبر مجالا للتهكم والفكاهة . ولكننا نجد مدعاة للآلم الشديد لانه لا يمكن أحداً زار العواصم الاوربية أن يقول ان القاهرة مدينة نظيفة أو ان هذا الغبار الذي يعتقد سحاباً في بعض شوارعها يرى مثله أو نصفه في احدى مدن أوربا . ففكرامتنا الشخصية أمام الاجانب تدعونا الى العناية بعاصمتنا التي هي عنوان بيتنا وحضارتنا

ولن تكون هذه العناية تامة حتى يعطى للمدينة استقلالها المدني بأن يؤسس لها مجلس بلدى . فالقاهرة هي الآن المدينة الوحيدة على الكرة الارضية التي يقرب سكانها من المليون ومع ذلك ليس لها بلدية وإنما يقوم مقام البلدية نظام ديوانى . يقال له « التنظيم » حسبك من شدوذه أنه لا تمكن ترجمته الى أية لغة أجنبية

إن كل أمة نشيطة تستغل مركزها الى أقصى ما في استطاعتها . ونحن هنا في مركز يتوسط القارات الثلاث بموقعه الجغرافى فعلىنا أن نستغله بأن نجعل عاصمتنا تضارع أكبر وأجمل مدينة في العالم وأن نجعلها مركزاً للثقافة والحضارة في الشرق، منها ينبعث نور التجديد الى آسيا وأفريقيا واليهما يقصد كل راغب في الرقى من هاتين القارتين . ولعله في يوم ما ينبغ بيننا محافى مصرى يحقق فكرة نورثكليف بإنشاء جريدة للقارات الثلاث تحيا بها اللغة العربية الى جنب اللغة الانجليزية وتصبح بها القاهرة عاصمة افريقيا بل عاصمة العالم القديم

الارستقراطية الجديدة

كنت في هذا الاسبوع أنسلى وأتفجع معاً بقراءة قصة للكاتب الانجليزى الشهير ولز عنوانها « البحث العظيم » وموضوعها انشاء طائفة من النبلاء لحكم الناس . وولز كاتب اشتراكى ولكنه في الوقت نفسه لا يأتى العامة أو بالحرى الكافة على حكم أنفسهم . لان العوام لا يفهمون من الحكم سوى الفوضى . ومسلكتهم في الحكومة إذا تقلبوا مفاتيحها لن يختلف عن مسلكتهم في الشوارع أو الاندية عند تجمهرهم وهاضمهم وصياحهم . فالأمر الديموقراطية في حاجة الى طائفة ارستقراطية تتولى حكمها وتسير بها نحو الرقى

ولكن ولز لا يقول بايجاد طبقة وراثية من النبلاء كما كان الحال في القرون الوسطى أو كما هو الحال الآن في انجلترا . وإنما يقول بوجود أفراد يشدون عن المجموع في ذكائهم ويربون تربية خاصة حتى إذا بلغوا سن الرجولة حملوا أمانة الحكم عن الامة . وبطل القصة شاب يفكر في هذه الطائفة ويرى أنه أهل لان يكون أحد أفرادها . فهو يكب على درس العالم ويخرج للسياحة فيه ويزور مقدونيا حيث أدبرت الحضارة الرومانية أمام غارات الهمج . ثم هو يصلى نار الحب ويتجرع كؤوس الغيرة وينعم بالصدقة والثروة حتى اذا رويت نفسه بالدرس والتجارب أخذ يفكر في هذا العالم وحكوماته

وهو يرى أنه يجب أن تتوفر في كل فرد من هذه الارستقراطية الجديدة أربع صفات أو أربعة انكارات : انكار الخوف وانكار الغيرة وانكار التعصب وأخيراً انكار الانفاس ومعنى ذلك أن كل واحد من هذه الطبقة يجب أن يرى نفسه على أنه يقهر في نفسه عاطفه الخوف فان الخوف أثر قديم من آثار الغاية حين كان في الظلام غفارىت هي سباع الليل وهوامه السامة . فكان الخوف مفيداً أما الآن فلا فائدة فيه . فهو تراث وحشى قديم يؤذى الناس ويوعز الى الحكم الاستبداد اعتماداً منهم على ما عندهم من قوة للتخويف . وليس شيء في العالم معدوم للفائدة مؤكداً الضرر مثل الخوف . وجميع ما نخافه من الآلام تقريباً أو هام لا حقيقة لها حتى الموت نفسه ليس فيه ما يخيف بدليل أننا نجد أن المتحررين الذين أخفقوا لأول مرة في القضاء على حياتهم يعودون في التجربة الثانية الى محاولتهم الاولى لانهم لم يجدوا فيها ماتوهمه من الألم . ونحن نعيش أبداً في كرب وشقاء لاننا نخاف أشياء عديدة تمنعنا من المضى في طريقنا . فنحن نخاف الفقر والاختناق وغير ذلك من الاشياء التي نرى عند وقوعها بنا أننا سنا نبالغ في تقدير ما فيها من الآلام

ثم يجب أيضاً انكار الغيرة بمعنى انكار التحاسد والتنافس والاعتياض منهما تعاوناً يضم الناس في الخير العام وهذه هي الفكرة الاشتراكية ولسنا الآن بسبيل شرحها

ثم أيضاً يجب انكار التعصب بكل أنواعه . وقد احسن هنا ولز بتعريف التعصب أو الأغراض بأنه الكراهية التي نشعر بها لمن يخالفنا في أحد الاشياء حتى نظن أنه يخالفنا في جميع الاشياء . فنحن نكره من يخالفنا في الدين أو اللغة أو اللباس أو لون البشرة أو الوطن . وولز يقول بان العالم أمة واحدة يجب أن تحكمه حكومة واحدة

وأخيراً يجب انكار الانفاس في التهاك على الشراب أو الطعام أو الاستئمانه للكسل والرفاهية وهذه أشياء صغيرة في ذاتها لأنها مؤلفة من عادات يظن الانسان أن الاقلاع عنها هين مع أن كلا منها هو الطبيعة الثانية التي تتأصل بالجسد حتى لا ترتاح الاعصاب الا بتأديتها واشباعها فهذه الصفات الأربع يجب في رأى ولز أن يتصف بها أفراد الارستقراطية الجديدة حتى تضمحل

في نفوسهم الأثرة السافلة ويقوم مقامها الايثار الشريف الذي يجب أن يتصف به من يريد حكم الناس

فهل تستطيع أمها القارىء أن ترشح نفسك هذه الطبقة ليس شك كما يقولون في ان العامة لا يفلحون بتناً في حكم أنفسهم . ومهمة الحكم تزداد مشقة وصعوبة بمرور الايام لان كل شيء تقريباً قد أصبح يحتاج الى اخصائيين مثقفين ومدربين أيضاً . فأحوال الامم الاقتصادية مثلاً قد خرجت من طور الزراعة البسيطة الى طور صناعي يحتاج الى تنظيم كبير . وقل مثل ذلك في غير هذا من الشؤون كالصحة والتعليم وغيرها

قيمة الاكتشاف والاختراع

في القطر المصري اكثر من عشرة ملايين نفس يشتغلون بالزراعة ويعملون في الحقول . ولكن جميع هؤلاء يعملون لتحصيل القوت أو ما أقل فائدة من القوت كالفاهية والترف . يأخذون ربع الأرض فينفقونه كل عام لا يمتزنون منه شيئاً للمستقبل لأنفسهم أو لمصر . ولكن كان بين هؤلاء الملايين رجل واحد لم يقتصر نظره على حاجات الساعة بل تعداه الى المستقبل . وهذا الرجل هو المسيو سكلاريدس رأى ثلاث لوزات من القطن طويلة النسيج ناصعة البياض فاحتفظ بيذورها واستنبتها حتى تكاثرت وأصبحت مصدر خير عميم للبلاد بزيد ثروة القطر المصري بالملايين من الجنيهات كل عام

وهذا المسيو سكلاريدس الذي يقر بفضل كل مصري ليس أكبر عقلاً ولا أحد ذهناً من سائر الفلاحين الذين يشتغلون بالحقول ولكنه اعتاد الملاحظة ودقة النظر والاهتمام بالمستقبل وهذه كلها صفات يحتاج اليها المكشف أو المخترع . ومهما بدا الشيء صغيراً نافع القيمة في أوله فان قيمته تزداد وتربو بالعناية والفكر

يحكى أن ريو مور أحد علماء فرنسا في القرن الثامن عشر كان يدرس الحشرات . وكان قد أولع بدرس أوكار الزناير فما كان يلقى من احد في عمله هذا سوى الهزء والسخرية اذ ليس في العالم شيء انفع من وكر زنبور ولا أقل عائدة على الناس منه . ولكن ريو مور وجد أن نسيج هذه الاوكر يشبه الورق فصار يقبض على الزناير ويفحص المادة التي تصنع منها هذه الاوكر فوجد أنها تلتقط قش التبن والخشب ثم تمضغه حتي تحيله عجينة تبنى بها هذه الاوكر . فسامل ريو مور : اذا كان يمكن الزناير ان تصنع الورق من الخشب فلم لا تصنع نحن كذلك

وكان الورق الى ذلك الوقت يصنع من الخرق البالية كما لا يزال تصنع الانواع المتفرقة من

للان . ولكن الخرق البالية لا تكفي صناعة الورق الحديثة فان مقدارها في العالم كله محدود والورق في الصحف والكتب وغيرها يستنفد الان بملايين الاطنان . وصنع ريو مور الورق من رب الخشب ونجح وانتشرت صناعته من ذلك الوقت حتى صارت تزرع الغابات خاصة لها فاعتبر الآن أمها القارىء ثلاث لوزات من القطن تكون السبب الاكبر لثروتنا وبأوكار الزناير تكون السبب الاكبر لانتشار الكتب والصحف حتى تباع بأرخص الاثمان وتدخل في أفقر البيوت

بمثل هذين الرجلين — سكلاريدس ورئومور — تقدمت العلوم وكثرت المكتشفات والاختراعات وكبرت ثقة الناس بالبحث العلمي وأُسست الجامعات لهذا الغرض . فليست الجامعة مكاناً للتعليم فقط بل هي أيضاً معهد للتقدم العلمي أى للاكتشاف والاختراع . وقد يرى الزارع أو التاجر أن الآلاف التي تنفق على تعليم الجامعة لا تعود بفائدة محسوسة ولكن اكتشافاً واحداً في الكيمياء أو في الفلك أو في الطب قد يعود على الناس بفوائد لا تحصى وان كان مثل هذا الاكتشاف لا يحدث مرة في كل عشرين سنة

ولست أبالغ في قولي ان الاكتشاف في الفلك يعود على الناس بفائدة محسوسة على بعد الاجرام السماوية منا وعدم تأثرنا بحركاتها . فان عنصر الهليوم الذي تملأ به أكياس البلونات الآن بدلا من عنصر الهيدروجين عرف في قرص الشمس قبل أن يعرف في أرضنا . ولهذا سمي باسم الهليوم أى الشمسى كما سميت « هليوبوليس » أى مدينة الشمس . فقد كان السير رمزي يحلل الطيف الشمسى فوجد فيه عنصراً لا يعرف على الأرض فأطلق عليه اسم الهليوم ثم اكتشف حديثاً في كندا وصار يستخرج الآن بمقادير كبيرة جعلت الولايات المتحدة تعتمد عليه في ملء أكياس البلونات لانه لا يلهب مثل الهيدروجين . ولولا أنه عرف أولاً في الشمس لما تنبه العلماء إلى البحث عنه في الأرض فان وجوده في الشمس أقام عقدة أمامهم تتطلب الحل السريع وهي : هل الشمس مركبة من عناصر الأرض ؟ وتبين لهم بوجود الهليوم في أرضنا أن كلا الجسمين الشمس والأرض مؤلف من عناصر واحدة

فالببحث العلمي الذي يراد به اثبات نظرية ليس لها غاية عملية كما تبدو لأول وهلة قد يعود في النهاية بأنفع الاعمال على الناس ومن هنا فائدة الجامعات التي تختص بالابحاث وواجب كل مصري في الدفاع عن الجامعة المصرية

هذه واحدة من مدارس الاختبار التي ينتظر أن تعم في المستقبل وان تهيم الناس للحضارة الجديدة حين يشعر كل انسان انه « طالب علم » مدى حياته وانه عضو في الهيئة الاجتماعية يعمل لها ويبحث عللها ويهتم لمصالحها ويعرف كيف يفتح بصيرته اذا فتح عينيه كما يعرف أن موضوع درسه هو ذلك العالم الذي هو الكتاب الاكبر والذي يجب أن يكون موضوع درس كل انسان ومثل هذه المدارس تحتاج بالطبع الى نفقات كبيرة أكبر مما تحتاج اليه المدارس العادية ولكن يخرج منها أيضاً ناس أرقى وأبصر ممن يخرجون من المدارس العادية وقد كنت أفكر وأنا أسمع هذه الكلمات الثمينة في المدارس الاولى عندنا فأندكر تلك الطرق التي تتبع في تعليم صبياننا . فانهم لا يزالون يحفظون عن ظهر قلوبهم أشياء كانت تحفظ عن ظهر قلب في القرون الوسطى وينشأون على ان العلم ليس تفكيراً بل هو حفظ انهم في أميركا يعدون الصبيان لحضارة قادمة ونحن نهيمهم لحضارة بائدة

وانت ايضا رجل عظيم !

كثيراً ما نقرأ عن جريمة فظيعة يرتكبها شاب في والده وهو في سورة غضب فنشتمز وتأنق من هذه الطبيعة البشرية التي تتسرع الى الشر . وكثيراً ما نسمع عن جنابة فظيعة تقع بأحد الناس من مجرم باع يرمى الى غاية ساقطة فتعجب من هذه الطبيعة التي تنزل بالانسان الى أحط دركاته . وقد نشعر بعواطفنا تنفر للشر أو للشهوة الاثيمة أو تنزع بنا نحو الشراهة للطعام الكثير أو الشراب الكثير أو تميل بنا الى ايثار الخمول على العمل أو نحو ذلك فنعود الى هذه الطبيعة البشرية ونقول أنها تحتاج الى التأديب وان الانسان مفعطور على الشر وان سوء الظن من حسن الفطن ولكن يجب أن نذكر جميعاً أن هذا التأديب الذي نطلبه لقمع الشر وكبح الغضب انما نطلبه لما في هذه الطبيعة البشرية المنغرس في نفوسنا من الخير . فكما أن نفوسنا قد طبعت على شيء من الشر والغضب والدناءة فهي قد طبعت أيضاً على شيء كبير من الانفة والبر والخير . فالى جانب المشقة والسجن وما فيهما من روح الانتقام والغيظ والحقد على المجرم قد اخترع الانسان أيضاً المدرسة والمستشفى لما في نفسه من روح البر والخير

وهنا أذكر قصة قرأتها في سيرة الامبركروبتكين الفوضوى الروسى الشهير ولا اذكرها الا ويرتفع الانسان في نظري فأكبر له وارفع من مقام هذه الطبيعة البشرية المجرمة البارة . فقد حكى أن أحد الفوضويين القى قبلة أمام المركبة الملكية في بطرسبرج فانفجرت واجنات الخيل ورجحت وينا هو يريد الفرار اذا به يرى حماراً ثميناً قد تركته أمه في زاوية من الشوارع فنسى الفوضوى

في التربية الحديثة

في الاسبوع الماضى القى الامتاذ كلبارك وهو من أساتذة جامعة كولمبيا الاميركية بضع كلمات صائبة عن التربية في نادى الشبان المسيحيين بالقاهرة وقد أتاح لنا الحظ الحسن أن نسمع هذه الكلمات ورأينا فيها من الجديد الطريف ما ينبغي أن يقف عليه قراؤنا . فالعالم كله يوشك أن ينتقل الآن من حضارته الراهنة حضارة الحرب والمنافسة والرجح الى حضارة السلام والمعاونة بحيث تهيم شباب العالم للحضارة والخدمة . وعلى ذلك ينبغي أن تكون التربية الجديدة

فن رأى الامتاذ كلبارك أن مدارس المستقبل التي ستهيم الناس لهذه الحضارة ستجعل عماد التربية الاختبار بدلا من الكتاب وذلك لكي يشعر الصبي أو الشاب أنه عضو في الامة له أثره في خيرها وشرها

وليس يشك أحد في أن الكتاب هو عمدة التربية الحالية وان التلميذ يجعله مصدر معارفه فيخرج الى العالم من المدرسة وكأنه يحسب أن لالعلاقة له بالعالم من حيث اكتساب المعارف فلا يختبره اختباراً مباشراً بل يقنع بالاختباء المكتسب من الكتاب

ذكر الامتاذ مثالا من مدارس الاختبار هذه في اميركا فقال أن هناك مدرسة نائية عن المدن جرت على هذه الخطة الجديدة في تعليم الصبيان . ففى أحد الايام لاحظ أحد الصبيان أن أحدهم مريض بحمى التيفوئيد . ولاحظ آخر أن أباه واخوته قد مرضوا بهذا المرض في العام المنصرم . فتعجب الصبيان من كثرة حدوث التيفوئيد في منزل هذا الصبي وعقدوا النية على درس الموضوع بأنفسهم . فهذا يستشير كتاباً أو مجلة وذلك يسأل وآخر يستذكر الحوادث التي مرت في عليه في حياته ، وأخيراً ألقت لجنة . وذهبت الى منزل هذا الصبي المريض يستأذنون والده في درس الحالة في المكان . فلما أذن لهم ذهبوا ، أول ما ذهبوا ، الى البئر التي يستقى منها أهل الدار فلقوها على ربوة لا تسرب أقذار البيت اليها . فتركها وذهبوا الى المطبخ فلم يجدوا به ما يدعو الى الشبهة فطفقوا يدورون حول البيت فوجدوا حظيرة خنازير بها روث وذباب . ووجدوا ان هذا الذباب يدخل الى البيت فقر رأيهم بعد استشارة أستاذهم على أن هذه الحظيرة هي علة كثرة حوادث التيفوئيد . ووافقهم الامتاذ على ذلك فأخبروا رب الدار ونقلت الحظيرة الى مكان بعيد ووقى البيت من الذباب فاقطعت هذه الحمى ولم يعد أحد من سكان هذا البيت يمرض بها

جريمته ونسى المشقة التي تنتظره وثابت اليه نفسه البارة فنظر إلى الطفل وتذكر خيل المركبة وهي جاذبة شاردة نخشى على الطفل منها وانحنى عليه في تودة ورفق وحمله وعدا به فالخير والشر متلازمان في الطبيعة البشرية ولكن الخير أغلب . وليس الرياء أو النفاق إلا اقراراً بذلك لأن المنافق يمارس الرذيلة ويتقنع بالفضيلة إذ هو يعرف أن العالم يرغب في الفضيلة وليس من الحق أن نسلب الطبيعة البشرية فضائلها ولانذكر سوى رذائلها . فانك تجد بالوردة أشواكاً فقط بل تشم منها عطراً ذكياً أيضاً . والفراسة الزاهية التي تلعو العين بهجتها كانت يوماً ما دودة قنبرة

والانسان مجموعة من الصفات الحسنة والسيئة ولكن الحسن يغلب فيه السيء . وانما تحتاج الصفات إلى تنشئة وتربية وكما أن كل انسان تقريباً قد فكر في جريمة ما إن لم يكن قد ارتكبها فكل انسان أيضاً قد فكر في البر والخير ومارسهما . وفي نفس كل منا جذوة من ذلك الوحي السامى الذى ينبت في صدور الانبياء والعلماء والمصلحين والابرار والخيرين في كل أمة . ولكن هذه الجذوة تحتاج الى الترويح والا بقت هامدة

فأنت أيها القارئ رجل بار أيضاً لانك تنتمي الى تلك الانسانية التي نبت منها العظماء في الدين والعلم والأدب والسياسة بل أنت تمت إلى هؤلاء الرجال بعرق ولوعدت الى عشرين أو ثلاثين جيلاً لو وجدت أنك أنت وزغلول تنتميان الى جد واحد . وانما يجب عليك أن تربي هذه الكفايات الحسنة في نفسك حتى تلمب تلك الجذوة المقدسة في قلبك . فانت عظيم ولا تدري أنك عظيم وانت رجل بار ولا تدري أنك بار ، وانت تحب الخير للعالم ولكنك تجهل ذلك

سوط الاحتقار

يعمل الاحتقار في الناس أكثر مما يعمل الخوف . ومعنى هذا بكلام آخر أن الناس يحسبون للرأى العام ويستحيون من الناس أكثر مما يخافون من القوانين . بل نحن نخاف القوانين لا لاننا نتألم من السجن بل لاننا نخشى احتقار الناس لنا اذا عرفوا اننا قد سجننا

فاصلاح الأمة يرجع في الاكثر الى قوة الرأى العام أكثر مما يرجع الى القوانين . لان الرأى العام سوطاً شديد الوقع غائر الأثر هو سوط الاحتقار به نستطيع أن تؤذ الناس ونعلمهم ونوجه نشاطهم الى وجهات نافعة

ولكن اذا اختل الرأى العام وسامت أحكامه صارت القوانين كلها في حكم العدم أو ما يقارب ذلك . فشرائع بلادنا مثلاً تعاقب المتجرين بالحشيش ولكن الحشيش سيئ والحشاشون سيئون

هذا السم ما شأؤوا لأن الرأى العام لا يحترقهم . فلو أن حشاشاً وجد رجلاً يبصق في وجهه مرة أو يطلب اليه ألا يعرفه أو منعه من دخول منزله لما تجاسر في القطر المصرى كله حشاش واحد على اقتناء هذا السم الذى يزود مارستاننا بنصف مرضاه

ولو أن ضابط الشرطة الذى يعتدى على الناحيين يرى من الناس عين الاحتقار والاشمئزاز من هذه السفالة لما استطاع مهما كانت المكافأة المالية التي ينتظرها أن يرتكب هذا الجرم . لانه انما يقصد من الترقى في المناصب ومن الحصول على المال تلك الوجاهة التي يتوخاها بين أهل بلاده فاذا وجد منهم مقاطعة واشمئزازاً واحتقاراً لما تجرأ على ضرب ناخب

وقل مثل ذلك في الجرائم التي ترتكب في الريف وتنفي الأمن منه فان المرتكبين الحقيقيين هم سكان الريف أنفسهم لانهم لا يحترقون هؤلاء المجرمين بل يروون حكايات سطوهم وانتهاهم بالاعجاب كأنهم أبطال حتى أن المجرم ليسجن وهو مرفوع الرأس كأنه بطل

وقد كانت الرشوة الى عهد قريب يتسامح فيها الجمهور ولا يعدها جريمة فكانت لذلك كثيرة الشيوع لان مرتكبها كان يعتقد انه لن يفقد كرامته أمام بنى وطنه اذا تلبس وثبتت عليه . وهو الى حد ما لا يزال كذلك وفي هذا فساد كبير للإدارة . ولن تصلح هذه الإدارة حتى يسلط الجمهور سوط احتقاره على جميع من ينهبون الحكومة بأية صورة

ولقد كتبت الصحف كثيراً عن ضرورة اقبال الشباب على الأعمال الحرة . ولكننا نعتقد أن أكبر ما يمنع اقبال الشباب عليها هو احتقار الجمهور لها . فلو أن الشاب وجد أن كرامته اذا كان صاحب قهوة أو حانة أو مطعم محفوظة مصونة في عين الجمهور كما تصان اذا توظف في الحكومة لما أحجم عن مثل هذه الأعمال الحرة ولكن أكبر ما يجعله يحجم عنها هو احتقار الرأى العام لها فانا ما زلنا نجرى على طبائع الاستبداد القديمة في ا كبار كل ما يتصل بالحكومة واحتقار ماعداها وقد نزل الينا هذا الاعتقاد من السلف الذى كان يرى في الحكومة سلطاناً أى سلطان للاستبداد بالأفراد والنهب والتسخير . وسنعيش مدة طويلة وشبابنا عالة على الحكومة حتى يتربى الجمهور ويعرف للعمل الحر قيمته ويحترم القهوجى الشريف كما يحترم المأمور السافل الذى يضرب الناحيين لكى يترقى ويكرم صانع الأحذية كما يكرم المحامى الذى يشكو الآن من قلة الأعمال ويطلب منع دخول محامين جدد في مهنته

ان للجمهور سوطاً قوياً هو سوط الاحتقار الذى يستطيع أن يسلطه على الخامل والسكير والمجرم والزانى والمرتشى والمتزلف فيصلح بذلك أخلاق الأمة بما لا تستطيع الشرائع المكتوبة أن تصلحها لان حياة الناس أكبر من خوفهم فهم اذا رأوا عين الاحتقار ازروا أو تصاغروا وساروا على النهج القويم

ولما قال نابليون انه يجب أن تمحى لفظة « مستحيل » من المعاجم كان في الواقع يعبر عما في نفسه من تلك الثقة العظيمة التي كانت تحمله فوق جبال الالب هو وجيشه وكانت تخيل له ان فتح الهند ليس أشق عليه مما كان على الاسكندر. ولو ان مخترعي الطائرات تذكروا المصاعب التي ستلاقيهم ولم يخيّلوا لأنفسهم النجاح على الرغم من آلاف العراقيل التي كانت تستقبلهم لما تم لأحد منهم اختراع ولما كان الهواء يظن الآن بأزيز الطائرات التي كادت تجعل الانسان صنفاً من الملائكة يصعد الى السماء ويركب السحاب

وأنت أيها القارئ لست دون أحد من هؤلاء الناجحين ولكنك لن تعدوا ما تطمع اليه من أنواع الرفعة التي تتخيلها لنفسك. وهذه الرفعة هي طوع خيالك تخيل في نفسك الصحة والعافية تنلها ثم تعود أصح الناس تخيل في نفسك الثروة والجاه واعمل لها تنلها وتبلغ منها ما أردت تخيل في نفسك النجاح فيما تمارسه من عمل تجد نفسك بقودها خيالك نحو النجاح من حيث تدري ومن حيث لا تدري

العالم والوطن

في هذا الشهر مقال في « الهلال » لأحد رجال السياسة العليا هو المسيو كايو يدعو فيه الى اتحاد أوروبا بما يكاد يشبه أن تكون دولة واحدة تنظر في مصالحها المشتركة بعين واحدة وليست الدعوة الى اتحاد أوروبا حديثة فقد تكلم فيها عدد غير قليل من رجال الذهن. ولكن خروجها من رجل الذهن صاحب النظريات الى رجل السياسة صاحب العمليات يعد رقياً في الافكار واتجاهاً حسناً نحو الخير والاصلاح

واتحاد أوروبا هو في الواقع اتحاد العالم والقائلون به انما يذكرون أوروبا ويقتصرون على اتحاد دولها لما يرون فيها من السيطرة على العالم وأن العالم مسير برأيها بل مسخر لمصالحها والقول باتحاد العالم في أمة واحدة قد قالت به المسيحية وقال به الاسلام أيضاً. فهذان الدينان فقط من بين أديان العالم القديم قد دعوا الناس الى تآسٍ فروق اللغة والوطن والسلالة والاندماج في وطنية عالمية كبرى هي وطنية الدين. ولست نستطيع أن نقول أن هذين الدينين العظيمين قد فشلا في تحقيق هذه الغاية الشريفة كل الفشل. فقد عاش كل منهما مثلاً أعلى يخفف من ويلات الحروب ويدعو الناس الى أن يكونوا في سبيل الله أخواناً وأن يرتفعوا فوق وطنياتهم الصغيرة وتسمو نفوسهم الى وطنية كبرى عالمية

سلطانك على نفسك

من الأقوال التي تستوقف العقل وتلزمه التفكير قول الدكتور كارنو: « ان جروح الجنود الظافرة تبرا بأسرع مما تبرا جروح الجنود المهزومة »

ولم يقل الدكتور كارنو هذه العبارة اثباتاً لنظرية بل تحقيقاً لاختبار اختبره بنفسه. وجدير بنا أن نقف نحن تأمل مغزى قوله في ضوء الابحاث النفسية الحديثة

فان الجندي الظافر يجد في قلبه من البهجة والسرور وفي نفسه وجسمه من النشاط ما يجعل جروحه سريعة البرء بينما الجندي المهزوم يجد في الخيبة والفشل ما يكسر نفسه ويملاها غماً ونكداً فتتخط بذلك قواه المعنوية وتؤثر في أعصابه ثم تعود أعصابه فتؤثر في جسمه فيتأخر لذلك شفاؤه وكلنا في ميدان الحياة جنود. فمنا من ينظر الى الدنيا متفائلاً من خلال زجاج وردى فتبدو له في زهوة وبهجة يبتسم لها فتبسم له، يعمل أعماله وهو واثق بالظفر يتوهمه خيالاً في نفسه فيتحقق في الواقع. ومنا من يتشائم ينظر الى الدنيا من خلال زجاجة سوداء يتوقع الهزيمة في كل مكان ويخشى الفشل في كل وقت وما أسرع ما يفشل في الواقع

فتجاحتنا في هذا العالم يتوقف على خيالنا فاذا تخيلنا أنفسنا ظافرين فنحن لا شك ناجحون في كل ما تتناوله من عمل لأن عقلنا يتسلط على جسمنا وأعصابنا ويوجه جهودنا في سبيل النجاح واذا تخيلنا الفشل وتوقعناه فهو لا بد واقع

ولعل مما يوضح قولنا أن نعرض فرضاً بسيطاً. فلو ان أحداً طلب منا أن نمشي على لوح مستطيل من الخشب قد بسط على الارض لمشيئنا مشياً سهلاً سريعاً لا تعثر ولا تردد. ولكنه لو بسط لنا هذا اللوح نفسه فوق فراغ بين بناءين شائخين لما استطاع أحد منا أن يخطو فوقه خطوة وعلة ذلك ظاهرة فان اللوح لم يتغير ولكن نفوسنا هي التي تغيرت وبدلت من الطمأنينة والثقة جبناً ورعباً بما تسلط عليها من خيال السقوط والتردى. ونحن كذلك في جميع أعمالنا اذا تسلطت علينا خواطر الفشل ارتبكت أعصابنا واختل عقلنا ففسير في العالم وتوقع السقوط في كل وقت والارجح في هذه الحالة ان ما نتوقعه يقع

وعبرة ذلك كله أن نسلط على عقولنا خيالاً حسناً فتتفائل في أوقات الشدة والمحنة ونرجو في مكان اليأس والخيبة ونقابل العالم بالبشر والثقة فعندئذ لا نجد منه سوى النجاح يتلو النجاح

ويبدو من قرائن الاحوال أن القرن العشرين سيحقق شيئاً كثيراً مما رجت الاديان تحقيقه
ففى الهواء الآن كما يقول الانجليز أفكار متوافقة ومتضاربة ولكنها ترمى كلها الى إيجاد حكومة للعالم
والى النظر الى الامم كأنها أمة واحدة . بل قل أن فى العالم الآن مؤسسات تصح أن تكون بذوراً
لهذه الحكومة فى المستقبل

ففى أوربا الآن نزعة شريفة تقصد الى تعليم التلاميذ فى المدارس تاريخ العالم لاتاريخ الامم
التي ينتسبون اليها . وتطبع فى عالم المطبوعات كتب تاريخية ترمى الى هذه الغاية لكي تصبغ العقول
بهذه الصبغة . وبين الساسة حتى من الفرنسيين من يطعن فى الوطنيات الصغيرة ويدعو الى الاتحاد
العالمى مثل هذا السياسى العظيم الذى ذكرناه فى أول هذا المقال

ثم فى العالم أيضاً حكومة عالمية هى عصبه الامم وهى وان كانت مقيدة ومقودة معاً بدول
الاستعمار الآن فان روح الانسان العالية وشهوة التطور التي لاتموت فيه ستكتبان لها السيادة القريبة
ثم هذا الاستعمار قد أوشك أن يتزعزع كما رأى القراء فى المؤتمر الامبراطورى البريطانى حيث
أفرت الدولة البريطانية أنها تنزل على قدم المساواة مع مستعمراتها المستقلة وأنها ليست لها
عليهم أية سيادة

ولا يظن القارىء أن الامم تتجه نحو هذه الوطنية العالمية جرياً وراء خيال كاذب أو تنطعاً فى
فلسفة خيالية . كلا . انما هى ظروف القرن العشرين الصناعية والتجارية التي تضطر العالم الآن
الى الاتحاد . فواد العالم الخام التي تغذى بها الصناعة محدودة فهي الى الفناء القريب اذا لم تتفق الامم
على صياستها من عبث أرباب المصانع وتزاحمهم على احتيازها . وحجة العالم مهددة فى وقت بطاعون
جائح يهلك الملايين من الناس اذا لم يكن للعالم كله مصلحة عامة تشرف على صحته وتراقب أمراضه
وهذه المصلحة أو بالاحرى بذرتها موجودة الآن وهى أحد أقسام عصبه الامم ولها فروع فى عواصم
أوروبا والشرق . ومنذ عدة سنوات احتاجت أوروبا وأمريكا الى إيجاد مصلحة خاصة تراقب الطوائف
الثلجية فى شمال المحيط الاطلسى . وعما قريب سيضطر الرق المطرد فى الملاحة الجوية جميع الامم
الى أن تتحد وتلغى حدودها

فنحن كلنا صائرون الى تلك الاخوة البشرية التي رسمتها المسيحية ثم الاسلام ولن ينقضى هذا
القرن الذى نعيش فيه حتى تزول من أفواه الناس ثم من قلوبهم الفاظ العصبية الوطنية الحادة .
فلا نسمع عن حضارة شرقية وحضارة غربية تتزاحمان وتتناحran للسيادة بل نسمع عن حضارة عالمية
واحدة هي حضارة النور والعلم والصدق فى خدمة هذا العالم . وكما كانت تفرض الاخلاق العليا
على الفرد أن يضحي بنفسه لأجل وطنه فكذلك ستفرض أخلاق المستقبل القريب على الناس
التضحية بوطنهم لأجل العالم

الشيخ الشاب

يعيش فى أيامنا هذه شيخ يبلغ الثمانين فى عدد السنين ولكنه فى الجراءة والنشاط وفى حرارة
القلب وهمة النفس شاب جدير بأن يكون طرازاً للشباب

هذا الشيخ الشاب هو كليمنصو وزير فرنسا ومن رجالات الدول العظام فانه بعد أن عقد اكليل
الغار على رأس وطنه وأتم الصلح مع ألمانيا ونال من الشرف والمجد أكبر ما يطمح اليه فرنسى قصد
الى بيته فى الريف لا ليقتضى فيه أيامه الأخيرة أيام الشيخوخة الورعة الى جانب المدفأة والمسبحة
بل ليجدد فيه حياة جديدة هى حياة الجهد والتفكير والتأمل بعد حياة الجهد بالعمل السياسى

فكليمنصو لا يشيخ بل يتطور فى خدمة بلاده . فقد ناداه صوت الوطن مدة الحرب فلى نداهه
وصرف مجهوده الى خدمة الحرب وها هو ذا يناديه الوطن أيضاً بل يناديه العالم الى الخدمة المفروضة
على كل حى فهو الآن يخدمه بذكائه . أما الشيخوخة فلا يذكرها ولا يتعلل بها للراحة بل هو
لا يؤمن بأنه شيخ فان ثقته بنفسه وقوة رجولته تلهمانه نشاط الشباب . ونذكر عنه حكاية بهذا الصدد
مؤداها أن الدكتور فورنوف عرض عليه أن يجرى له عملية استرداد الشباب التي تعمل للشيوخ
فأجاب على الفور : لست شيخاً

ثم هو وهو فى هذه السن يعتمد الى كتب الاغريق وينفض عنها غبار ألفى سنة لكي يدرس
حياة الخطيب ديموستينيس يستخرج منها موعظة نافعة لبلاده وللعالم
وهو الآن يكتب مقالات متتابعة فى إحدى الصحف الفرنسية يضمونها آراءه التي اختمرت
بالتجارب العديدة التي مرت به فى حياته . وماذا يقول فيها ؟

يقول هذا الشيخ الذى بلغ الثمانين ما يجب أن يفقهه كل شاب من الثقة بالنفس والكبرياء
والرغبة فى الاتفاع والتجدد . يقول مثلاً : « يجب أن نلقى مرساتنا ونستقر على صخرة المعرفة »

وأيضاً : « كل يوم يمر بي هو برهان لى على انى أجدد نفسى بنشاط عقل ... ولست أعرف شيئاً
كثيراً ولكنى أتقبل ما أعرفه بكبرياء كما أتقبل نتيجة معرفتى ... »

فهاك إذا رجلاً لا يحمل المسبحة خائفاً مذعوراً وهو فى سن الثمانين بل يعتمد على نفسه ويدرس
العالم ويرضى بنتائج درسه ويسكن اليها

ثم هو ينصح للشباب . لك أيها القارىء بقوله : « لكى لا تحصل على دون ما ترمى اليه يجب أن
تسمو الى أكثر مما تستطيع »

وليست حياة كليمنصو خلواً من النقائص وقد تكون وطنيته الحادة أكبر نقائصه . ولكن فى ما

قلناه من أقواله ما يصور للقارىء تلك الشخصية القوية التي تبدو من حياته وأعماله وثبتت إخلاصه لنفسه ولوطنه ومحاولة في أن يعيش انساناً مستقلاً يرفع العالم ويتفجع به . وحسبه شرفاً قضية دريفوس التي واجه فيها الرأى العام وناضل فيها العصبية الفرنسية لمصلحة الحق . فقد كان دريفوس ضابطاً يهودياً بالجيش اتهم بالجناسوسية وسجن من أجلها وكان كليمنصو يجارى الرأى العام في بداية التحقيق ثم تبين له أن الرجل مظلوم وأن اتهم مزورة عليه . وكان في ذلك الوقت يحرر صحيفة الاورو فانقلب يدافع عنه بكل قواه وينشر في صحيفته خطاب زولا المشهور بعنوانه « اتهم » وكان كليمنصو هو صاحب هذا العنوان المثير

فما أجد هذه الحياة التي يعيشها الانسان في الدفاع عن الحق ومكافحة التعصب ثم الدفاع عن الوطن . وخلال هذه الاعمال لا يكف عن اكتساب المعارف التي يسكن اليها راضياً بنتائجها ، له من كبرياته الانشائي ما يجعله يستقر الى ما يديه اليه عقله دون ما يسأم من الاساطير القديمة ويعيش طول حياته نشيطاً مجاهداً يلعب الألعاب الرياضية في شيخوخته كأنه شاب ويقاطع الحر والتبع لأنه يراهما دون رجولته وسيطرته على نفسه

ان مثل هذا الشيخ يجب أن يكون قدوة للشباب والشيخوخة . يجب أن نعيش طول حياتنا في جهاد ضد الرذائل وفي اكتساب للمعارف والعادات الحسنة وفي خدمة لا تنقطع للوطن والعالم وكل ذلك في كبرياء يجعلنا نعرف كرامتنا ونؤثر الموت الشريف على الحياة الدنيئة والايمان الذي يملئنا علينا ذهننا وقلنا على التالذ الموروث من العقائد تهتك أعراض الضمائر

الاستقلال الرومى

يروى التاريخ عن أحد أئمة الدين انه عاش طول عمره مؤمناً تقياً يخلص في عبادة ربه . ثم دب في قلبه الشك فلم تطق نفسه وقفرة المتردد المرتاب فكان يدعو الله قائلاً : اللهم الهمني ايمان العجائز

وايمان العجائز هو كما يعرف القارىء ايمان التسليم والتصديق بل قل هو ايمان الخوف والضعف لأنه اذا لم تكن العجوز خرفه تصدق كل ما يقال لها فلا أقل من أن تكون وجلة تقترب من ساعة الموت وفي قلبها وجيب الخوف فهي لا تتجادل ولا تعاض وما يدعو الى الاغتياب اننا قد عدونا هذا الطور . فليس منا من يجب أن يلهمه الله ايمان العجائز لأنه يرى هذا دون كرامته الانسانية وهو يجد في مواجهة الحقائق مع ما فيها من ألم الشك سروراً لا يجده ولا يجب أن يجده في التسليم بايمان العجائز

وليس معنى هذا اننا أقل ايماناً من السلف الصالح وان كنا أكثر شكاً منهم فيما اعتقدوه صواباً . وانما نحن نختلف عنهم من حيث اننا أكثر رجولة منهم في مواجهة الدنيا كما هي والسكون الى حقائقها والاعتماد في كل ذلك على عقولنا لا على ما تؤمر به ويشار به علينا كان أسلافنا يؤمرون بالايمان بأحد الاديان أو العقائد فيطيعون . فكانوا يسأمون العقيدة سلطة خارجية ولكننا نحن نحاول أن تؤمن بسلطة داخلية بما توحىه الينا ضمائرنا . تؤمن عفو القلب والعقل ونحن أحرار لا نخشى عقاباً ولا نبالي بحساب سوى حساب الضمير ونحن فيما نتعناه ونسكبه من هذا الايمان الداخلي وآلام التردد والحيرة أشرف وأشجع من سائنا الصالح الذي كان ينشد « ايمان العجائز »

ففى العالم الآن طائفة من الناس قد أخلصت النية لهذا العالم الذي هو وطننا الأكبر وعرفت موقفها فيه وما عليها من تبعات نحوه . ولكنها مع إخلاصها للعالم تخلص أيضاً لنفسها وهي ترى من الاخلاص لنفسها أن تشدد الله بما فيها من قلب وعقل وتحسس وجوده في هذا الكون بما تهديها اليه بصائر نفوسها

ولعل أظهر واحد من هذه الطائفة وأكثرهم جهاداً هو المستر ولز الانجليزى فلست أعرف رجلاً آخر قد تلظى بنار الحيرة ثم اهتدى الى ربه وسكن اليه . مضى عليه أكثر من عشرين سنة وهو يحاول أن يستخلص من لباب نفسه ايماناً يقفه من الكون على علاقة ترضى ضميره وعقله ولست أظن ان كثيرين من الذين يقرأون المجلدات الأربعة التي وضعها في هذا الموضوع يهتدون بهديه أو يقنعون بدينه ولكنى أعتقد ان هذا الرجل يبدى من الشرف والشجاعة والاخلاص ما هو جدير بكل انسان يحترم نفسه ويجب أن يرى الاديان تنبع من القلوب خالصة نقية ولا نصب فيها مشربة بما أوقرها التاريخ القديم من العقائد المختلفة

ولسنا نقول ان ولز ينفرد بهذه النزعة فان هناك كما قلنا طائفة كبيرة وهي وان كان أفرادها دونه ظهوراً الا انهم ليسوا دونه في الاخلاص والذكاء . وهم جميعهم يكرهون أن يؤمنوا بايمان العجائز بل يحاولون أن يحققوا للانسان استقلاله الروحى . ولكن كما ان حديث العهد بالاستقلال في السياسة يتخطى في مبدأ استقلاله فكذلك حديث العهد باستقلال الروح لا بد له من فترة تقضى في التردد والتخبط والظلام ثم ينجلي كل هذا عن نظام ونور ويقين

وهذه الطائفة تحاول أن تؤمن وكثيراً ما تؤمن وان كانت في نظر أكثر الناس معدودة من « الكفار » وهي كافرة بالفعل بتلك العقائد التي ورثها العالم عن قدماء المصريين والاشوريين والفرس ولكن إخلاصها لنفسها والعالم يدعوها الى النظر في الكون نظراً صريحاً والى محاولة حل هذا اللغز حلاً تسكن اليه

فنحن اذا تشدنا الاستقلال الروحي فانما نشده للفرصة الدينية التي في نفوسنا . وليس في ذلك تنطع أو استهزاء بالآراء وانما هي الانسانية قد بلغت سن الرشد وتأتى أن يقام عليها وصى من الخارج لأنها تحس أن هذا الوصى قائم في داخل نفوسنا وهي ترى من الرجولة أن تتحسس وجوده وتحاول الاهتداء اليه .

الجديد تحت الشمس

نكتب هذا العنوان لكي نفيه ونقول أن كل شيء جديد تحت الشمس . وأولئك الذين يدعون دعوى الدوام وأن الجديد كالقديم انما يقولون ذلك ونفوسهم تردد صدى القول القائل بأنه ليس في الامكان أبدع مما كان وان العالم لا يتطور . ولكن الواقع أن العالم يتطور ويتجدد . وهو اليوم غير ما كان في الامس وسيكون في الغد غير ما هو اليوم . وهذا التغير لا يلحق النبات والحيوان وحدهما بل يلحق الجملد نفسه . فان تاريخ الارض ثبت تحولها . فقد مضى زمن كانت فيه أميركا جزءاً لاحقاً متصلاً بأفريقيا وأوربا . ومضى زمن كانت فيه أوربا مغمورة معظم أقطارها بالثلج وكانت مصر في وقت ما لا ينقطع عنها المطر صيفاً وشتاء . ومضى زمن كان فيه جبل المقطم قعرأ للبحر تسبح فوقه الاسماك وينساب عليه المحار . ويقول العلماء الآن أن المادة دائمة التحول لاتهدأ ذراتها عن الحركة . فالجملد نفسه يتجدد تحت الشمس تنطق بذلك طبقات الارض الجيولوجية كما ينطق أيضاً فخص المادة في المختبرات العلمية

والنبات أيضاً يتحول ويتجدد . فعظم النبات الذي وقعت عليه عين الشمس قبل عشرة ملايين سنة ليس له وجود على أرضنا الان لان نباتاتنا جديدة . وبرهان ذلك أنه عند ما وجد الفيل المنقرض الذي يسمى الماموث في سيبيريا واستخرج من تحت الثلج فخصت الاعشاب التي في معدته فلم يعرف منها واحد يعيش الان . ثم هذا الفحم الحجري الذي يستخرج من المناجم كان قبلاً نباتاً لاوجود له الان . ونحن هنالكا في مصر وزارة زراعة من مهماتها أن «تجدد» سلالا القطن أي توجد أصنافا لم تكن موجودة قبلاً تحت الشمس

أما يتجدد الحيوان فنختصر ما يقال فيه أن نظرية التطور قائمة عليه وهي تستمد شواهدا من الحيوانات التي انقرضت والحيوانات التي جدت . وليس في العالم متحف للتاريخ الطبيعي إلا وفي عشرات من الحيوان المنقرض

فالتحول هو الناموس الاصل للكون كله فليس فيه شيء باق أو دائم وانما كل شيء يتحول تحت الشمس ويتجدد من لحظة لأخرى . حتى أنت أيها القاري منذ ابتدائك لقراءة هذا المقال الى أن

تنتهي منه ستتحول وتتطور لانك على الأقل ستكون أكبر سنا بجملة دقائق . واذا اختلف اثنان في السن اختلفت آراؤهما وقوتها ومزاجهما وإن يكن ذلك بقدر يسير لا يلحظ بالحواس ولكنه يستنتج بالعقل . فكل شيء اذن جديد تحت الشمس وكل شيء يتطور حتى الجماد . أجل حتى جبل المقطم والصحراء والليل . ولكن هذه الاشياء تختلف في سرعة تطورها . فالحيوان يسبق النبات والنبات يسبق الجماد والانسان يسبقها كلها . ثم بعد ذلك نقول أن الالهم الغربية تسبق الالهم الشرقية في التطور . فانت تسمع مثلاً عن تعدد الازياء وتجدها كل يوم في باريس ولندن وغيرها وتقرأ ما يقال من الفكاهات عن ذلك وتحسب هذا الثقل السريع في الازياء ضرباً من نزق النساء . وقد يكون كذلك ولكنه أيضاً دليل على أن شهوة التطور أشد هناك مما عند الشرقيين . وهذه الشهوة نفسها هي التي تثمر المخترعات والمكتشفات كل يوم . والشرق بجموده لا يخترع ولا يكتشف والغرب بتطوره يسير قدما نحو الامام ويحرر الشرق الجاملد وراه بعد أن يمتنه ويستخدمه . فالواجب الذي نحتمة علينا ناموس الطبيعة الا كبير هو أن تتجدد وتتطور ولا نحمد . يجب أن نجد أذهاننا بالعلوم والنظريات الجديدة كما يجب أن نجد نفوسنا بما نطبعه عليها من أذواق جديدة نكتسبها بدرس الفنون الجديدة . ويجب أن ننظر الى المستقبل ونفكر في الرقي المطرد والتطور المستمر ولا نتنع بالنظر الى السلف والحدود فان الخط الذي ساروا عليه في حياتهم قد بلى وانقرض ونحن في حاجة الى انماط جديدة تلائم وجهة النظر الحديث . فلم أيها القاريء تتجدد في الثقافة والحضارة جميعا وتنصت الى صوت ضميرنا الذي يدفعنا الى الامام ويحثنا على الاستقلال وتنفض عن أنفسنا غبار التقاليد التي تقيدنا وتؤذينا وتسد علينا منافس الحياة وتقتلنا

طريق السعادة

يقترح «الهلال» الذي سيصدر في أول الشهر القادم على قرائه أن يوافوه باختباراتهم الشخصية عن طريق السعادة . وذلك لأن رجلاً بارأ عرض على القراء مكافأة قدرها عشرون جنيهاً لمن يمكنه أن يكتب أحسن مقال في هذا الموضوع

والموضوع جليل المنفعة دائم الجدة . ولما كان كاتب هذه السطور خارجاً عن المباراة فلا بأس من أن يدل برأيه هنا في هذا الموضوع الذي يلهم قلب كل انسان وأن ينظر اليه بمنظاره الخاص ولكن قبل أن نفكر فيه يجب أن نتفي عن ذهننا ذلك المنطق الآلي الذي لا ينطبق البتة على الحياة . فاني أعرف مثلاً أن بسكال يقول أنه «لو كان الانسان سعيداً لزادت سعادته كلما قلت تسليته» وأن شوبنهاور يقول برهاناً على الشقاء الاصيل في هذا العالم : ان المرض يعدى وان الصحة

لا تعدى ، وان كل دقيقة تمر من حياتنا تجعلنا نقرب من القبر ، واننا ندخل الدنيا باكين ونخرج منها متألين .

ولكن كل هذا الكلام هراء فان منطق الحياة أسمى من ذلك وأدق وأعرف بغاية الكون من هذا المنطق الرياضى . فقد وجد كثيرون من الناس سعادتهم فى آلامهم وهذه سير الشهداء تنطق بذلك . وه فقراء ، الهند يمرضون أنفسهم عمداً ويجدون فى قروحهم وآلامهم سعادة لا يجدها غيرهم فى الصحة . وقد يعانى المخترع آلام الفقر والاحتقار وهو يتقدم نحو تحقيق غرضه ومن هذا المثل الاخير يمكننا أن نستبصر بمهية السعادة فانما السعادة هى الجرى على نواميس الحياة . فللحياة أغراض فى هذه الدنيا ونحن أدواتها التى تسوقها نحو هذه الاغراض . فاذا خالفنا هذه النواميس شعرنا بالشقاء ، واذا نحن انسقنا فى تيارها نحو أغراضها شعرنا بالسعادة

فلكى نفهم السعادة ونمارس وسائلها حتى نساعد يجب أن نفهم عرض الحياة . لانه كما ان الجسم يجد راحته فى اتباع الشروط الصحية كذلك نفس كل انسان يجد راحته فى اتباع شروط الحياة وأغراضها

ولكنك تسألنى الآن : ماهو غرض الحياة وكيف نعرفه ؟ فالجواب على ذلك اننا نعرفه من تاريخ الحياة على الارض . فان الحياة فى كل تاريخها الماضى ترمى إلى التوسع والاستعمار بامتلاك المادة واستغلالها . فقد نشأت ضئيلة فى الضحاضح ثم انتشرت فى البحر ثم وثبت إلى اليابسة ثم طارت فى الهواء . وكانت فى كل ذلك تجازف وتستعمر وتمتلك وتخترع وتجاهد وهى فى كل ذلك أيضاً لا تبالى بمن يموت فى تحقيق أغراضها

ونحن كذلك اذا أردنا أن نحقق سعادتنا على هذه الارض يجب أن نتوسع ونمد سلطتنا على هذا العالم . والواقع أن غريزة الحياة تدفعنا كلنا نحو هذه الغاية ولكننا نتخبط فيها بعض التخبط لان عاملاً جديداً ظهر فى الانسان يعاكس الغريزة هو الذهن . فالحيوان لاعتماده كثيراً على غريزته سعيد لا يشعر بشقاوة يرى غرضه ، وهو غرض الحياة ، ويعمد اليه بلا تردد ، ولكننا نحن لان لنا ذهنًا حديثاً تتردد وترتاب وتبالغ أحياناً وتقصّر أحياناً أخرى . فكلنا مثلاً يجب التوسع ولكننا ننسى الفهم بأن نحسب التوسع مقصوراً على جمع الثروة . وطننا مثلاً يجب المجازفة ولكننا ننسى فهمها فنجردها من غرضها وهو الرقى والاختراع فنجازف بغية المجازفة فقط ونقامر ونخاطر . وكلنا يجب المجاهدة ولكننا نجاهد أحياناً فى خصام سخي . ولكننا الحياة تجازف وتتوسع وتخترع لاجل الرقى . فاذا نحن جعلنا الرقى نصب أعيننا ووجهنا جهودنا ومجازفنا واختراعاتنا اليه شعرنا بالسعادة لان غايتنا تنطبق حينئذ وغاية الحياة

وهذا هو علة السعادة التى يجدها الشهيد فى قتله أو المخترع فى فاقته أو المجازف فى اكتشافه المجاهل أو المفكر فى مجاهدته المتعصبين

فختصر القول ان السعادة فى التطور والرقى أو بعبارة أخرى هى فى أن تكون أغراضنا وفق أغراض الحياة . ولا يسمع المرء وهو يرجع الى اختبارات الشخصية الماضية إلا أن يجد مصداق هذا القول

فى مبادئ الثورة

الثورة ضرورة من ضرورات الرقى اذا لم يلجأ اليها الناس من وقت لآخر جمدت بهم الحياة وربما هلكوا بجمودها . والسرطان وهو يخلع عنه صدفته والثعبان وهو يتجرد من جلده كلاهما ينزع الى الثورة حين يجد ان الوسط المحيط به جامد لا ينمو مع نموه . وكذلك الشرائع والمؤسسات التى يبنها الانسان حوله جامدة لا تنمو بنمو الحياة فالتناسل لذلك يحتاجون من وقت لآخر الى هدمها ومحوها والاستبدال بها . وقد يكون هذا الاستبدال بطيئاً مؤلفاً من ثورات صغيرة فنسميه عندئذ تطوراً . ولكن يجب أن نذكر ان التطور والثورة واحد فى النوع وان اختلفا فى الدرجة

ولكن للثورات أصولاً ومبادئ . يجب الجرى عليها والا انحرفت غايتها أو انعكست . وأول أصولها أن يكون القائمون بها من الكفاة الذين يعرفون قصدهم فيقصدون اليه . وقد دل التاريخ على ان الثورات الناجحة لا يقوم بها عوام الامة وهوامها المصفقون انما يقوم بها السادة المتعلمون المثقفون

ولسنا نكتب الآن بصدد الثورات الاجنبية فنذكر أمثلة منها فحسبنا ثوراتنا وان كان رينان يعيرنا بأنه ليس فينا ثائر واحد . اذا صدق رينان فهذا أكبر عار تلتطخ به أمة . ولكن الواقع ان لنا ثوراتنا وان كنا نحمل من أعباء الشرق شيئاً عظيماً تنوء به الجبال فتبدو ثوراتنا لذلك صغيرة لا يعتد بها رجل مثل رينان ينظر نظراً تلسكوبياً للمستقبل البعيد

وأكبر ثائر قام فى مصر فى العصور الحديثة هو فى اعتقادى اسماعيل باشا . فقد حاول أن يجعل مصر الشرقية الآسيوية المستكنة النائمة أمة غربية حديثة يلبس أهلها لباس الغربيين لهم حكومة برلمانية مثل الحكومات الاوربية يأكلون ويشربون ويسلكون فى سائر شؤونهم مثل الاوربيين بل لقد بلغت غيرته فى ذلك أن حض المصريين على الزواج من الغربيات وذلك لى يجعل بيوتنا وعاداتنا المنزلية غربية . وقد وفق اسماعيل باشا الى شيء كثير مما أراد . ويجب ألا

ننسى أن أول يد حركت الثورة العراقية كانت يده ولكن عرابي كان من العامة فلم يفلح في ثورته وانعكست على يده الغاية منها. وهذا هو ما نريد اثباته وهو أن أكبر أصل من أصول الثورة أن يكون القائمون بها من الخاصة سادة الأمة لا من العوام الصاخين

ثم كان لنا جملة أمثلة أخرى من رجال الخاصة الذين بذروا بذور الثورة الاجتماعية في مصر وهي بذور تنمو وتذكر الآن. فمن هؤلاء قاسم أمين الذي وضع بذرة الحرية النسائية. ومنهم محمد عبده الذي وضع بذرة الإصلاح الديني. ومنهم لطفى السيد الذي وضع بذرة الدستور. فان هؤلاء جميعهم أثروا وثوراتهم شبيهة بالتطور لأنها خالية من اهتاف والتصفيق والدماء ولكنها ثورات حقيقية تسير غير متوقفة أو وانية لأن القائمين بها من الخاصة وقد خاطبوا الخاصة وملكوا قلوبهم فوجدوا منها تربة خصبة لبذورهم

وخلاصة القول أن الثورات إنما تنجح إذا كان القائم بها من الخاصة. ولست أعنى خاصة المال وحدهم بل أعنى أيضاً خاصة الذهن والادارة والنفوذ. وعرق الثورة عرق شريف إذا همد نبضه أو بطؤ فانه عندئذ يؤذن بموت الأمة. وخلق الثورة خلق شريف إذا اتسم به رجل الذهن صار مكتشفاً أو مخترعاً وإذا تخلق به رجل الادارة صار مجدداً يعمل للنهضة والرقى. وليس لأديب الحق في أن يمارس الأدب ما لم يكن ثائراً ولا لحاكم الحق في الحكم ما لم يكن تجديداً

وهنا أناشد السادة الذين يحكموننا بالتطور والتجديد وأقول لهم ان الميدان خلو من مثل محمد عبده وقاسم أمين وإن الأمة في حاجة الى أن تنسلخ كما ينسلخ السرطان من أصداق التقاليد التي تعوق نموه. ولست أعتقد أن زغلول أو ثروت أو اسماعيل صدق دون من ذكرناهم من الثائرين المصلحين في الذكاء والنية الحسنة ولكنهم يحسبون أكثر مما يجب لحساب العامة ويخشون أشياء يدلنا تاريخنا على أنه يجب ألا نخشاها. وتجارب الأمم كلها تدلنا على أن العامة يجب أن تصلح بالقوة بل بالعنف أحياناً وقد أدرك ذلك رجال الاتراك وعملوا به فنجحوا

هذه الدنيا

منذ سنوات مات شاب انجليزي وهو دون الخامسة والثلاثين وكان قبل موته بنحو خمس سنوات يعرف انه قد حكم عليه أن يشرب كأس الموت المرة حوالى هذه السن. فقد كان مريضاً مقضياً عليه بالموت فكان يروح ويفقد وهو عارف بان الساعة الرهيبة تقترب. وقد خلف هذا الشاب كتابين أو ثلاثة ضمنها احساسه بالوجود ورأيه فيه وتنكر أمام قرائه باسم باريون والقارى. لهذه الكتب يشعر لأول صدمة أن الرجل شقى بل في غاية الشقاء فان عقله كان

أحياناً يهذى بالموت فكان يخرج الى الحقول يتنزه فيخطر برأسه خاطر الموت كالسكين القاطعة يلتوى تحته فيكاد يصرخ ويكاد يعدو ناجياً بنفسه ولكن لا نجاة من عدو غير منظور. ثم كان يكشف عن جسمه فيرى بشرته الحمراء والدم يجري دافقاً في العروق فتسود الدنيا في وجهه عندما يذكر أن هذا الدم القاني سيستحيل قريباً سائلاً أصفر منتناً يختلط بتراب القبر وتسمح فيه ديدانه أقول انه يخيل للقارى أن هذا الشاب كان شقياً لهذه الحواطر ولكنى بعد التأمل أقول أن هذا الحديث كان في غاية السعادة. فانه عند ما عرف آخرته وتعين له على وجه التقريب زمنها طفق ينظر الى العالم كأنه مكان غريب يوشك أن يخرج منه فيجب عليه لذلك أن يرى كل ما يمكن أن يراه فيه ويتمتع بجميع ما فيه من متع ومسررات. فعاش ملء حياته في تجارب وملاذات وخرج من الدنيا وقد شبع منها بأكثر مما يشبع منها ابن الثمانين أو التسعين. أو قل انه عاش بسرعة عيشة الغزال بينا غيره يعيش ببطء عيش السلحفاة ويوم واحد من حياة الغزال خير من ألف عام من حياة السلحفاة

ويخطر ببالى اننا نكون أسعد حالاً لو اننا عرفنا يوم انقضاء أجلنا كما عرفه باريون لاننا عندئذ نفعل فعله فنكف عن كل ما لا فائدة فيه ونعتمد الى رؤية هذا العالم والتمتع بمشاهدته وتجاربه. ولا يحسن القارى اننا نغمس عندئذ في الملذات البهيمية لان الانسان بهيم بطبيعته وإذا كان البهيم من الاشخاص المضمرة في نفسه فان الفيلسوف شخص آخر مضمرة في نفسه

ودليلنا على ذلك أن باريون لم ينقلب بهيما يشره الى الطعام أو النساء أو الخمر بل انقلب فيلسوفاً يخرج في الفجر لكي ينظر الى بزوغ الشمس وتوهج الشرق بأضوائها الممتبهة. وأخذ يعد الايام بينه وبين الموت فصار يدرس كل شيء تقع عليه عينه في هذه الدنيا فكان يقرأ القصص الروسية ويشرح البراغيث. وكان يقرأ نيتشه حتى يشعر انه كلب عضوض ثم يعرج بعد ذلك على الموسيقى الالمانية فيستكنه سحر الانغام وطرب الايقاع. وكان يصعد مع ما هو فيه من أمراض عاتية مضنية الى قمم الجبال وكأنه يريد أن يواجه الكون وجهها لوجه ثم كان يعود فيكتب مقالا عن « الرغبة في الخلود » توهج ألفاظه بالتفاؤل والمجازفة والرغبة العنيفة الشبارب والتمتع بالدنيا

اقرأ مثلاً هذه القطعة منه « يقول تين اننا في الآداب يجب أن نحب كل شيء. وأنا أقول: أجل. رقى الحياة أيضاً يجب أن نحب كل شيء. ان جميع الاشياء في هذه الدنيا تجذبني فلا يستطيع ان أحصر قواى بل أرائى مستعداً لان اعمل كل شيء واذهب الى كل مكان وأفكر في كل شيء وقرأ أى شيء... وإنما يقطع الانسان نفسه من بعض الوجود إذا هو اقتصر على صناعة بعينها أو طريقة للحياة أو مذهب أو فلسفة أو رأى أو تعلق فانى أنا أكتب للجميع ... »

ولكن يجب أن أقطع نفسي هنا عن فتنة النقل المغرية واقنع بالعبث والعبثية . فان حياة باريون على قصرها املاً بالتجارب والمتعة من حياة أى واحد منا . فاننا نعيش أكثر أيامنا عيشة نباتية كأننا أشجار مزروعة لا نتقل إلا فيما بين بيتنا ومحل عملنا ولا ندرس إلا ما نحصل به عيشنا فنموت ونحن نجهل عجائب هذا العالم . وليس في هذا العالم شيء نأفه إذا سلط عليه الذهن بالدرس وليس فيه حجر أو حيوان أو نبات إلا وهو صندوق عجائب لا ينتهي الانسان من لذة المعرفة له . ثم هذه الدنيا بمتحفاتها الطبيعية بجبالها وأنهارها وحقوقها وبما فيها من تحف وطرائف صنعها الانسان كلها جديرة بالدرس الذي هو أرقى أنواع التمتع

الحياة الحسية

منذ أيام كنت أقرأ كتاباً عن الاغريق القدماء وأثرهم في ثقافة العالم . والاغريق هم كما يعرف القارىء أصل الادب الحديث وواضعه من مبادئه ولكنهم مع تقدمهم في الادب ليس لهم أى فضل في العلوم . وخاصة تلك العلوم العملية التجريبية التي تعزى اليها حضارتنا الحديثة . وليس ينكر انه قد نبغ فيهم اقليدس ولكنه كان صاحب نظريات . وكذلك ليس ينكر أن ارسطوطاليس شرع طريقاً عملية للعلوم وان ارخميدس اخترع الطنبور الذي يستعمل الآن للرى في حقولنا . ولكن المهم الذي يلفت النظران الاغريق لم يستأنفوا السير على الطريق الذي اختطه لهم اسطوطاليس وان ارخميدس كان يخل من تدوين مخترعاته لانه كان يعتقد من التفاهة والهوان بحيث لا تستحق العناية بتدوينها . فماتت تلك الحركة العلمية الصغيرة بل وندت في مهدها . ونام العالم في الظلام نحو ١٥٠٠ سنة الى أن نهض نهضة علمية جديدة ثابتة الاساس مطردة التقدم . فماذا كانت علة ذلك ؟

كانت علة ذلك أن الاغريق كانوا يعيشون عيشة حلية أى كالحلم الذي يمتص دم الحيوان الذي يعلق بجملده . فكانوا يستخدمون العبيد ويمتهنونهم في أعمالهم المنزلية والزراعية والصناعية وكانوا لذلك يحتقرون جميع الاعمال التي يعملها العبيد ولا يرضون البتة بان يدرسوا الصناعة أو أعمال البيت أو شؤون الفلاحة . وبديهي أن العلوم لا تنشأ الا اذا كانت تتناول هذه الاشياء بالاختراع وهذا يتضح اذا القينا نظرة واحدة على المخترعات التي تخترع في زماننا فانها كلها تتناول الزراعة أو الصناعة

فالاغريق حرموا انفسهم من العلم لانهم كانوا يعيشون في دعة عيالا على عبيدهم يحنون ثمرات جهدهم ويحتقرون مع ذلك أعمالهم ويتعبدون من التلبس بها أو الاهتمام لشؤونها . وقوام العلم الاختراع

وما دام الانسان لا يحترم عملاً ما فهو لا يفكر فيه ولا يتهم لتخفيف مشاقه باختراع آلة أو اكتشاف طريقة بها تقل ساعات العمل أو تزيد مكافأته وعلى ذلك يمكنك أن تقول أن الرقي لم يكن مؤذياً للعبيد وحدهم بل كان أيضاً أذى عظيماً وبلاء كبيراً للاغريق انفسهم لانه حرمهم من تسليط عقولهم على حضارتهم والعمل لتقدمها بالاختراع والاكتشاف العليين

وما أحرانا نحن أن نغير بهذه العبارة البالغة . فالوارث الذي يتمتع بأموال أبيه وهو وادع هاني لا يعمل ولا يكبد انما يعطل قواه ويعوق كفاياته عن النمو فيركد ذهنه ويعيش في العالم عيشة حلية وهو قانع بما يقنع به الحلم من طعام وشراب لان العقل لا ينمو ولا يزكو الا اذا عملته التجارب ونقته الاختبارات وهذا لا يكون بالركود والدعة وانما يكون بالجهد والعمل والتفكير والتهمم للرقي والنجاح

وينظر بيالى وأنا أسطر هذه الكلمات ذلك الخبر الذي ذكرته الصحف من أن جامعة ريدنج في إنجلترا قد انشأت شهادة عليا للبناء أى صناعة الجبن وما اليه من مستخرجات اللبن . فان الانجليز لا يحتقرون الصناعات ولذلك يسلطون عليها عقوهم بالدرس والاختراع فترقى الصناعة بهم ويرقون هم بها . ولو أن أفندياً من شباننا اقترح عليه أن يصنع الجبن لأنف واستكبر . وهو انما يفعل ذلك لمثل السبب الذي كان يحذو الاغريق الى احتقار الصناعة . فقد احتقرنا نحن الفلاح واضطررناه الى عيشة زرية في كواخ بالية وأضعنا كرامته من أعيننا فصار في مركز العبد وصرنا لذلك نحتقر أعماله وكل ما يلبسه فعاد اليانا احتقارنا كالسهم الاسترالى يطلقه صاحبه فيرتد اليه وبتنا واذا بشباننا يترامى على وظائف الحكومة ولا يستطيع أن يقف على قدميه مستقلاً ويواجه عالم التجارة والصناعة والزراعة بكفايته ومهارته

أجل اننا نعيش الآن فالحلم على الفلاح . وجميع أنواع الحلم سواء في انها تفقد جزءاً كبيراً من كفاياتها . فالديدان التي تعيش في بطوننا تفقد احياناً قناتها الهضمية لوفرة الغذاء حول جلدتها وبين النمل أفراد تعيش بخدمة غيرها لها فتعجز عن الحركة وتبقى مدى حياتها في مكانها لا تريم لانها تجد من النمل ما يعنى بها ويغذوها ويمسحها

اننا لا نخترع ولا نكتشف لاننا لا تلبس بالحياة العملية حياة الصناعة . والعلم لا يتقدم الا اذا كانت غايته عملية . وقد بدأ يكون النهضة العلمية الحديثة بحض الناس على درس « الاشياء العادية » ولكن هذه الاشياء العادية البسيطة أصبحت في يد عمال لا نحترمهم وان كنا نعيش بعرق جبينهم فنحن لذلك نعتبر من أن نكون دباغين أو حدادين أو خبازين مع انه لا مجال للاختراع والاكتشاف الا في مثل هذه الصناعات . وأيضاً لا مجال للعمل الاستقلالى الا في ميدانها

العلم والآداب

ليس شك في أن عصرنا الحاضر هو عصر العلوم وأن العصور القديمة هي عصور الآداب . وليس ذلك إلا اطراداً مع رقى الذهن البشرى لان العقل العلمى أرقى من العقل الادبى وذلك لان عقل الآداب هو عقل الخواطر السائبة الطارئة . ان كان قد صبح في عصرنا بقليل من الصبغة العلمية . بينا نجد ان العقل العلمى يتقيد ولا ينساب ويحيل الفكرة عن عمد لا تطرأ عليه طرؤه الخواطر الهائلة

ولكن هناك سببا آخر (غير الرقى الذهني) لاتسام العصور القديمة بسمة العلوم . وهذا السبب ينحصر في أن الامم القديمة كانت عظيمة ينظم فيها نظام الارقاء والموالى يسودهم ويستغلهم الاسياد والاشراف بينما زماننا الحاضر زمن عصامى خلو من الرق والولاية فكان العبيد والموالى يقومون بالأعمال اليدوية بالزراعة والصناعة بل حتى بالتجارة لمصالح اسيادهم . وكانت هذه الصناعات كلها محتقرة لانها قد اختص بها العبيد دون الاسياد . والعلوم انما تنمو وتزكو بين الصناعة ولكن لما كانت العقول المسطرة عليها قديما هي عقول العبيد فقط . ولما كان هؤلاء العبيد أيضا خلوا من التريبة والمال فانهم لذلك لم يخترعوا ولم يكتشفوا ولم ترتق بهم الصناعة أو العلم . وكذلك رأى الاسياد والاشراف انه لا يليق بهم أن يتلبسوا بالصناعة للعار الذى يلحق بها اذ قد اختص بها عبيدهم ومواليهم . ومن هنا نفهم نهى الغزالي للناس عن أن يكونوا حلاقين أو دباغين

فالعصور القديمة كانت عصور الآداب لان الخاصة المتعلقة كانت تأنف من ملاسة العبيد في صناعاتهم وتقتصر على درس الآداب . ولكن لما قطعت الخاصة الصناعات قاطعت العلم أيضا اذ أن ميدانه هو ميدان الصناعة لان رقى العلوم لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى رقى الصناعة . الا اذا استثنينا الفلك .

وقد سارت نهضة العلوم الحديثة سيرا مراققا لالغاء الرق وتحرير الصناعة بل تطهيرها مما علق بها من عار الرق السابق . وشرع يكون عندئذ يناشد الكتاب والمؤلفين أن يدرسوا « الاشياء العادية » ويتركوا المسائل الضخمة من البحث في ماهية الخالق وما وراء الكون ونحو ذلك وهذه الاشياء التى درسها يكون هي أساس الرقى الصناعى أى الرقى العلمى الحاضر والعبرة لنا بما قدمناه شيئا :

١ — ان نهضتنا في مصر أدبيه وليست علمية . وهى تخالف في ذلك أوربا

٢ — ان علة ذلك أن الفلاح والعامل عندنا عتقران

فاننا قد وضعنا العامل الصناعى والعامل الزراعى في مركز العبد من حيث قلة الأجر وهوان العيش بحيث صرنا نعتبر من أن نعمل عملهما . والعلوم لاتتقدم الا بدرس الاشياء العادية أى بدرس مخاطر الجبن أو الخبز أو الكحول أو بدرس أرواث البهائم أو زيوت الوقود أو الاصباغ أو نحو ذلك . وهذه أشياء يتلبس بها العامل الذى نحتقره فلذلك نحن نحتقرها ولا نحب أن نتمسك وعاد علينا هذا الاحتقار كالسيف القاطع حتى قطعنا من البحث العلمى وانصرف شبابنا الى الادب وصاروا الآن يعنون بقراءة قصيدة أكثر من عنايتهم بوصف طيارة مع أن صناعة الطيارات أشرف من قرض الشعر وهى برهان على رقى الذهن العلمى وتفوقه على الذهن الادبى . فان الهمج يقرضون الشعر ولجميع الأمم في جاهليتها القديمة أشعار وقصائد بارعة ولكن العلم هو ثمرة الذهن الحديث الذى غذى بأوفر مادة من الثقافة والحضارة

ثم إن احتقارنا للصناعات قد سد علينا طريق الأعمال الحرة التى هى أساس القوة والثروة عند الامم الراقية . فيجب علينا إذن أن نعود إلى نهضتنا الحاضرة فنصبغها صبغة علمية وإلى عمالنا فنرفعهم إلى مستوى يحفظ كرامتهم الانسانية وكرامه الصناعات التى يزاولونها ثم بعد ذلك لانتحتاج أن نحث الشبان على طرق أبواب الأعمال الحرة

ويحت أن نغرس في أذهاننا أن وطن العلوم هو المصانع وأن الأمة المصرية تنتفع وترتفع إلى أعلى درجات المجد اذا أقبل شبابها على الصناعة . وأن العلوم ترتقى لانها تجد البيئة المواقفة لها في الصناعة التى تغرى العالم بالعلم للكافآت العظيمة التى تقدمها له . ونحن مازلنا في طور الزراعة من حيث العمل وطور الادب من حيث التفكير وكلا الطورين لا يتفقان والعصر الحاضر . فالزراعة التى نمارسها قد باتت من احتكار الهمج في افريقيا وآسيا وأمريكا . والهمج لقلة أجورهم سيطردوننا من أسواق العالم كما رأينا من مزاحمة قطن السودان لقطننا . وقد عرف القارىء بما ذكرناه آنفاً أن الأمم جميعها كانت في جاهليتها أى في همجيتها تعرف الادب . ولكنها لم تعرف العلم أو الصناعة الذين هما التوأمين لرقى العصر الحاضر

الحياة الميكانيكية

أحيانا وأنا على الترام آخذ في التأمل والتفكير في هذا المفتش الذى يتناول منى التذكرة فيمزقها ثم يعيدها إلى . فأتحيله عندئذ كأنه عروس خشبية كبيرة لاتصفق بيديها كما هو دأب العرائس التى تشتريها لاطفالنا بل تقطع الورق بأصابعها ولكن في حياة المفتش من التقل من ترام إلى آخر ما يجعل حركته أشبه بالحياة من حركات

بعض الناس . فهناك مثلاً البواب الذى لا يحتل من هذه الكرة الارضية سوى ما تقل مساحته عن متر أو مترين يقضى حياته فى فتح الباب وإقفاله واجابة السائلين عن أسماء السكان . وهناك أيضاً ذلك التذكري فى المحطات يقضى حياته وينفق عمره فى النظر فى قطع صغيرة من الورق الغليظ ثم يضرب الورقة فى حديد بارد أمامه ويناولك اياها ويعود فيكرر هذا العمل لمئات مثلك مئات الايام بل مئات الاشهر

وأحياناً أتساءل : لو أن هذا التذكري عرف حياته هذه قبل أن يولد هل كان يرضى بالدخول فى مسرح هذه الدنيا ؟

ولكنى أراى هنا انتطع . فأننا كلنا نعيش هذه الحياة الميكانيكية . وقد يختلف أحدنا عن الآخر انما الاختلاف فى الدرجة فقط وليس فى النوع . فهذا الموظف يقضى نحو ٤٠ سنة من عمره وهو يطبع الخطابات . وهذا الآخر يتناول كل يوم دفترًا أسود كبيراً يكتب فيه شيئاً شبيهاً بما كتبه فى الامس وبما سيكتبه فى الغد . وهذا التاجر يقعد إلى مكتبه ويبيع أشياء مضى عليه أكثر من خمسين سنة وهو يبيعها

وكلنا هذا الرجل نسير فى هذه الدنيا سير الآلات الصماء . ونؤدى أعمالنا اداء ميكانيكياً . وكلما زادت مزاولتنا لأعمالنا زادت الصبغة الميكانيكية لهذه الاعمال وباتت حركتنا آلية . فترانا نذهب فى الصباح إلى أعمالنا ونحن غائبو الذهن تمشى أقدامنا وكأنها تتحرك بغير ارادتنا حتى أننا أحياناً لنجفل إذا فاجأنا أحد ونحن فى سيرنا بسؤال عن الوقت ونشعر كأنه قد قطع علينا الطريق وأفسد الآلة

وهذه مأساة يكابدها كل منا وهى من الشرور اللازمة التى يستدعيها العيش . ولكن يجب ألا ننسى أننا عند ما نعيش فى هذه الحياة الميكانيكية وتقصر جهدنا اليومى على مزاوله أعمالنا تتمتع بهذه الدنيا بأقل مما يتمتع به وحش الغابة أو طائر الهواه . فأننا لم نخلق لكي يسترقنا عيشنا استرقاق العبيد يحبسنا فى مكاتبنا ويربطنا إلى مناظرننا ويحرمنا من رؤية هذا الكون وتملى عجائبه ودرس هذا العالم بما فيه من ناس وحيوان ونبات وعمران

فالكد والكدح للعيش شر واجب لا مندوحة عنه . ولكننا نحن أبناء هذه الدنيا يجب ألا نخرج منها وندرج فى أكفاننا قبل أن نفهمها وندرسها . ولا يكون ذلك إلا باغتنام القرص من وقت لآخر لدرسها إما عن سبيل الكتاب وإما عن سبيلها هى مباشرة . فيجب أن يكون كل منا هاوياً من الهواة له شئ فى هذا العالم يدرسه درس الهاوى المقرم بموضوع حبه وتعلقه . فمن الناس من هوى السياحة فتتمتع برؤية هذا العالم ولكن السياحة بلا درس لا تختلف كثيراً عن المناظر السينماتوغرافية . وإنما الفائدة واللذة تعودان على المرء إذا نظر ودقق نظرة الناقد الفاحص

لذلك فلا غنى لاحد عن الدرس . وما دامت لنا الرغبة فى الدرس فإن الطبيعة والحضارة والثقافة لا تبخل احداها علينا بما ترغب فى درسه

ففى قطعة الحجر الذى تبنى منه المنازل فى القاهرة ما يدلك على تاريخ مصر منذ ملايين السنين وفى تشريح الارنب آلاف من العجائب التى تفتح بصيرتك فى استكناه الحياة . وفى زهرة القطن أو نورة التفاح وقائع من الغرام والعشق تعجب لها عندما تعرف احتيال الذكر لبلوغ الانثى . أجل ؛ وفى درس تاريخ الجبرق ما يقدح ذكائك ويجعلك تلتفت الى الوراء فى تاريخ مصر وتظر الى الامام فى مستقبلها وأنت بين الشجن والامل ، ثم فى درس آلات الاتومبيل أو أدوات الطائرة ما يقوى خلقك ويجرئك على استعمال ذكائك فى أشرف ما يستعمل فيه ذكاء وهو الاكتشاف والاختراع

بمثل هذا تطعم الحياة وبلد لنا العيش وتخفف عنا سام المزاوله اليومية لاعمال قد تكررت علينا حتى صرنا نؤديها وكأننا آلات صماء أو كأننا عرائس خشبية لها اجرام ضخمة وألوان مختلفة

أفخر الاناث

منذ مدة نشر أستاذ الانجليزى كتاباً عن مقياس الكفاية فى العائلات . فقال ان أفضل ما تقاس به العائلة هو مقدار الاناث فى منزلها ونوعه . فان الانسان اذا وقف أمام صورة معلقة على الحائط استطاع أن يحكم على صاحبها ويعرف منها درجة ذوقه وثقافته . فهناك من يعلقون صورة بطة من بطلات السينماتوغراف وهناك أيضاً من يعلقون صورة لفينوس ربة الجمال عند الاغريق وفرق عظيم بين هاتين العائلتين . ثم هناك أيضاً عائلات لا تعلق على جدران منازلها أية صورة كأن الفنون التى مضى على الانسان نحو عشرة آلاف وهو يحاول أن ينقل اليها هواجس نفسه وعواطفه وعقله لم تخلق لها أو كأن هذه العائلات تعيش فى بناوة خاصة بها مقصورة عليها فى وسط الحضارة العظيمة التى نعيش الآن بين ظهرانيها وتقلب فى نعمتها . وقد يكون هذا الاستاذ مصيباً أو مخطئاً ولكن الواقع أننا نحكم على درجة الناس ومركزهم الاجتماعى بأثاث بيوتهم فلا نبالى بالرجل كم يملك من الارض أو العقارات اذا لم نجد بيته مؤثلاً منجداً على الطراز الذى ندرك منه حضارة أهل البيت وثقافتهم . ولكن أثاث المنزل يتفاوت وأفخره وأدعاه الى تقدير أصحابه هو المكتبة فالمكتبة هى أفخر ما فى البيت من أثاث . فان المقعد الجميل والمنضدة المليسة بالصدف والصورة الفخمة والسجاد الفاخر الذى حاكته الأيدى الفارسية والستائر السرية والثريات المتلاثة كلها تدل على الذوق العالى والتبصر الحكيم لاصحاب المنزل ولكن أفخرها كلها وآنسها للضيف

أو لرب البيت هو المكتبة فإن المكتبة أثاث حي يؤنسك ويستجيب لك ويلبي شهواتك العليا فأنت تنظر الى قطعة الأثاث الجميلة فتغذو عينك بحماها ويلد لك رؤيتها ولكن الكتاب ليس جميلاً فقط بل هو يتسرب الى ذهنك فيجعل ما تملكه من هذا الكون ملكوتاً عظيماً وبسط نفوذك الى أوسع مدى يستطيعه هذا الذهن ويكبر شخصيتك حتى تملأ هذا الفضاء كله وحتى ليس به مكان يخرج عن استعارك واحتلاك . فأنت بكتب التاريخ مثلاً لا تقصر عمرك على سبعين أو ثمانين عاماً تعيشها على هذه الأرض بل تذهب بخيالك الى ملايين السنين الماضية وآلاف السنين القادمة فتشعر عندئذ بكبرياء وعظمة أنت جدير بهما لأنك تاج التطور ولأن جميع الاحياء على هذه الأرض دونك في هذه الذاكرة التي جعلها الكتاب تمتد بنا الى ملايين السنين الماضية . ثم انظر في كتب السياحة أو العلوم أو الآداب أو الأديان تجد نفسك تشرب وتتطلع الى حقائق هذا الكون وذهنك يلتصق بالخواطر والافكار التي تهبط على هذه الحقائق وتمسها أو تكاد فترى عندئذ أنك تستعمل ذهنك في أشرف ما يمكن انساناً أن يستعمل فيه ذهنه وهو التسلط على هذا العالم بكشف حقائقه والمكاتب والكتب إنما هي محاريب الثقافة الانسانية . وليس شك الآن في أيامنا هذه وخاصة عند الامم الاوربية من أن الجامعة الحقيقية التي يمكن جميع الناس أن يتخرجوا منها علماء راسخين إنما هي الكتب كما قال كارليل

وقد أصبح لهذا السبب من أكبر ضرور البر والعناية بالخدمة العامة أن يتصدق الاغنياء بالكتب والمكاتب المجانية

ولكن هذه المكاتب العامة لا تغني عن المكاتب الخاصة ، ففي كل بيت يجب أن تخصص أجمل غرفة لكي تكون محراباً للسكان يغشونها في أوقات فتورهم ونشاطهم ويجدون فيها من الكتب الفاخرة لها وفائدة وأغراء يحول دون غوايات هذا العصر . فإن المغرم بالكتب يراها موهاته يقتنيها للقراءة أو للاستشارة وينفق على تجليدها وتهيينها ما ينفقه غيره في البطالة المفسدة على القهوات أو في الاكباب على الشراب أو نحو ذلك من المغاوى الكبرى

وما يذكر عن المستر رمزي مكدونالد رئيس الوزارة الانجليزية السابقة أنه وهو ينتقل من منزله الى منزل آخر وضع الخمالون أكداس الكتب التي يتألف منها جزء من مكتبته في وسط إحدى الغرف فتحطم السقف تحتها لوفرتها وثقلها وهذا خبر يروى عنه كأنه إحدى مفاخره

وحبذا المفخرة يفخر بها الشباب أمام اخوانه اذا دعوه الى القهوة فاعتذر بلزومه منزله لأن مكتبته أفخر أثاثاً من القهوة وآس منها للنفس وأوفر لها وفائدة . وحبذا المفخرة أيضاً لربة البيت تفخر بها أمام ضيفها وتبرهن لهم على ثقافة السكان وعلو منزلتهم . ونحن أبناء القرن العشرين قد تحضرنا وثقفتنا وارتقيتنا على آباءنا وجدودنا فلم نعد نقتنع من المنزل بسجاده وكراسيه وموائده فإن بنا كبرياء يدفعنا الى أن نحترم أكرم ما في أجسامنا وهو الذهن بأن نغذوه بأجمل الكتب في أنحر المكاتب

الروح الانجليزية تتطور

اجتمع منذ أسبوعين مؤتمر مؤلف من كهنة الكنيسة الانجليزية وقرر فيما قرر تنقيح كتاب الصلاة الانجليزي . فانقص منه وزاد ونقح فيه بالتبديل والتعديل . فمن ذلك مثلاً انه استبدل الحب بالطاعة التي كان يفرضها الكتاب السابق على الزوجة لزوجها . ومنذ أكثر من ١٥ سنة التأم مؤتمر آخر مؤلف من كهنة الكنيسة الانجليزية أيضاً وقرر قبول نظرية داروين . ولسنا بسبيل الفحص لهذه النتيجات فانا لسنا أهلاً لها . وانما لنا العبرة لانا نعيش في هذا الشرق الذي يكره التبديل والتنقيح ويطلب منا أن نعيش كما كان يعيش آباؤنا منذ ألف عام وان تسلم لغتهم بلا تبديل أو تعديل وأن نعتقد عقائدهم

فهؤلاء الانجليز الذين يملكون نحو ربع الدنيا والذين هم بلا نزاع من أرقى الدول يكرهون الجمود حتى في دينهم . فالصلاة تتطور معهم لأن روحهم تأبى الجمود كما يأبأها ذهنهم . فاللغة الانجليزية التي يكتبها المؤلفون الانجليز الآن تختلف اختلافاً عظيماً عن اللغة التي كان يكتبها شكسبير قبل ٣٠٠ سنة . ونزعة الآداب الانجليزية الآن تختلف عما كانت في أيام ولتر سكوت قبل مائة سنة . والانجليز في معيشتهم الان يختلف عما كان قبل مائة سنة وأقل ما في هذا الاختلاف انه يعيش الان بالصناعة وكان قبلاً يعيش بالزراعة

فالانجليز قد تطور في لغته وآدابه ومعيشتهم وها هو ذا يريد الآن أن يتطور في صلاته وفي علاقته بربه . وهذا يدل على انه يفهم الحياة أكثر منا وانه يفتن لأهم نوااميس الحياة وهو التحول والتطور وما احرانا نحن بان نفقه هذه العبرة . فهؤلاء الانجليز متقدمون راقون يسودون العالم ويغلبون كل من يعارضهم في تنازع البقاء لانهم لا يجمدون ولا يلزمون حالة واحدة

ولسنا نظن انه يمكن أحد الشرقيين ان يقترح تنقيح صلاته كما يفعل الآن الانجليز وهو لو فعل لعد كافراً وبات بذلك طريد اهل وملته . ولكننا هذا لا يمنعنا من أن نشد التطور في النواحي الاخرى لحياتنا الاجتماعية والاقتصادية . فنحن الآن مثلاً على أبواب نهضة كبيرة تنقلب فيها معاش الناس من الزراعة الى الصناعة ومن الادب الى العلم كما انقلبت في تاريخ الانسان الماضي قبل سبعة آلاف سنة من البداوة الى الحضارة . فإذا لم تمش مع هذه النهضة وإذا لم يقبل شبابنا على الصناعة ويضع من الان أسسها الوضيعة سبقنا العالم فلا نستطيع عندئذ اللحاق به . ثم هذه الزراعة التي نمارسها الان في حقولنا قد عرفها الهمج في العالم وصار الغرييون يمارسونها في الأراضي البكر على مساحات واسعة يزرع الواحد منهم نحو خمسين أو ستين فدانا ولا قبل لنا نحن أن نزاحم هؤلاء بزراعتنا . وعلى ذلك يجب أن نعرف ان زراعتنا مقضى عليها اذا لم نجعلها فنية قائمة على الفواكه والخضروات وصناعة قامة على الغزل والنسيج والتجبين

فزراعتنا يجب أن تتطور حتى تكون صناعية . ثم هذا الأدب الذي يمارسه شبابنا هو أدب بال قائم على الانساق والخرافات فيجب أن يتطور حتى يصير أدباً علمياً غايته البحث عن معايير جديدة للحياة والسعادة

ثم معيشتنا يجب أن تتناولها بالتنقيح والتبديل حتى توافق بيوتنا شروط الصحة والجمال ، وحتى لا نحتاج إلى أن نهجرها إلى القهوة والحانات ، لكي ننسى حياتنا فيها بعض النسيان . وأيضاً يجب أن نتذكر المرأة التي هي الأم والمرية والعشيرة فرفعها إلى مستوى المرأة الأوربية حتى تكون بذلك انساناً نأنس به في بيوتنا ، وحتى تكون حكيمة مدبرة يمكنها تربية أولادها والإشراف على مصالحهم إذا مات زوجها

وإذا كان الانجليز لا يتهيبون من التنقيح في الصلاة التي يتقدم بها الانسان لربه فاننا يجب ألا تهاب من التنقيح والتبديل في معاشنا فنعمل لتحرير المرأة وتعليمها الحرف التي يمكنها أن تعيش منها ، ونعمل لحث الشباب على درس العلوم وممارسة الصناعات ، ونعمل أيضاً لحث جميع الناس على اصطناع المخترعات الجديدة فتركب الطائرات بدل الخمر ، التي كان يركبها أسلافنا ، قبل عشرة آلاف سنة ، ونخترع ونكتشف وتقدم للعالم بحصتنا من المجهود في ترقية ، لأننا نعيش الآن ونحن عائلة عليه ، في الاختراع والاكتشاف . وليس ذلك إلا لأننا نلزم السنين القديمة والطرق العتيقة .

تنقيح الصلاة الانجليزية

ليس شيء أكرم عند المؤمن من صلاته ، ولا شيء يدعوه إلى الوقار أكثر من وقفة المتعبد الخاشع أمام ربه ، فإذا كان في العالم شيء جدير بالمحافظة والجمود فهي ألفاظ الصلاة وعبارات الدين . لأن لهذه الألفاظ والعبارات من الحرمه والقداسة ما يجعل المؤمن يحرص على أن تبقى كما هي محتفظة برسمها العتيق كما تحذر من ميثاق السنين الماضية

ولذلك نرانا مضطرين إلى أن نعود إلى موضوع الأسبوع الماضي وهو هذه الصلاة الانجليزية التي عمد اليها الأساقفة فنقحوها وغيروا وبدلوا في ألفاظها وعباراتها حتى تتفق وروح العصر الحاضر . وذلك لأن لهذا التنقيح مغزى جديراً بالتفهم والدرس وخاصة منا نحن المصريين .

فنحن أمة قديمة ابتدعنا الحضارة لأول ما ابتدعت في تاريخ هذه الكرة الأرضية ، فكنا المعلمين وسائر الأمم التلاميذ . ولكننا جمدنا وخشينا البدع ولزمننا سنن الآباء ، ولم تتطور فسبق التلاميذ معلمهم وبنوا وقد تخلفنا وتقدم غيرنا . وأقرب برهان على جمودنا أننا في العام الماضي

أحدثنا زوبعة هائلة في فينجان بشأن طائفة من الشباب أرادوا أن يستبدلوا القبعة بالطربوش ، ثم عدنا فلاناً العالم صياحاً بشأن طلبه دار العلوم حين أرادوا اتخاذ اللباس الغربي . وفي هذا الشهر أذاع وزير المعارف منشوراً يحتم فيه لبس العمامة والقفطان على معلمي المدارس الأولية فتأمل معي أيها القارئ وقابل مصر بانجلترا . فهناك يتجرأون على تبديل الصلاة ، وهنا لا تجرأ نحن على تبديل اللباس ، وحين يتشوف شبابنا إلى المثل بالغريين وطمحون إلى المساواة بهم نكبست فيهم هذا التشوف وهذا الطموح وتضطرهم إلى لزوم اللباس الذي كان يلبسه أجدادنا وأجداد أجدادنا

هناك في إنجلترا يقول برنارد شو ان الأمة الحية يجب أن تنقح دباتها مرة على الأقل كل عام ، ويعمد الأساقفة الى كتاب الصلاة المقدس الذي تضعه العجور الهرمة تحت وسادتها في الليل وتقرأه في الصباح فينقحونه ويدلون في معانيه وألفاظه ونحن نصيح ونولول اذا غيرنا اللباس وليس ذلك فقط : بل في العام الماضي اطلق في مصر على اليهود والصاري صفة الكفار . وكانت الحجج في اطلاق هذه الصفة انها قديمة يعرف بها النصارى واليهود من أكثر من ألف عام فلهؤلاء الذين يبالغون في احترام القديم يقول : انظروا الى الأساقفة الانجليز واحفظوا عنهم دروساً في المدنية . فان هؤلاء الأساقفة وجدوا أن صلاة التعميد تذكر غضب الله وانتقامه فحوا ذلك واستبدلوا بهما ذكر الحب والرحمة ووضعوا البركات في مكان اللعنات . ووجدوا أن صلاة العرس تقتضي الطاعة من الزوج لزوجها فحوها ووضعوا في مكانها الحب والتعاون

ومنذ نحو ٣٠ سنة حين اعتلى دوارد السابع عرش أجداده ورأى في صلاة التتويج الانجليزية مايجرح عواطف البابا والطوائف الكاثوليكية عمد الى الاساقفة فطلب منهم تنقيح هذه الصلاة حتى توافق روح العصر وتعمل للوئام وتضع الحب والرحمة مكان البغض والانتقام . وقد استجاب الاساقفة لهذا الطلب الشريف

ويستفاد مما تقدم ان الامم الراقية تتطور ولا تبالي باصطناع البدع حتى في صلاتها وهي أقدس ما عندها تحول فيها وتبدل لكي توافق العصر الحاضر فيجب أن نعتبر نحن بذلك ونرضى بالبدع في الصناعة والزراعة واللباس والمسكن حتى تتفق معيشتنا في القرن العشرين مع أهل القرن العشرين . ويجب أن نذكر أنه لو كان كل انسان يلزم مسلك أبيه لما خرج الانسان من الغابة ولما عرف حضارة أو زراعة . فان الرقي يقتضي ابتداء البدع الجديدة والايمان بأن الخلف خير من السلف وان الابن يبدأ به في الاخلاق الفاضلة والعلم الصحيح والثقافة الواسعة . واذا كان لجدودنا إحسن قديمة فليس من واجبن أن نذكرها ونخلدها وانما الواجب أن ننساها أو تناساها ونعيش مع الناس . أجل ، مع جميع العالم بالحب والوئام كما هو مفهوم من التنقيحات التي وضع

الاساقفة الانجليز للصلاة لانه بهذا وحده يحيا العالم ويدخل في زمرة الامم المتمدنية نعمل لرفق العالم كله كما يعمل العالم لرفقنا بالمخترعات والمكتشفات التي نستعملها وليس لنا فيها فضل الاختراع أو الاكتشاف

مارى

في سنة ١٨٨٣ ماتت فتاة روسية تدعى ماري بشكير تسف وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها بعد أن أكل التدرن رثيها وبرزت أضالعا كالقفص الفارغ وللتدرن من الآلام البطيئة ما يبعث السأم فى النفس ويدها عن ضروب التمتع ويحبب اليها الموت ولكن ماري كانت بعكس ذلك تحب الحياة وتشتئى البقاء . وقد تركت فى مذاكرتها اليومية صورة قوية لهذا الجوع الذى كان يحثها على أن تلتهم العالم التهاماً وهذا العطش الذى كان يدفعها إلى أن تذوق حلو الحياة ومرها . وهى فى اشتهاها للبقاء لم تكن تخضع لشهوات الدنيا بل كانت تسمو وتشوف إلى أرفع ما فى هذا العالم من مطامع وأغراض

كتبت مرة فى مذكراتها تقول : « يبدو لى أنه ليس هناك أحد يستطيع أن يحب كل شىء كما أحبه — يحب الفنون الجميلة والموسيقى والرسم والكتب والاختلاط بالناس واللباس والترفيه أو التفريز والهدوء والضحك والدموع والحب والحزن والادعاء والتلج والشمس انى أحبها كلها وأعجب بها كلها وأحب أن أرى هذه الاشياء بل أمتلكها وأعاقها وأندمج فيها أموت فى طرب هذه اللذة (لاني لا بد أن أموت بعد سنتين أو بعد ثلاثين سنة) حتى أعرف سر هذا الختام بل سر هذه البداية »

وكتبت مرة أخرى تقول : « انى أحسد العلماء حتى أولئك المهزولين الذين يكسو وجوههم الشحوب والقبج »

وتصيح مرة أخرى فى مذكراتها حين تقول : « ما الزواج وولادة الاولاد؟ أليس الغسلات أنفسهم يقدرن على ذلك ؟ »

وهذه القطعة الاخيرة تدل على أن ماري قد احتقرت أشياء لم تكن دون ماتحب من حيث لذة الاختبار وبلوغ السعادة وربما كان احتقارها هذا علة كبرى للامس العظيم الذى كان يتملكه ويملا أحياناً قواها غضباً وحنقاً

وقد كان يتال أن الصحة ناج على رهوس الاصحاء لا يراه إلا المرضى . وكذلك يمكننا أن نقول من مثال ماري هذه ومن مثال باريون الذى سبق فذكرناه على هذه الصفحة أن الدنيا جيم

لا يرى جمالها الا من أوشكوا أن يغادروها . ففى كلتا الحالتين نرى أن باريون ومارى يتعلقان أشد التعلق بالحياة يريدان أن يستوعبا كل ما فيها من لذة أو متعة كما يريدان أن يختبرا خيرها وشرها وبقفا على كل ما يمكن علمه من علومها وآدابها وقوتها . وما ذلك الا لانهما عرفا أن المرض يوشك يقطع بينهما وبين هذه الدنيا فانكبوا عليها وانغمس فى درسها وفهمها

وما أحرانا ونحن بعد فى صحتنا ان نعرف لهذه الدنيا قيمتها فنقبل عليها وتمتع بها فندرس علومها ونسبح فى ارجائها ونستكنه أسرارها قبل أن يحملنا هذا التيار الجارف الذى يحمل جميع الاحياء الى محيط الأبدية . وانما يكون اقبالنا عليها ونحن بعد فى شبانا قبل أن تستولى الشيخوخة علينا وقبل أن تتكون لنا عادات تمنعنا من هذا الدرس والتمتع . ولكن يجب ألا ننسى أن التمتع ضروب عالية وسافلة . فمن الناس من يتمتعون بالنهم للطعام أو النوم بعد الظهر أو نحو ذلك من الملاذ التى كان باريون ومارى يترفعان عنها ويحذران ان الحياة أقصر من أن تنفق ساعاتها فى مثل هذه الملاذ الخسيسة . فان النوم يضعنا فى صف النبات من حيث الوعى بهذا العالم ويغيب أذهاننا التى هى أقوى أدوات تمتعنا فيجب لذلك أن نأخذ منه بأقل مقدار يكفى لصحتنا أما النهم فأليق بالحيوان منه للانسان .

وخلاصة القول اننا ما دمنا نعيش فى هذا العالم فالتنا يجب أن تتمتع به وأن نتأنق فى تمتعنا حتى لا نخرج منه الا وقد شبعنا بما فيه من اللذات السامية ووقفنا على ما يمكننا من أسرارها . وبعبارة أخرى يجب أن نحيا على الأرض لكى نعيش ونختبر ونتعلم لا لتقضى عليها حياتنا فى سبات الغفلة كأننا نوع من الأشجار

وكذلك يجب أن نحذر تلك الحياة الضئيلة التى يقصر المجهود فيها على تحصيل العيش والمبالغة فى الأثراء حتى يصبح صاحبها كأنه فرس العربى بينه وبين العالم غمامة نغم على عينيه فلا يرى إلا ما أمامه . فانما الحياة الوفيرة تلك الحياة التى يقول بها السيد المسيح تقتضى أن تتمتع بالنواحي العديدة التى تعرض لنا من هذه الدنيا . وهذه الناحية لا تنحصر فى تحصيل العيش

أعجوبة الطفولة

إذا قوبل الطفل بعجائب العالم كان أعجبها وأدعاها الى التأمل والاعتبار . فقد كان ابن سينا يعجب بالانسان ويقول ان العالم الاكبر قد انطوى فيه . وكان شكسبير يقول ان الطفل أبو الانسان . فإذا ضمنا القولين قلنا أن العالم أو الكون كله قد انطوى فى الطفل وإذا نظرنا الى الطفل من حيث انه اختراع للطبيعة ألفتناه من أغرب المخترعات . فنحن اذا

اخترنا آلات جديدة صنعناها كلها على غرار واحد كأنها أتومبيلات تخرج من مصانع فورد . ولكن الطبيعة تخرع الأطفال وكل منها على مثال نفسه لا نظير له . فأتت اذا نظرت الى مائة طفل فكأنك تنظر الى مائة اختراع جديد ليس واحد منها يشبه الآخر

وفي كل واحد من هؤلاء الأطفال قد انطوى تاريخ الانسان لا بل الاحياء كلها في الماضي . وأنت لو أدمنت الملاحظة والحس في استقراء حركاته وتنوع أصواته وبدوانه لرأيت بتكشف عن أطوار الانسان الماضية طوراً بعد طور . ولكنه ليس صحيفة مطوية للماضي فقط إذ لو كان كذلك لما استحق أن يسمى اختراعاً جديداً . كلا . فإمما هو اختراع جديد من حيث أنه صحيفة جديدة للمستقبل

فكل طفل يأتي الى هذا العالم بشيء جديد لم يكن له وجود من قبل زيادة على ما ورثه من أسلافه . فالحيوان القديم الذي كان أحد جدودنا المحترمين مضر في جسم الطفل وعواطفه . ولكن الفيلسوف أيضاً مضر في ذهنه

ومن هنا صعوبة تربية الطفل . فان العالم كله يحتفل الآن بمضى مائة سنة على وفاة رجل التربية المشهور يستألو تبي فيجب إذن أن نقول كلمة عن تربية الطفل

وصعوبة الكلام في هذا الموضوع هي لهذا الشيء الجديد في الطفل . لأنه لو كانت أطفالنا تخرج على غرارنا بلا زيادة لكان لنا الحق في أن نقسط معهم ونكسبهم كل آرائنا وننبههم الى ما عرفناه من خير وشر . ولكنهم شيء جديد في هذا العالم قد تطورت بهم الحياة طوراً جديداً وعبرتنا اليهم مرتبة صاعدة وتركتنا في الخلف

فتحن نقف بازاء الطفولة الجديدة موقف الجهل فكيف إذن نربي الأطفال ونكسبهم آرائنا واعتقاداتنا ؟ اتنا اذا فعلنا ذلك كان افتياتنا على الطبيعة عظيماً جداً لأننا نحاول بذلك أن نصوغ هذا الطفل الذي هو العالم الأكبر على غرارنا كأننا نحس غاية التطور وتاجه وكأن ليس في ابداع الطبيعة أحسن منا ولا أرقى وكأننا نعرف ما أضمرته الطبيعة لمستقبل الانسانية كلها في هذا الطفل فتتغلغل الى ضميرها ونحاول أن ننقح في أغراضها وغاياتها

كلا . فإمما التربية الحقيقية هي أن نقف من الطفل كما قال كوربتكين موقف التعجب فقط لا نمس أغراضه أو آروه الا بالاحتياط الشديد حتى ينشأ على طابع نفسه وعفو طبيعته . وإنما علينا فقط أن نغذوه كما نغذو الشجرة نهى لها الوسط الذي تبلغ فيه أعلى مقدار من نموها بدون أن نعوق غصونها بوضع الحواجز والعوائق

فلنهيء للطفل غذاءه بل غذائه : غذاء الجسم من الطعام السليم وغذاء الذهن من الثقافة الحسنة . ثم بعد ذلك نتركه لكي يختار جسمه وذهنه من هذين الغذاءين ما ينموان بهما ويزكوان

في نموها . وليس لنا بعد ذلك أن ندخل في أخلاقه ونقومها ولا في آرائه فنملها عليه ولا في اعتقاداته نغرسها في قلبه فان ذلك كله بمثابة وضع الحواجز لغصون الشجرة والاعتياض من عفو طبيعتها تكليفها شكلاً خاصاً لم تقصد اليه

ومن الجناية أن نقوم أخلاق الطفل لأنه ليس عندنا ما يثبت انه معوج يحتاج الى التقويم ولا من الانصاف أن نملي عليه رأياً قد يكون مضرراً في نفسه الجديدة ما هو أصوب منه وأسد وليس من الحق أن نغرس فيه عقيدة قد يأتي هو بخير منها . فواجبنا إذن أن نتركه ينمو حراً نروده بما يشتهي من غذاء صحيح سليم نعرض له ثقافة الأمم كلها يختار منها ما يشاء أما العقائد والآراء فيجب أن يترك فيها حراً حتى يأتي فيهما بالجديد فتطور روح الانسان بذلك كما يتطور جسمه

ويجب أن تذكر اننا مهما حاولنا تنشئة الطفل في حرية الرأي والعقيدة فانه سيتلبس بحكم وسطه ولغته وثقافته بآراء الغير وعقائدهم فالجديد فيه سيكون مع ذلك قليلاً . ولكن هذا القليل ثمين جداً اذا نظرنا اليه في ضوء التطور فان العالم لا يتقدم بما يرثه الخلف عن السلف بل بما يحدده الخلف على السلف ويرتقى به عليه

فالطفل هو العالم الاكبر فلنحذر إذن من أن نفتات على هذا العالم الاكبر بأن نملي عليه طريق تطوره ورقية

فضل الجراءة

قرأت في إحدى الصحف ان الذين قتلهم الطيارات منذ الهدنة الى الآن لا يقلون عن ألف نفس . وهذا عدد عظيم ولكن الأمم العظمى لا تكف مع ذلك عن انشاء الطيارات ولبعضها وزارات خاصة بالطيران وهذا وزير الطيران الانجليزي قد قام هو وزوجته برحلة جوية من انجلترا الى الهند وعاد منها الى بلاده فأكبرت فعله جميع الصحف

والناس في هذه الدنيا اثنان . واحد يخاف — ويخاف جداً — فيتقي المخاطر بل شبه المخاطر فتراه اذا أوشك أن يموت وقف أمواله على أبنائه اطمئناناً عليهم واحتياطاً لهم حتى لا يبدوا ما جمع . وواحد يخاطر لا يرى معنى للحياة الا مع الاقدام والجرأة فهو يركب الطيارات ويرتفع بها فوق السحاب

والناس بعبارة أخرى أمتان : أمة تنشئ وزارة أوقاف خوفاً من أخطار الحياة على أبنائها وأمة تنشئ وزارة طيران حباً في أخطار الحياة . وعند الاولى لا يموت أحد من الاوقاف بل

يعيشون كلهم عيشة طويلة ولكنها وضيفة ضئيلة . وعند الثانية يموت ألف نفس ولكنهم يرون الدنيا من فوق السحاب ويعيشون عيشة قصيرة وفيرة . ويعلمون مجد الانسان بالاختراع والجرأة ونقول بعبارة أخرى ان الانجليز ينشئون وزارة لركوب المخاطر ونحن ننشئ وزارة لكي نتجنب بها شبه المخاطر . فأينا أعرف بحقيقة الحياة نحن أم الانجليز وأينا يجرى على نواميسها ؟

ان في القاهرة على بضع خطوات من إدارة هذه المجلة متحفاً جيولوجياً للحيوانات التي كانت تعيش في مصر ثم انقرضت منها . وهناك يرى الزائر أحاقير هذه الحيوانات وعظامها . وهو اذا عجب فانما يعجب لجرأة الطبيعة التي لا تتحاط ولا تحذر بل تغامر وتخطر في سبيل اختراع الانواع الجديدة من النبات والحيوان . فالصحف تذكر ألفاً قتلهم الطيارات ولكن يجب أن نعرف انه قد مات عشرة أمثالهم منذ اختراع الطيران الى الآن . ولكنهم بمغامرتهم التي أودت بحياتهم فتحوا مملكة بل ملكوتاً جديداً للانسان وغزوا السماء وجعلوا حياة الناس وفيرة المتع والملاذ العليا . والطبيعة تغامر وتخطر أيضاً في سبيل الاختراع ، وقد انقرضت في مغامراتها هذه عشرات الآلاف من الحيوان والنبات . ولكنها لولا هذه المغامرات لما نشأت أنواع جديدة بل لما نشأ الانسان نفسه . فالطبيعة لا تعرف الوقف ولا تحبس خيراتها على أحد الانواع لكي يمشي مهما طراً عليه من فساد بل هي تعمل للمخاطرة والمزاحمة وتبذل العاجز ولا تبقى غير الكفاة القادرين . وما أحرانا نحن أيضاً أن نجرى على سنن الطبيعة فلا نحكي العاجز اذا كان لا يحكي نفسه . وبعد فأيهما أشرف في نظرك أيها القاري . وأيهما أنفع للانسانية : أولئك المغامرون المخاطرون في سبيل الرقي الانساني يغزون له السماء ويهلكون في ذلك . أم أولئك الوداعون يهناون بالعيش الضنين من وقف حبسه عليهم آباؤهم وجدودهم ويعيشون بذلك العمر الطويل

لو كان الغرض من الحياة الاطمئنان والدعة لكانت وزارة الاوقاف أنفع للانسانية من وزارة الطيران . ولكن الحياة بطبيعتها مغامرة مخاطرة لا تبالي بمن يهلك في سبيل غايتها . فنحن يجب اذن أن نتمشى ونواميس هذه الحياة فنحيط ونقتحم في ميدان الافكار . وما أخرجنا الى الاقتحام في ميدان الافكار . وهذا الاقتحام نفسه قد يجرنا الى الخطأ ولكن خيراً لنا أن نخطئ ثم نصلح أخطأنا من أن نركد فلا نفكر ولا نحاطر . وقدما قال هكسلي : « قلما يبلغ الحقيقة من لا يرضون بتجاوز الحقيقة » وهكسلي من الذين صاغوا الفكر الانساني في القرن التاسع عشر وكان عاملاً كبيراً في تطوره بهدايته الى حقائق جديدة . وهو بعبارة هذه يعني ان من لا يتجرأ على التفكير ويخشى الشطط لا يقتحم ولا يخاطر فانه لن يهتدى الى الحقيقة . وهذا حق ، فان جميع الحقائق العلمية الراسخة الآن كانت في بدايتها ظنوناً وفروضاً تتنازع الفكر الانساني مع ظنون وفروض أخرى وكان كثير منها غاية في الشطط ولكنها تمحصت بالبحث والتحرير واستقر منها المفيد . فلتجرأ ولتقتحم ولا نجعل السلامة ديدناً بل ليكن السمو والرقي غايتنا

التفائل والتشاؤم

اذا نحن أهملنا من يستحق الاهمال وهو الرجل القانع بحاله الراضى بمعيشته فأننا نجدنا في هذا العالم بازاء رجائين أحدهما متفائل يرى الخير أو يرجوه وآخر متشاؤم يرى الشر أو يتوقعه وأنت اذا راجعت هذا المتشاؤم وناقشته ألفيته متفائلاً وان لبس السواد له وجه عابس ولكن نفسه تبسم لانه هو في الواقع لا يتشاؤم إلا لانه يطمع ويرجو ويرى في الامكان أفضل مما هو كائن ولكنه يرى من العوائق ما يحول دون تحقق الرجاء . فهو يغضب ويعبس لا لأن الطبيعة البشرية سيئة قد تأصل فيها السوء اذ هي لو كانت كذلك لما كان ثم مجال للتشاؤم أو الغضب فنحن مثلاً لا نغضب من الرصاص الذي لا يستحيل ذهباً ، وانما هو يغضب لانه يرجو التحسن فيجد عوائق تمنع هذا التحسن

فلمتشائم متفائل من حيث لا يدري تتشوف نفسه الى الرقي والعلا وتشوفها هذا دليل على ما في النفس البشرية من الخير والرجاء لأن نفسه هي مع تشاؤمه نفس انسان وما فيه من رجاء وتسام نحو الرقي يرجعان الى ما في هذه الطبيعة البشرية التي يتشاؤم هو بها عندما يفكر في مستقبلها ويرجو من خير ورجاء

ومعنى ذلك ان المتشاؤم والمتفائل يرجوان الخير ويتساميان الى الرقي بفرق واحد وهو ان الاول يرى ان العوائق كثيرة تمنع تحقق الرجاء والثاني يرى ان هذه العوائق يمكن تمهيدها وهذا الرجاء وهذا التسامى كلاهما برهان على سمو الطبيعة البشرية وانها غير قابلة بحالها بل ترمي على الدوام الى ما هو أسمى منها تريد أن تنسلخ من ثوبها القديم راجية أن تتجدد في ثوب جديد . وهذا المتشاؤم الذي يعبس للدنيا ويسبي الظن بالانسان يحسن به الظن أيضاً من حيث لا يدري لانه ينتظر أكثر مما يراه منه . ومعنى ذلك كله ان الرقي في الانسان هو حقيقة منشودة ان لم تكن حقيقة واقعة . لان الطبيعة لم تغرس هذا الرجاء في قلوبنا عبثاً وانما غرسته لكي تدفعنا على الدوام الى التجدد والتطور . وما هذه القناعة التي يصاب بها بعضنا إلا نوع من المرض يشبه تلك الراحة التي تلي الاعياء الشديد أو تسبق الموت الأخير . فهي حال غير طبيعية في الانسان قد تصاب بها أفراد أو أمم وعندئذ تحق عليهم كلمة الفناء

فأما حال الانسان الطبيعية فهي ذلك الرجاء الذي يتوهج بالصحة والسرور والنشاط أو ذلك الاستياء المقدس الذي يدعو صاحبه الى الغضب وكرهية الواقع مع محاولة تحقيق الاماني والأحلام

ونقول بعبارة أخرى أنا إذا استكنها روحنا وبلغنا منها اللباب نجد أننا أبعد ما نكون عن الجمود وأشوق ما نكون إلى الرفعة والسمو وإن تاريخنا في المستقبل لن يختلف عن تاريخنا في الماضي من التطور من أدنى إلى أعلى . وذلك لأن في كل منا غريزة للرجاء لا تقل عن أية غريزة أخرى قوة ودفعاً للنشاط . وفي كل منا أيضاً شهوة للطور لا تقل عن أية شهوة أخرى بل يبالغ من قوتها أحياناً أنها تدفعنا إلى التضحية بأنفسنا أو إلى مكابدة العذاب لأجل تحقيق غاية قصدت إليها الحياة عن سبيلنا

وهذه المناسبة أذكر قولين لعظيمين من عظماء البشر أحدهما بولس الرسول المسيحي المشهور . فقد وصف هذا الرجل الأمم الوثنية التي زارها بأنها لا رجاء عندها وكان بالطبع يتيسر رجاءها بما في نفسه من الرجاء الكبير للمسيحية وهي بعد في قوتها التي تغلبت بها على هؤلاء الوثنيين اليائسين . والثاني هو برنارد شو الأديب الإنجليزي المعروف إذ يقول إن الدراما الصحيحة لا يمكن أن تكون مأساة لأن في الحياة من الرجاء ما يجعل كل مأساة سخيفة بعض السخف ولذلك فالتسا لا تطيق رؤية المأساة البالغة إلا في صورة « أوبرا » أي دراما موسيقية وذلك لكي يغفل ذهننا عما فيها من سخافة بما فيها من طرب الموسيقى . فكيف إذن تشاهم بالحياة وفي نفوسنا غريزة الرجاء ؟

هل نحن أوروبيون ؟

نما يؤسف له أكبر الأسف أن الجامعة المصرية لم تستطع اغراء الأستاذ اليوت سمث للقدوم إلى مصر والتدريس بالجامعة . فقد بخلت عليه حكومتنا بخمسة مائة جنيه مع أن مثل هذا الرجل لا يرضى عليه بمال وخاصة بالنسبة اليانحن المصريين . فالتنا أمة نحتاج إلى الدعاية في أوروبا لتحسين سمعتنا عند الأوروبيين ورفع مقامنا في عيونهم وليس في العالم رجل رفع من شأننا وجعل لنا المقام الأول في التاريخ مثل اليوت سمث

كال اليوت سمث قبل عشرين سنة أستاذاً في مدرسة الطب بقصر العيني وكان يدرس الجامع المصرية القديمة ويقابلها بالجامع الحديثة في مصر وأوروبا وآسيا ، وكان التشرريح درسه الأصلي ولكن هوام كان في المصولوجية ينقب عن الآثار ويبحث عن جماجم أسلافنا ويقيس رهوس الفراغة ويستقرى أدوات مصر القديمة وآلاتها . وفي أحد الايام حوالي سنة ١٩٢٠ اتعم بذهنة خاطر غريب . وهو ان المصريين أول من عرفوا الزراعة والحضارة في العالم وان الآثار الحجرية التي توجد الآن بالجلترا أو بالهند أو بأمریکا هي من آثارهم بالذات أو بالثقافة المنقولة عنهم

وهذا الخاطر الغريب قد صار علماً يتباحثه العلماء في جميع أقطار الأرض المتمدية وصارت له كتب ضخمة ومختصرة قرأت أنا وحدي منها إلى الآن ثلاثة كتب وسأول إلى القراءة في هذا الموضوع إلى يوم أموت . وذلك لأنني أجد في هذه الكتب علماً صحيحاً وكشفاً عظيماً لتاريخ الانسان فقط بل لأنني أشعر فيه من الارتياح بل الزهو ما يجعلني أنبسط لقراءة هذه الكتب الجديدة وأهش لهذه النظريات الرفيعة

وكيف لا أزهى ، بل كيف لا تزهى أنت أيها القارىء المصرى عندما تعرف أن الاقدار قد اصطفنا من بين أمم العالم كله لكي ننشر على الناس مبادئ الحضارة ونخرج الانسان من بدو الغابة والصحراء إلى الزراعة والصناعة ونخطط أول المدن ونرسم أول الحكومات ونخلق أول الآلهة ونستنبط النحاس والذهب ونحت الحجر وننشئ علمي الكيمياء والفلك ونضع للناس — أجل لجميع الناس — شرائع الزواج ؟

هذا ما يقرره الأستاذ اليوت سمث هو وطائفة كبيرة الآن من العلماء وهذه النظرية ترفع من مقامنا في عيون العلماء الذين كانوا يعتقدون اننا شرقيون منحطون لا نتفع من العالم ولا نفعه . ثم هي مع ذلك نظرية صحيحة يدعمها الاستقراء ويقول بها غير المصريين من العلماء

ولكن الأستاذ اليوت سمث يزيدنا وجهة ومقاماً للتاريخ من حيث أنه يقول ان المصريين كانوا شعباً لا يختلف من حيث بنية الجسم واللون من الشعوب التي كانت تعاصره في ذلك الوقت في انجلترا وأسبانيا وإيطاليا . وهو يقول ذلك بناء على مشاهداته عندما قابل رهوس المصريين القدماء برهوس قدماء الأوروبيين . وإذا عرفت أن بعض العلماء يعتقد أن أسلافنا كانوا زنجياً أو شبيهين بهم ، وان البعض أيضاً يعتقد أنهم يمتون إلى أصل مغولى أدركت قيمة هذا البحث الجديد في الدعاية لمصر

والخلاصة ان العلماء يتجهون إلى القول بأن مصر هي التي أفشت الحضارة في العالم وأن المصريين القدماء لم يكونوا أمة شرقية ، بل كانوا أمة غربية الدم والمزاج . وان غريبتها هذه هي التي يسرت على أوروبا اصطناع حضارة المصريين لأن الأوروبيين وجدوا أن القائمين بهذه الحضارة يمتون إليهم بنسب الدم وقرابة العصب فلم يتوجسوا شراً من بدع المصريين بل نقلوها واصطنعوها وارتقوا بها

والآن أيها القارىء أسألك : اذا كانت الأقدار قد قيضت لآبائنا أن يثبوا بالانسان إلى نور الحضارة فهل يليق بنا نحن أبناءهم ان نركد فلا نبديع ولا نثب ؟

كلا . اتنا لن نكون حفدة أولئك الجذود العظام مالم نقف في مقدمة الأمم نعمل لخير العالم ،

كما عملوا تنطوى على النية الحسنة التي انطووا عليها ونبشر بحضارة جديدة ونغامر من أجل رقى الانسان نركب الطائرات ونخترع فيها ونلتحق بتلك الشعوب التي خرج منها هؤلاء الجدود فلبس لباسهم ونسير معهم ونشقف بثقتهم

اغانينا

أليق الاوصاف للاغاني التي نغنيها وأكثرها وروداً على ألسنة الكتاب حين يعتنون أحد المغنين بالبراعة والتبريز وصفهم أصواته بأنها « مشجية » . ولم يكن من العيب أو السهو إطلاق هذا النعت على أغانيها لأنها على الدوام كما يدل معنى الشجى بحزنة . وهذا الحزن يبدو في هذه الألحان المملوطة التي تشبه البكاء والعيول بحيث لو سمعها غريب عن لغتنا لاعتقد أننا نندب ولا نغنى . وقل مثل ذلك أيضاً في الحان الموسيقى ونغماتها فانها تتساوى وأغانيها إذ هي مشجية تستثير فينا الحزن وتستخفنا الى الطرب الذي يتولد في النفس من الاسى والشقاء . ومصدق كلامنا يتضح إذا عرفنا أن بعض المغنيين إذا غنى وكذلك بعض الناس إذا سمعه ترقق الدمع في أعينهم وانكسرت قلوبهم وصاحوا جميعاً « آه » وهل يتأوه الانسان الا من وجع وحزن؟ . وهذا القول يتضح أكثر إذا قابلنا أغانينا بأغاني الاوربيين وقارنا حالة النفس المصرية عقب الغناء أو الموسيقى بحالة النفس الاوربية . فالأغاني الاوربية تهيج النفس وتستخفها الى طرب الفرح حتى يشعر المستمع أن أعصابه تنفزز ويود لو يقف ويرقص . أما أغانينا فتستخفنا الى طرب الحزن حتى لنود أن نبكي ونشعر كأننا نأسف على ما فات ونخشى ما هو آت

وليس شيء في العالم يدل على حالة الأمة النفسية من أغانيها وموسيقاها لان الألحان تعبر عن النيات المستكنة في النفس وهي تنبع منها عفواً كما ينبع منها البكاء أو الضحك . وإنما غلب الحزن و « الشجى » على أغانيها لهذا الظلم الطويل الذي قاسيناه في أكثر من ألف سنة مضت حتى أصبحت نجوانا الى الله والدهر نجوى المحزون اليأس . وانه لما يدعو الى التأمل ولا يخرج عن موضوعنا أن يتلبس « الدهر » الذي ليس في معناه في الاصل سوى الزمن بمعاني السكوارث والنكبات أجل . لقد قاسينا عذاب الولاة والحكام الجائرين في القرون الماضية حتى صرنا إذا أردنا أن نشدو ونغنى بكينا ونندبنا . لان العالم يبدى لنا قائماً إذا خلونا الى أنفسنا انطلقت هذه الانفس التعيسة بالبكاء والندب وتجاوب القيثارة والمزمار صدى أحزاننا فردها الينا الحاناً نكاد نحس فيها بنشيج الباكي الولهان وأهات المومع المحزون . ولكننا نرى الآن أنه قد آن لنا أن نغير أغانينا والحنان . وذلك لان نفوسنا التي كان يرهقها وأحياناً يزهقها ظلم المالك العبيد من اكراد وأتراك قد

تحررت وازدهى العالم في وجهنا بعد القتام . فجدربنا أن تكون أغانيها مفرحة مبهجة تملأ نفوسنا تفاؤلاً ونشاطاً وتجعل شباننا يتفزز الى العمل والأمل بدلا من هذه الاغاني والالحان الحاضرة التي تكرب نفوسنا وتكبثها وتشل فينا الامل وتحثنا على البكاء

ولسنا نغنى بذلك أن تكون أغانينا مقطوعات مضحكة وإنما نغنى أن تكون طبق الحياة فيها المحزن والمضحك كما أن فيها الألم والفرح . لانه إذا لم تكن الحياة مهزلة فهي ليست أيضاً مأساة وإنما هي درامة عادية تختلف فيها الوقائع والعواطف . ولكن كما أن المريض يجب أن يفكر في الامل أكثر عما يفكر في الألم كذلك يجب أن تشرب أغانينا وألحاننا الموسيقية روح التفاؤل والبهجة والرغبة في الرقى . ولا يكون ذلك بتأليف القصائد التي كانت يغنيها مغنونا الى عهد قريب في مدح عبد الحميد وعباس وفي تلحين القصائد القديمة لابن الفارض وأبي فراس . وإنما نريد من شعرائنا أن يؤلفوا القصائد من الكلام المصري العذب الذي هو وليد ألسنتنا وقلوبنا لامن الكلام الجاف الذي دونه الزمخشري في معجمه قبل ألف سنة . ولقد كان كونفوشيوس يقول : لست أبالي بمن يسن للناس شرائعهم بذلك أن لا لاغاني تأثيراً في النفس قد يكون أبلغ من تأثير الشرائع . وذلك لان الاغنية تخرج من المكنى الحناً يتبطن النفس وتنزل كلماتها منها منزلة الطبع

في الادب العالمي

ساء بعضهم ما قلته على هذه الصفحة من أني أعزو تأخرنا الى اننا ما زلنا نعيش في عصر الزراعة والأدب مع ان العالم الراقى يعيش الآن في عصر الصناعة والعلم . وتوهم من قولي أني أحض الناس على أن يهجروا الادب وألا يتدارس سوى العلوم . وقصر هذه الصفحة يدعوني أحياناً الى الاقتضاب فلا أتوسع في الشرح ويصعب عندئذ توقي الخلل . ولذلك أراي محتاجاً الى العودة الى هذا الموضوع بشيء من الايضاح

فهذا الادب الذي تدارسه الآن في مصر هو أدب منحنط لا ينهض بنا لانه لا يمس حياتنا ، وهذا أيضاً مع استثناء القليل منه الذي يحاول فيه أدباؤنا درس الحياة المصرية . وذلك لأن الادب لا يخرج عن أن يكون نقداً للحياة ، فإذا هجر الاديب الحياة وجرى على قواعد السلف أصبح أدبه كالعدم ، وهذا كان حال الفنون في عصر البيزنطيين ويمكنك أن ترى أثر هذه القواعد إذا زرت كنيسة قبطية في القاهرة حيث ترى الصور البيزنطية على جدرانها تجرى على قواعد مأثورة فترى الاجسام جامدة لا تلين للعاطفة ولا تؤديها . ويقابل هذا الجمود في رسم الصور عند البيزنطيين جمود شعراء العرب ومنشئهم في الشعر والنثر إذ جروا على قواعد مأثورة وهجروا الحياة فجمد

الادب العربي جمود الفن البيزنطى . ولهذا السبب لا تجد للقصة في النثر أو للملحمة في الشعر ولا للدرامة ذكرآ في الادب العربي لانه كما قلنا قد هجر الحياة . والقصة والملحمة والدرامة كلها تتعلق بالحياة . وجرينا نحن على مأثور هذا الادب فصار أدباؤنا في واد والامة في واد بحيث انه عند ما هبت الامة في سنة ١٩١٩ فوجىء الادباء بيقظتها فاذا بالآية معكوسة فبدلا من أن يذبح الادباء هذه الامة اذا بها هي تنبهم . ومهما قيل في ثورة ١٩١٩ فان الحق الذى لا ينكر ان أدباءنا لا فضل لهم فيها . وعلة ذلك كما قلنا ان أدبهم كان منحطاً لا يمس الحياة وبالتالي لا يوقظ الامة

هذه واحدة . أما الثانية فهي ان الادب الحديث قد أصبح أدباً علياً يعتمد على علم النفس والعمران . فهو بذلك علم من العلوم قد ترخص فيه الكاتب الى استعمال لغة العامة بدلا من أن يستعمل لغة العلم . ولكن طريقته هي طريقة العلوم وغايته غايتها . وهذا مثلاً هو الادب الروسى الذى يقتدى به في ذقة أوربا ويحاول المؤلفون أن يحدوا مثاله ليس له ميزة سوى انه أدب علمي . فهذا مثلاً دستوفسكى يكتب « قصة الأبله » أو « الجريمة والعقاب » كأنه طبيب شرعى يكتب تقريراً عن أحد المجانين . وهذا أيضاً تورجيف قد مارس الطب قبل أن يمارس الفن القصصى وهذا أيضاً ولز القصصى الانجائزى المعروف له كتاب في تشرىح الارنب . وهذا ياربيون صاحب صاحب اليوميات عالم في التاريخ الطبيعى . بل دباه الخيال أنفسهم مثل جول فرن وكوران دويل وجاك لندن يبنون خيالهم على قواعد العلم

فالادب الحديث ينزع الى العلم وهو من هذه الوجهة لا يقل عن العلم شرفاً أو امتاعاً أو منفعة وان كان مع ذلك يتوسل بالعبارة السهلة ولوغ الجماهير دون العلم الذى يقنع بلغة الاختصاصيين ويقتصر عليهم

فاذا أنا تأسفت على أن نهضتنا أدبية زراعية وليست صناعية علمية كما هي في أوروبا الآن فانما أعنى بذلك ان أدبنا ليس علمياً بل هو أدب تقليدى جامد يجرى على قواعد ومحفوظات لا تتحرى بحث الحياة ولا غاية له وان أدباءنا يسرون في أدبهم مثل منادرة الصين الذين يستظهرون القديم ويحترونه ثم يقبضونه على الناس . وأنا مضطر هنا الى التعميم المخل لأن المكان لا يتسع للشرح فكان يجب أن أقول مثلاً ان تيمور يمس الحياة المصرية وان طه حسين يجرى على أصول عليه في اجائنه وان عندنا غيرها قلة تحمد طريقتهم ولكن هل هذا يمتنع من أن أقول ان الأمم الهمجية قد تعلمت الزراعة وانها ستراحمنا في أسواق العالم لقلة ايات عمالها وقلة أجورهم واننا لذلك يجب أن نعلم الى الصناعة الآلية حتى نثرى ونستعمر قطرنا هذا ؟ ثم هل هذا يمتنع من أن أقول انه يجب أن نهجر الادب كما يمارس في أكثره الآن من حيث قيامه على جودة العبارة وحلاوة اللفظ واجترار القدماء وادمان التفكير في ابن الرومى وابى تمام نكتب بلغتهم ونرطنها رطانتهم ؟

كلا انى أعتقد انه يجب أن نعمل للادب ما عمله لطفى السيد للوطنية . فقد كانت وطنيتنا شائعة أيام مصطفى كامل في العالم الاسلامى فحدها لطفى السيد في حدود التخوم المصرية . وكذلك يجب اخراج الادب المصرى من الشيوعية العربية وقصره على الحياة المصرية في القرن العشرين

تربية الفتاة المصرية

منظر الفتاة المصرية وهي في ذهابها الى المدرسة أو إيابها منها من أجل المناظر الطبيعية . فهناك ترى الشباب مقروناً الى الحياة والعهاف يزينه التساق وسداجة التلدة لا يشوبها أدنى هم من هموم المعاش .

ونحن المصريين ليس شيء في العالم نتم له ونفكر فيه ونرجونه الخير مثلما نتم للمرأة المصرية ونفكر في شأنها ونرجو منها الخير لبلادنا في المستقبل . ولذلك فأهيج المناظر ادينا هو منظر الفتاة المتعلمة التي ترفع عنا عار الجهل وتؤسس لنا بيوتاً تجعلنا ننسى في جمالها ما للقهوات والحانات من سلى . فلزمها مغتبطين نأثس فيها بحديث الزوجة المستتيرة وتغذوا أعيننا وقلوبنا بمرأى الأطفال النظار والاثاث المرتب

وانما نعلق هذا الرجا على المرأة المصرية لاننا نجد فيها سبيل السعادة والحضارة معاً . فهو لاء الأوربيون يسبقونها في أشياء كثيرة ولكن أعظم ما يسبقوننا فيه عنايتهم بالمرأة . فقد رفعوها الى مستواهم وعلوهم واكسبوها جميع الحقوق الدستورية والمدنية فاستجابت هي لهذه العناية وأصبحت رفيقة الرجل وزميلته في بيته وجعلت هذا البيت جنة تغريه بالاقامة فيه وذلك في حين اننا لا نقيم بيوتنا إلا سواد الليل وأوقات الطعام كأنها فنادق أو مطاعم . ثم نحن نرى كثرة الوفيات بين الأطفال عند الأوربيين فنعزو ذلك الى سوء التعليم أو عدم التعليم . ثم هذا التفاوت بين تربية الشاب المصرى التي لا تقل الآن عن تربية الشاب الاوربى وتربية المرأة التي لا تختلف أحياناً عن تربية جدتها قد يكون أحياناً كثيرة مثاراً للخلاف بين الزوجين . لأن الزوجة تعاشر زوجها وتحادثه فاذا لم يتفقا في الآذواق والمشارب والاخلاق ساءت بينهما العشرة . وهذا الاتفاق لن يكون حتى تعلم المرأة المصرية وترتفع الى مستوى زوجها

ومن هنا ذلك الفرح الذى نشعر به كلما سمعنا بافتتاح مدرسة للبنات أو رأينا فتاة مصرية متعلمة . ومن هنا أيضاً ذلك الحب الذى نشعر به الآن بعد جحود طويل لقاسم امين ، فقد فتح أعيننا وقصرنا على أن نرى العالم كما هو ووضع أصبعه على الجرح عندما عزا تأخرنا الى جهل المرأة المصرية وحجابها .

فتحن كلنا الآن بفضل قاسم امين نرغب في تحرير المرأة وتعليمها . ونحن كلنا الآن نعرف انه كان على صواب في دعوته وان الذين قاوموه أو شتموه مثل الحديوي ومصطفى كامل ووجدى وغيرهم كانوا على خطأ . ونحن كلنا الآن نفرح بانتشار المدارس ونأمل في اليوم القريب حين نرى في مصر مثلاً نرى في أوروبا القاضيات والطبيبات والمحاميات وربات البيوت المتعلات ولكن تربية الفتاة المصرية يجب أن نسير فيها بحذر ونرى منها الى غاية هي أن تكون فتاة متحضرة مثقفة تعيش في بيتها عيشة النظافة العلمية حتى لا يموت واحد من أولادها . وتستطيع أن تجارى زوجها في تجديد ثقافته حتى لا يحدث التفاوت شقافاً . بل تستطيع اذا مات وكان صاحب متجر ان تدير متجره أو صاحب أرض أن تزرعها بدون حاجة الى وصى يأكل أموالها وأموال أيتامها . فهي في حاجة لذلك الى تربية حديثة أبعد ما تكون عما تناله الآن في المدارس الأولية . فان آراء لنا شرقية يوهننا كبرياؤنا الوطنى انه يجب علينا أن نحفظ بها في المدارس ولو تحققنا خطأها وهذا غلط فاحش يجب أن نكف عنه . ولكن يجب أيضاً أن نكف عن ذلك السخف الذى يدعونا الى تعليم الفتيات قشور الفرنسية والانجليزية .

وشر ما في تربية الفتاة المصرية ذلك الزهو الكاذب الذى يدعو الآباء الى تعليم فتياتهن مبادئ اللغة الانجليزية أو الفرنسية لان الرطانة ببضع كلمات تدل كما قلنا على السخف والزهو لاعلى التربية وانى واحد من الذين عالجوا تعلم اللغات وأعرف من اختارى الشخصى أن المعرفة اللازمة لقراءة كتاب فى الانجليزية لا تحتاج الى أقل من ٥ سنوات فى الدرس الجدى المتواصل . وأية فائدة تنالها الفتاة من اللغة اذا لم تستطع قراءة كتاب فيها

ان أول واجب على الفتاة المصرية أن تعرف لغتها معرفة جيدة وتعرف الى ذلك صناعة الطبخ وشيئا من الثقافة العامة هذا اذا كانت من طبقة العمال أما اذا كانت من احدى الطبقتين العليا أو الوسطى فانه يجب أن تنزل على قدم المساواة التامة مع الفتى

الحياة العامة

لن يكون الانسان سعيداً حتى تكون حياته كاملة . ولكن هذه الحياة لن تكون كاملة حتى يستوفى الانسان جميع نواحي النشاط التى فيها . ففي الحياة أثره واثير وجراة وحيطة وذهن وعواطف . فاذا عشنا بواحدة من هذه النواحي دون الاخرى اختل التوازن فى كفايات الجسم فنشعر بالنقص يبدو لنا فى حزن نفسانى عميق غامض يؤثر عليه الموت أحيانا . أو هو يبدو لنا فى ميل مفرط نحو الناحية المقابلة

فثلاً قد ترى انساناً قضى حياته فى الاستسلام للعواطف يدمن الشراب والغرام . فتراه فى آخر حياته قد ركب حزن عميق قد يبعثه الى النسك والتعبد بل الرهبانية . وقد أثبتت الحرب الكبرى انه يعقب التهور عند بعض الجنود حيلة شديدة تبدو هيئة الرعب عند سماع طلقة العيار أو أزيز الطائرة . وحيانا ترى الرجل الذى أمضى حياته فى اقتناء الاموال يعود فى آخر عمره الى السخاء فى البريوس تريخ الى ذلك لأن الاثرة القديمة فى نفسه تحتاج الى ايثار بعيد اليه توازنه . وقد تبقى بصيرته مظلمة فلا يهتدى الى علاج نفسه بالاثير ويبقى حزينا مغموما ينظر الى الدنيا وقد سقط فى يده منها

ونحن كلنا ذلك الرجل يجب أن ننظر الى عناصر نفوسنا ونغذوها كلها على السواء . فاذا كنا نستمرى الاثرة ونعمل بجد لى تثرى ونزداد قوة وجاها فالتا يجب أن نذكر الاثير ونعمل له بالبر والمعونة لمن حولنا من الناس لأننا مهما ظننا أننا نحب انفسنا فان حب الغير والنزعة الى الخدمة طبعيان ايضا فى نفوسنا . فاذا نحن اشبعنا احدى العاطفتين حتى البشمة فقد أجعنا الاخرى . وعندئذ يختل التوازن فى نفوسنا ونشعر بالغم والحزن لان ناحية من نواحي نفوسنا قد اجيعت

وكذلك رجل الذهن قد يجمع عواطفه فتطمو به لحاة وقد يكون فى طموها خراب نفسه لانه لا يستطيع عندئذ ان يتحمل صدمتها كلها وكذلك ايضا الرجل العادى يقضى حياته فى هدوء يمارس اليوم عمل الامس فلا مجال عنده للجراة أو الاختراع . فهذا أيضاً قد يشعر بتوازنه يختل لان الجراة والاختراع من خواص الحياة

وعبرة ذلك كله اننا يجب أن نفهم من « الاعتدال » ما كان يفهمه الاغريق القدماء من هذه اللفظة . وهو أن نغذى جميع عناصر نفوسنا فلا نترك ناحية منها فى بشمة وناحية أخرى فى جوع . ويجب ان نربى أولادنا على ذلك فاذا كنا نغذى عقولهم بالحساب والهندسة وجب ألا نهمل عواطفهم من الموسيقى والرقص والرسم . واذا كنا نعودهم حب انفسهم فيجب أن نعودهم أيضاً حب الآخرين

واذا نحن استقرينا احوال السعداء من الناس الفيناهم كما ذكرنا يحرون على النظر فى عناصر نفوسهم ويغذونها كلها . فقد كان جيته رجلاً كاملاً حتى لقد صاح نابليون عند أول رؤيته له بقوله « هاكم رجلاً » وكان جيته هذا شاعراً يؤلف الشعر والقصص ولكنه كان الى جانب ذلك يبحث فى العلوم بل يكتشف فيها وكان يعيش وهو فوق الثمانين

وكان نيتشه رجل أثره يكره الاثير فعاش طول عمره حزينا غاضباً . وكان الغزالى رجل اثار لا يبالى بنفسه فعاش أيضاً حزينا حتى هجر الدنيا فى أواخر ايامه وعاش فيها يشبه الرهبانية . وكان أسعد حياتهما لو اعتدل كل منهما ووقف بين الاثرة و الاثير

فشخصية كل انسان لاتكمل حتى يغذو نواحيها كلها . واكبر مايتقصنا في مصر ان جانب العواطف عندنا في جوع دائم أو هو محروم من الغذاء . الصالح ولذلك يعتمد الى أى غذاء ويرضى به . فلا رقص عندنا ولا موسيقى ولا شعر . وكل ما عندنا من هذه الاشياء سخيف ولذلك مانعتاض منها اشياء تافهة بل احياناً مؤذية

العصر الصناعي

من كان يظن قبل مائة سنة أن الحرير سيصنع من الخشب وأنه سيتغلب على الحرير الذي تصنعه دودة القز ؟

ومن كان يظن قبل مائة سنة أن النيل الصناعي سيتغلب على النيل النباتي في صيغ الانسجة ؟ ومن كان يظن قبل مائتي سنة أن القطار والبخرة سيقومان مقام الجواد على البرد والسفينة الشراعية في البحر للقل والسفر ؟ ومن كان يظن قبل ثلاثين سنة أن الاتومبيل والطيارة ستقلان الناس الى أبعد المسافات حتى نستغنى بهما عن الحمار والفرس بل عن القطار نفسه ؟

لم يكن أحد يظن أن هذه المخترعات ممكنة . ومع ذلك فانه يباع الآن في القاهرة أنسجة حريرية رخيصة مصنوعة من خشب التوت والقطن وهي أرخص جداً من الانسجة المصنوعة من دودة القز . وكل من يتأمل هذه الحال الجديدة لا يمكنه إلا أن يعتقد أن الزمن الذي ستقرض فيه دودة القز قد قرب جداً . وأيضاً كنا الى عهد قريب نستعمل النيل الذي يستخرج من النبات في الهند . وكان يزرع أكثر من مليون فدان من هذا النبات . فاكشف الالمان طريقة جديدة لاستخراج هذه الصبغة من مركبات كيمياوية فبارت الأرض في الهند . وزالت زراعة النيل . وأيضاً كان النقل والسفر الى عهد قريب في بلادنا بالجل والفرس والحمار ولكن الصناعة تغلبت حتى أنك قلما تجد الآن فرساً في إحدى العزب لان الاتومبيل يقوم مقامه ولا يتكلف تكاليفه

ففى كل ذلك نرى علامات جديدة لزمن جديد هو العصر الصناعي الذي دخل فيه العالم المتقدمين . فنحن في بداية عصر اذا لم نفهم علاماته وندرك مغزاها ونهياها فقد يقضى علينا في تنازع البقاء الجديد بين الامم ونصبح ذكرى كما أصبحت الهكسوس في مصر والعرب في الاندلس فالواقع الذي يجب أن نفهمه أن العالم يوشك أن يخرج من العصر الزراعى الى العصر الصناعي وانه ليس يبعدان نرى في حياتنا أن أحد المخترعين اخترع نسيجاً جديداً يشبه القطن وأنه لاداعي بعد ذلك لزراعة هذا النبات . وليس أيضاً بعيداً أن يستخرج الطعام من الخشب وعندئذ تلغى الزراعة من العالم كله

ولست في قولي هذا أتمادى في الخيال . فان السكرين الكماوى كاد يأخذ مكان السكر لولا أن صاحبه امتنع من صنعه عندما تأكد ضرره والحرير الصناعي يباع بأرخص من القطن وحرير الدودة أما النيل الصناعي فقد ثبت في فوزه ومنع زراعة النيل الطبيعي في الهند ولاتنس أن جميع العطور التي تشتريها في القاهرة صناعية أو تكاد تكون كلها كذلك . ومعظم ماشر به من الشراب المعطر ليس فيه شيء من العطور الطبيعية

فنحن نعيش في عصر الشأن الاول فيه للصناعة . وهذه الصناعة سائرة في التقدم وقد تفاجئنا يوماً ما باختراع يلغى ميزة القطن . وبينما الصناعة تسير في تقدم تسير الزراعة في تأخر لان المصنع والمتوحشين يدخلونها ويبيعون حاصلات أرضهم بأرخص الأثمان فيطردوننا نحن المتمدنين من الاسواق لأننا لانتطيع أن نراهمهم في رخص أثمانهم الناتج من انحطاط أجورهم وهوان معيشتهم لقد عاش الانسان في العصر الحجري فعرفت مصر النحاس فكادت تستولى على العالم كله بهذا لاكتشاف . ثم عرف البرونز . ثم بعد ذلك عرف الحديد وربما كان هو سبب هزيمة مصر . فان الدولة الرومانية التي ملكت مصر الف عام هي دولة الحديد . وعاش العالم طويلاً في العصر الزراعى وهانحن أولاء قد دخلنا في العصر الصناعي الذي جعل الامم الاوربية الصناعية تمتلك العالم كله بصناعاتها

فلننظر في علامات الزمن ولنتعلم الصناعة ونعلمها لأولادنا

عمر النظام والاضطهاد

من الناس من تقرأ ترجمتهم فكأنك بذلك تقرأ قصيدة سامية حوت من المعاني أشرفها ومن المقاصد أعلاها . فتقرأ وأنت في لذة وطرب تشبه ما تشعر به عند سماع أحد الادوار الموسيقية الانيقة وإذا كانت حياة كل منا تجرى أو بالاحرى تمشى في طرق مألوقة معبدة لاتضطدم بصخرة ولا تقاومها موجة حتى كأنها النثر البارد فات في حياة الابطال أمثال فولتير وجيته من الشعر والابقاع والموسيقى ما يجعلنا تصفح حياتهم ونعاود التصفح كما نعاود سماع قطعة موسيقية مطربة ثم كلما ألمت بنا مصيبة من طاغية يطغى أو رئيس يتطع في السياسة أو الدين عدنا الى فولتير فنجد فيه العزاء والدواء . فقد أمضى حياة طويلة بلغت ٨٣ سنة وهو يحارب الجور والاضطهاد ويزرع في الناس بذور الحرية ويداور الحكام الطغاة ويمكر بهم ويطلع كسبه بغير اسمه لانه لم يكن يرغب منها الشهرة بل كان يرغب في نشر الافكار والآراء ولكن الشهرة جاءتة حتى أنه عندما زار

باريس في آخر حياته كانت رحلته من سويسرا اليها في رأى أحد الأدباء الانجليز « من أوبر حوادث القرن الثامن عشر » لكثرة من وفد عليه من الأهلين لرؤيته حتى كانت سفرته أشبه بالموكب منها بالسفر المألوف

وحبس فولتير مرتين في الباستيل شيخ السجون ورمز الاضطهاد ونفى مرة إلى انجلترا وكل ذلك في سبيل رفعة الانسان وتحريره من الخرافات وهدم السلطات الجائرة . ولكنه عاد من انجلترا وقد ازداد قلبه قوة وتقديراً للحرية

واذا ذكرنا فولتير ذكرنا ابتسامته التي لا تفتأ تلعب بل ترقص على شفقيه ، ابتسامة الخنان والشفقة للبتكوبين والمظلومين ، وابتسامة التهمم والتفريع للطغاة والظلمة . فقد حكى أنه عندما خرج من الباستيل بعث بخطاب لمالك فرنسا يقول فيه : « أرجوك يا مولاي ألا تسكلف نفسك في المستقبل نفقات مسكني »

ولما أعياه المرض وانطرح على فراشه وأخذ في نزع الموت حاول الذين حوله ان يستخلصوا منه اعترافاً فقال لهم : « أموت في حب الله وحب الأصدقاء لا أكره أعدائي وإنما أمقت الخرافات فوضع هذه الكلمات ناموساً جديداً للانسان

وفي سنة ١٧٩١ أى بعد أن مضى على موته ودفنه ١٣ سنة أخرج أهل باريس رفاته وحملوها في موكب على نعش كأنه عرش يحفه الزهر ويتعالى حوله الهتاف ويسير الناس وراءه بالآلاف هذا يصفق وهذا يهتف وهذا يبكي من الفرح وهذا ينشد له مقطوعة من الشعر وهذا يحمل في يده حكمة بما فاه به في حياته حتى اذا بلغوا الباستيل الذي حبس فيه مرتين وكان الباريسيون قد هدموه وضعوه على انقاضه وقد كتبوا فوق نعشه : « في هذه البقعة حيث قيدك الاستبداد تقبل طاعة الامة الحرة »

ولكن يجب ألا تنسى شيئاً قاسياً مفضجاً حدث في هذه المظاهرة الحرة التي أعلن فيها انتصار الحرية على الاستبداد . فبينما كان أهل باريس يحتفلون بملك الأدب ويسرون وراءه ورؤسهم عارية والناس في بيوتهم يشرفون من النوافذ ويهتفون عند مرور النعش بهم ويدعون بالحياة لهذا الميت كان في باريس شخصان اثنان يسمعان الهتاف ولا يطلان من النوافذ . وهذان الشخصان هما الملك لويس السادس عشر والملسكة ماري انطوانيت وزوجته

والآن كلنا يحب فولتير وكلنا يقرأ حياته كما يسمع دوراً من الادوار الموسيقية المطربة وكلنا يقرأ مؤلفاته التي تبلغ نحو التسعين وكلنا يتفجع بهذا الحكيم الذي بذر البذرة الصالحة فأثمرت في العقول وكسرت شوكة الظلم والاضطهاد . وكلنا أيضاً يشعر بشرف هذه الحياة التي أمضيت في خدمة الانسان

ولكن ثم شيء سافل يجب ان تذكره بجانب هذا الشرف وهوانه في سنة ١٨١٤ عند ما عادت الملكية الى فرنسا أمر الملك فأخرجت جثة فولتير من مدفن العظام فأحرقت بالجير وبعثرت . ولكننا مع ذلك نذكر الآن فولتير ولا نذكر اسم هذا الملك النكرة ونعجب بشهامة الاول ونشتمن من سفالة هذا الثاني

الحق والقوة

القوة هي الحق واذا كان الحق ضعيفاً فليس بحق . ولييان ذلك نقول ونضرب المثل ببريطانيا والهند فالعرف الشائع بين الكتاب وخاصة كتاب الهند يقول أن بريطانيا قوية والهند ضعيفة ولكن الحق مع الهنود لانهم ينشدون استقلال بلادهم والباطل مع الانجليز لانهم يعتقدون على هذا الاستقلال ولكن لماذا يكون الهنود ضعفاء وهم ٣٠٠ مليون نفس ويكون الانجليز أقوياء وهم أقل من ٤٠ مليون نفس ؟

ان الهنود ضعفاء لانهم يمارسون صنوفاً عديدة من الباطل في بلادهم بين بعضهم البعض . والانجليز أقوياء لانهم يمارسون صنوفاً عديدة من الحق في بلادهم بين بعضهم البعض . فالانجليز يتساندون ويتناصرون فيما بينهم بحيث تصير ككتلتهم على صغرهما متماسكة في حين أن كتلة الهنود الكبيرة على ضخامتها تبقى متفككة . ولهذا اذا اصطدمت الكتلتان تغلبت الصغرى لمئاتها على الكبرى لخراعتها

ولكن هذه الكتلة الانجليزية الصغيرة انما تتناسك وتتناصر وتقوى لما يمارسه أفرادها فيما بينهم من فضائل . فهنا لا ترى في انجلترا التعليم العام لا يضئ الاغنياء بالضرائب الباهظة وبالتبرعات العظيمة لتعليم الفقراء . بينما في الهند تعد طبقات الفقراء نجسة اذا وقع ظل احد رجالها على رجل من البراهمة ذهب يتوضأ ويعتسل كأن الأبالسة قد لمست . وفي انجلترا يعيش الملك في حدود الدستور ولكن في الولايات المستقلة في الهند يعيش الراجوات والمهاجرة وهم يقتنون الجواهر لزيئتهم بمال الامة الذي كان يجب أن ينفق على تعليمها وصحتها ورفاهيتها وفي انجلترا لا يقل دخل العامل الانجليزي عن مائة جنيه في السنة في حين أن دخل العامل الهندي قد لا يزيد على أربعة جنيهات في السنة . وللعامل في انجلترا بيت صحي جميل تسهر الحكومة على العناية به وتعاقب المالك اذا أساء ببناءه . وفي الهند يعيش العامل في خص من القش . فاذا طوب الانجليزي بالدفاع عن وطنه لم يطلب لأنه يدافع بذلك عن أشياء ثمينة تمسه مساساً شخصياً أما إذا طواب الهندي بالدفاع عن الهند نظر المسكين حوله فلا يجد انه يملك من هذه الهند الكبيرة شيئاً قليلاً أو كثيراً ثم هو يجد أن البراهمة يغتسلون منه اذا مسوه أو خاطبوه أو وقع ظله عليهم . وبينما يعرف الانجليزي انه

إذا مرض ستعنى أمته بمعالجته ويعرف الهندي انه إذا مرض سيعنى الموت باختطافه . وبينما يعيش كل انسان في إنجلترا وهو حر في عقيدته يعيش المسلمون والحرب سجال بينهم وبين الهنديين والدماء تسفك بينهم من أجل بقرة تذبح

فالإنجليز في الهند يدافعون عن باطل وهو الاعتداء على استقلال الهنود ولكنهم لم يبلغوا هذه القوة من الدفاع عن الباطل إلا لأنهم مارسوا الفضائل في بلادهم حتى قام التناصر مقام التخاذل والعلم مقام الجهل والحرية مكان الاستعباد والتسامح مكان التعصب فهم لذلك أقوياء حتى في باطلهم ولكن الهنود ضعفاء الآن في حقهم . ولم ينزلوا الى هذا المقام من الضعف إلا لأنهم مارسوا الرذائل في بلادهم حتى صاروا يتناحرون من أجل بقرة وصاروا يستجسون أبناء بلادهم من أجل الآلهة القديمة التي خلقها الانسان وصاروا يضنون بالمال لتعليم اخوانهم الفقراء أو معالجتهم أو العناية بمساكنهم

وليس ضعف في العالم إلا وهو بعيد كل البعد عن الحق . وليس حق في العالم إلا وهو قوى . وقد تلبس علينا امارات الحق والباطل ولكن القوة تلازم الحق على الدوام . ومن مصلحة الانسان أن تفوز القوة وذلك على الأقل لكي يخشى الانسان الضعف ويتوقاه ، فمن مصلحتنا نحن المصريين مثلاً أن نعرف أن الهنود عوقبوا على ضعفهم باستيلاء الانجليز على بلادهم حتى توفي هذا الضعف فلا نذل عمالنا كما أذل الهنود عمالهم ولا نتقاتل من أجل العقائد ولا نترك حكمنا يستبدون بنا ولا نفتقر في المجاهدة لكي نكون أقوياء بجميع ضروب القوة من مال وجمال وعلم وخلق والقوة لا تقوم الا على الفضائل حتى صحة الجسم تحتاج الى ممارسة العفة والقناعة والاعتدال . وحتى ضعف الجسم يحتاج الى ممارسة الرذائل من الغش أو تهتك أو نهم أو نحو ذلك . فما من ضعف تنهم به أمة الا ووراء صنوف من الرذائل قد مورست مدة طويلة حتى أحدثت هذا الضعف . وما من قوة تتصف بها أمة حتى القوة الجسدية الغشيمة الا ووراءها صنوف من الفضائل قد مورست أيضاً مدة طويلة . فالحق لذلك يجري على الدوام مع القوة لأن كل قوى لم يبلغ قوته إلا للزومه الحق بلزومه الفضائل التي جعلته قوياً

العالم هو الوطن

أعظم الاخطار التي تستهدف لها الامم ألا تفهم علامات الزمن وتطور الاحوال فتسير في عصر على مبادئ عصر سابق وتنشبت بالنظر القديم للاعمال الحديثة فلقد سبق ان كتبت هنا جملة مقالات أشرت فيها الى ان العالم يدخل في طور جديد من العلم والصناعة وانه يوشك أن يهجر الادب والزراعة . فالعلم الآن يغزو الادب حتى صار الاديب

علماً والصناعة تغير على الزراعة حتى صارت العزبة أشبه شيء بالمصنع وحتى صارت الاقمشة والطوب والاصباغ تصنع الآن من غير المزروعات . فإذا لم نفهم « ما يكتب على الخائط » كما تقول التوراة ونقدم على الصناعة والعلم بكل قوانا ونحدث بيننا ثقافة ضخمة فيهما فإن الامم الصناعية تكسحنا من طريقها ويعود ذكرنا في العالم مثل ذكر الهكسوس أو طسم وجديس أو العرب في اسبانيا أو نحو ذلك من الامم البائدة

هذه علامة من علامات الزمن الحاضر . وثم علامة أخرى يجب ان ندرك مغزاها ونستعد لها فان الامم تخرج الآن من حدود القومية والوطنية الى وطنية عالمية تحدد فيها سلطة الامة ويخضع فيها استقلالها لمصلحة العالم . ففي جنيف الآن مؤتمر للدول العظمى تدرس فيه مسألة تحديد السلاح البحري وعلى ذلك لن تكون الامة في المستقبل كائنة ما كانت قوتها حرة في ان تزيد سلاحها البحري . وهذه عصبة الامم تمهد الطريق لحكومة عالمية في المستقبل القريب . وقبل عصبة الامم سنا نعرف محكمة الهاء التي كانت تفصل في المنازعات بين دول العالم . وقد كثرت المعاهد الدولية في العالم بعضها يبحث في الصحة وبعضها يبحث في الملاحة وبعضها يبحث في شؤون العمال والعمل وبعضها يبحث في الزراعة مثل « المعهد الدولي الزراعي في رومية »

وكل هذه المعاهد تعدو حدود الوطن ولا تنظر لمصلحة أمة مخصوصة بل تنظر الى مصلحة العالم كله . وهذا المعهد الاخير في رومية قد أعلن في الصحف المصرية في الاسبوع الماضي عن « خلو عدد من الوظائف الادارية والفنية في مختلف أقسام المعهد رغبة في الحصول على مرشحين لتلك الوظائف » وهو يعلن عن هذه الوظائف في جميع انحاء العالم لكي يتقدم اليه الهندي والمصري والسوداني مثلما يتقدم اليه الروسي والاماني والبرازيلي . فهو معهد للعالم أنشأه رجل يهودي لكي يخدم العالم كله يبحث عن ترقية الزراعة فيه وايراد الاحصاءات والتقارير الخاصة بغلاته فإذا نفهم من هذه المؤسسات الدولية ؟

نفهم ان النعرة القومية والتبجد بالاسلاف والانانية الوطنية قد زال زوالاً منها كلها واننا يجب ان نشبه بارقي الامم في الحضارة والثقافة وان نرتبط بها بل تتحالف معها لاعلى رقينا نحن فقط بل على رقي العالم كله بحيث يجب ان نسارع الى الانضمام الى عصبة الامم وان نسارع الى هدم قوى الظلام في بلادنا تلك التي تذكرنا على الدوام بالماضي وبالاساليب الشرقية في الحكم والثقافة والاسيوية « ثقافة الالفاظ والبهجة وتحشنا على البقاء معزولين عن العالم نتوهم لانفسنا كرامة كاذبة حتى لنُدافع بحرارة عن الطربوش بينما العالم المتمدين كله قد اتخذ القبعة ونحاول ان نمتلك قناة السويس امتلاكاً أبدياً بينما العالم كله يصيح بحرية البحار ونخطي « علامات الزمن فتتوهم ان العالم سيسمح لنا بفرض الضرائب كما نهوى على كل سفينة تمر في القناة كأننا أحرار في بلادنا مع أن

النزعة الدولية الجديدة تحد من حرية الأمم في معاملة أبنائها فكيف بمعاملتها لأبناء الأمم الأخرى فليست أمة الآن حرة في الاتجار بالرق أو ارهاق العمال فكيف نضمن أننا سنكون أحراراً في المستقبل نتصرف بقناة السويس كما نشاء ؟

ان في العالم نزعتين اذا لم نفهم مغزاهما قضى علينا قضاء شنيعاً . أولاها نزعة العلم والصناعة وثانيتهما تلك النزعة البولية التي تنظر للعالم كأنه الوطن الاسمي لكل انسان . وكلنا النزعتين لم نفهمهما للآن فعندنا أدباء لا يعرفون العلوم ولا يبالون بها وعندنا سياسيون يتكلمون بلغة القرون الوسطى السياسية يعتقدون انه يجب ان تمتلك السودان وأنه لا شأن لنا بعصبة الأمم وان قناة السويس عندما تنقضى مدة امتياز شركتها ستكون لنا ابريق زيت يغل علينا كل عام اموالا وكنوزاً الى الأبد وهذا كله خطأ بل خطر

القرية المصرية

ليس في العالم بلاد اشترك فيها الحظ الحسن مع الحظ السيئ في تاريخها مثل بلادنا . فبينما نرى تاريخنا مجيداً عظيماً في عصر الفراعنة أو الفاطميين نراه قبيحاً حقيراً في عصر المماليك والأتراك . فأننا نقرأ الآن تاريخ هؤلاء ونعجب للعلة التي منعت الناس من قتل ولاتهم الظلمة مع أنهم كانوا فئة قليلة سافلة الأخلاق لا تستطيع أن تصبر على جلاذ . ولكننا إذا تدبرنا الثقافة السائدة في تلك الأيام عرفنا علة هذا الخنوع للظلم في آباتنا ورددناه الى أصله وهو أنهم كانوا يحكم هذه الثقافة متواكلين يقولون بالخضوع لأولى الأمر والطاعة للسلطان . ونحن نحمد الاقدار الآن على أن نخضع لأولى الأمر اذا خرجوا عن دستور البلاد وأننا منذ سنة ١٩١٩ قد عرفنا أن الثورة فائدة ترد الظالم الى عقله وتزعج من الغاصب سلطانه . ولكننا مازلنا ننظر الى بعض شؤوننا نظر آباتنا مدة لمماليك وخاصة في نظرنا الى أخينا وأينا وعمنا وابنا هذا الفلاح . فقد كان المماليك أجانب عن البلاد حمر الوجوه زرق العيون لهم في معيشتهم وأجسامهم نعومة مزرية وكانوا ينظرون الى الفلاح المصري كما ينظر الابيض الى الزنجي يحقرونه ويتسخرونه لاعمالهم ويسرقون أمواله ويهتكون أعراضه من ناحية ومن الناحية الأخرى يبنون المساجد والاضرحه له ويحبسون الأموال التي اغتصبوها على الأربطة . فكانوا في صلاحهم أشبه بالمجرم يساوم ربه على الحسنات والسيئات بقيم الاولى حتى يستطيع أن يترخص في الثانية . ونحن وان كان حكم المماليك والأتراك الفعلي قد زال من البلاد زوالاً أبدياً فان حكمهم المعنوي لا يزال قائماً في احتقارنا للفلاح والصانع ، ولذلك فان القرية المصرية مع تقدم العمران في بلادنا وارتقاء أحوالنا الاجتماعية لا تزال كما كانت مدة المماليك اكوأخاً فطرة من الطين المحفب بالشمس ولا تزال هذه الاكواخ خالية من مبادئ الصحة والنظافة ليس فيها مراحيض أو مطابخ يختلط فيها مكان الماشية بمكان الناس . وبيننا ينفق بعض الافراد

في بلادنا الوف من الجنيئات في العام لا ينفق الفلاح أكثر من عشرة جنيئات هو وعائلته يعيش بها وهو في بؤس وقدر وفاقة لازمة

وريفنا جميل تنبسط فيه الأرض بساطاً أخضر يغذو العين بنضرتة طول السنة ولكن القرية المصرية تبدو فيه كالرمة البالية كدرة غبراء وبينة لا تزح عنها الامراض حتى ان الاجنبي الداخل لمصر يجزع لرؤيتها ولا يكاد يصدق أننا أمة متمدينة . ولقد زارنا ابن سعيد وهو شاب أندلسي مدة الايوبيين وهم الملوك الاكراء الذين حكموا مصر في القرن الثالث عشر فما راعه شيء بعد جمال الاندلس مقدار ماراعه منظر القرى المصرية حيث قال : « ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها »

ولابن سعيد الحق في أن يقول هذا القول عن قرانا فقد نشأ في أوروبا بين القرى الاندلسية ومن يعرف القرية الأوروبية يجزع من رؤية قرانا ويهوله ما فيها من قدر وكدر . فان القرية في فرنسا مثزه جميل قد كسيت شوارعها بالبلاط . وفي هولندا تغسل الفلاحة جدوان يثها بالماء والصابون ولا تدخل الماشية من الباب الذي يدخل منه أهل البيت . ومعظم القرى تضاء الآن بالكهربائية واذا بلغ الفلاح سن الستين في انجلترا فقدته الحكومة معاشاً سنوياً قدره ٣٠ جنيهاً

ونحن في مصر قادرون على كل ذلك لا يمنعنا منه سوى التقاليد التي ورثناها عن المماليك والأتراك في احتقار الفلاح والفلاحة . وهؤلاء كان لهم العذر القبيح في أن الفلاح كان أجنبياً عنهم لا يتكلم لغتهم ولا هو ناعم البشرة أزرق العين مثلهم . ولكن كيف يقوم لنا نحن عذر وهو من لحمنا ودمنا ؟

قصيدة الحياة

لقد أتاح لي الحظ الحسن أن أجالس عظيم انجليزى المولد وطنى العالم عرضت معه تاريخ حياته فكانت كالقصيدة العصماء تخرج منها من بيت سرى الى آخر أسرى وتجتاز بالموقف الشريف الى موقف أشرف وأنصح . وهذا العظيم هو السير ويلكوكس وحياة السير ويلكوكس قصيدة لا تتخللها أدنى رككة أو تناهة . عاش الى الثلاثين في الهند وكان يشتغل بالهندسة وبشيء آخر لا يزال يشتغل به الى الآن وهو يحب الى الثمانين أعني به البر . فالسير ويلكوكس رجل يحترف البر منذ شبابه الى الآن كان وهو مهندس في القرى الهندية يعالج المرضى ويغسل لهم جروحهم بيديه ويحادثهم عن المسيحية ويحادثونه عن البرهمية . وهو لا يزال للآن ذلك الرجل البار القديم يعمل في أحد المستشفيات في القاهرة يخفف آلام المرضى ويثقف من ماله القليل على أرواحهم وأجسادهم وهو مع أنه انجليزى يؤمن بفائدة الامبراطورية البريطانية ، فانه وقف موقف الخصم لحكومته

التي اتهمته بالقذف والفتنة لكي يدافع عن مصلحة مصر في مياه النيل . فهو انجليزى بمولده ولكنه يدافع عن الحق ولو كان على بلاده

فهذا بيت مجيد من أبيات هذه القصيدة العصماء . ولكن حياة ويلكوكس كلها جهاد في الحق والبر وكلها تجارب سامية . نشأ في الهند ثم قدم الى مصر فوجد الفلاحين يسخرون بلا أجر في حفر النهر فعمل على الغاء التسخير ورفع عنا وصمة قديمة وألماً فظيلاً كان يعانيه آباؤنا . ثم انتدب في تقرير الضرائب فسار بها بالعدل بين الملاك ثم سافر الى خط الاستواء بين الزنوج في البحث عن مياه النيل ووضع الترسيمات للخزان وانتدبته حكومة العراق لدرس أحوال الري فقام أيضاً بهذه المهمة وهو الآن في شيخوخته المهنية يخدم المرضى ويواسى المنكوبين

فأية حياة في العالم أحفل من هذه الحياة بالجهاد في سبيل الحق والخير وفي خدمة الانسان هندياً كان أم مصرياً أم انجليزياً ؟ أجل . انها حياة مملوءة بالتجارب السامية رأى صاحبها خط الاستواء وحره المزرق وناسه الهمج كما رأى ثلوج انجلترا وحضارتها الراقية ورأى الهند كما رأى مصر والعراق . وله ضمير كلما عاد اليه أذكره ببره للفلاح الهندي أو المصري فيرتاح للذكرى ويأنس الى هذه النفس السخية التي ناداها الحق فاستجابت لندائه واصطرع فيها جو العالم وباطل الوطن فآثر العالم على الوطن . ان في حياة معظم الناس وفي أخلاقهم من الجبن والأنانية ما يجعلنا نكره الناس ولكن في حياة ويلكوكس ما يجعلنا نؤمن بالانسان وننظر للمستقبل بعين الرجاء حين يصير الحق غاية والعالم وطناً وخدمة الانسان الغرض الأسمى من الجهاد

وينوء السير ويلكوكس الآن همين تقيلين من همومنا المصرية . الأول أن الفلاح المصري يزرع الأرض ولا ينال أجراً يسيراً على كده وكدحه والثاني أننا لا نكتب بلقنتا المصرية العامة دون العربية القديمة . وهو يقول بوجوب تحديد الايجارات بنسبة الضرائب وأيضاً بتدوين العامة حتى يتيسر للفلاح أن يقرأ بأقل غناء . وليس شك في أن الرجل ينوى الخير لنا في كلا القولين . وقد عاش في مصر أكثر من ٤٥ سنة ومارس من شؤون الفلاحة والري ما لم يمارسه كثيرون منا وعرف الفلاح القديم الذي كان يعمل مسخراً والفلاح الحديث الذي خرج في سنة ١٩١٩ يقطع السكك الحديدية ويطلب الاستقلال . ولكني أنا لا أبالي بأراء السير ويلكوكس مقدار ما أبالي بحياته . فهذه الحياة يجب أن تكون قدوة لكل منا لان هذا الرجل قد عاش تلك الحياة الوفيرة حياة العمل والجهاد للحق والعدل والخدمة للناس واحتفظ بصحة الشباب في سن الثمانين وتمتع بأرقى ما يتمتع به الانسان الراقى من التجارب والاختبارات

كيف نربي أنفسنا

نحن نعيش مرة واحدة في هذه الدنيا فمن واجبنا أن نعيش فيها أحسن عيش مستطاع نسكن أجمل المنازل ونقرأ أفضل الكتب وتأكل أشهى الاطعمة ونتمتع برؤية الاقطار المختلفة ونزداد بتقدم العمر حكمة وصحة وتجارب وعلماً

ولكننا لن نستطيع هذه العيشة ما لم نعلم الى أنفسنا فزيرها ونعودها العادات التي تساعدنا على الرقي . فان الجسم الانساني سريع الطاعة للعادة ينقاد اليها ويؤديها عن رضى وارتياح . وأنت عندما تقرأ سيرة أحد العظماء تعجب لوفرة أعماله وتساءل : كيف توافر له الوقت أو أسعفته صحته أو كيف أخلص له أصدقاؤه حتى أمكنه أن يؤدي هذه الاعمال كلها ؟

ولكن الواقع أن الوقت والصحة والفرض متوافرة لنا جميعاً وإنما تضيع منا لانتنا قد اعتدنا عادات سيئة . فهذا رجل يرجع فشله في الحياة مثلاً الى أنه يضع كل يوم من وقته نحو الساعتين في الركود على القهوة وهو قاعد كأنه الماء الآسن لاحتكاك ولا تفكير ولاهمة ، تخرج منه أنفاس الدخان في كسل وتراخ كأنه يريد أن يموت . فهذا رجل لا يتمتع ولا ينتفع بالحياة ولا ينتفع غيره

وتم رجل قد اعتاد عادات سيئة في الطعام يأكل كثيراً فينام كثيراً ويسمن ويكره الرياضة فلا يقوى على عمل مفيد . فهذا آخر يعيش كالنبات لا يتمتع ولا ينتفع بالحياة

وتم رجل قد اعتاد مخاصمة الناس فهو في نزاع دائم مع كل من يعرف يقضى وقته في قيل وقال وفي مشاغبات في المحاكم وهو منغص مشغول في غير شاغل مفيد طول حياته

فهؤلاء وأمثالهم قد اعتادوا عادات سيئة تقصيهم عن التمتع بالحياة بأرقى معاني التمتع . وقد يموت أحدهم في سن الستين أو السبعين وعقله في مستوى عقول الصبيان لم يتهدب بثقافة ولا بسياحة لوعددت ما قضاها من الوقت على القهوة في فارغ الشؤون لبلغ عدة سنوات من عمره

فنحن اذن في حاجة الى أن نربي أنفسنا ونعتاد منذ الصبا أو الشباب عادات تلزمنا مدى حياتنا فتريد سعادتنا ومنفعتنا لأنفسنا ولغيرنا . وأهم هذه العادات تلك التي تحفظ لنا صحتنا مدى حياتنا فانه لاهناء ولا تمتع بلا صحة . وقد قيل ان من يحفر قبره بأسنانه لكثرة نهمه . ولكننا نعرف الآن أن الصحة تضيق بأشياء أخرى أيضاً غير الطعام منها قلة الرياضة ومنها اعتياد الشرب أو سائر المخدرات

ثم نحن في حاجة الى اعتياد الدرس بموالاته القراءة فان الميزة الحقيقية تميز الانسان على الحيوان

الآن هي أنه حيوان مثقف لأن المحرومين من الثقافة هم من الانحطاط بمثابة الحيوان . وإذا نحن عشنا بلاثقافة لا نقرأ ولا نفكر في تاريخ هذه الدنيا ومصيرها وعلومها وآدابها فأننا نعيش عيشة حيوانية فيجب أن نغرس في أنفسنا عادة الدرس ونعيش مدى حياتنا طلبة مجدين في جامعة الدنيا

ثم يجب أن نعتاد الرفاهية فلا نقتنع بالنون من أي شيء لافي المسكن ولا في الطعام ولا في الشراب والفنون الجميلة نفسها لا يبعثها في نفوسنا سوى نزعة الرفاهية بل نزعة الترف . فيجب أن نتأق في الحياة ونعتبر المعيشة فناً جميلاً نمارسه بذكاء وذوق . والعبرة على الدوام بالنزعة فما دمنا نتأق في المسكن والمطعم والملبس فأننا نتأق فيما نقرأ فلا نرضى لأنفسنا قراءة كتاب سخيف أو صحيفة خالية كما لا نرضى بأن نعمل عملاً ناقصاً غير متقن لأننا نتأق في كرامتنا

وأخيراً يجب أن نعتاد المعاشرة الحسنة مع الناس وخاصة مع عائلتنا حتى لا نعيش منعصين حاسدين محسودين فيذهب مجهودنا العصبي في غير فائدة وتزيع أبصارنا عن طرق الخير والمنفعة وفي كل منا غرائز حيوانية إذا استسلمنا لها انتهكت قوانا واختصرت أعمارنا وعشنا بها كالبهايم فلا بد من أن نعود أنفسنا عادات الاعتدال فيها حتى تتوافر لنا من أبداننا قوة تقوم بالغايات العليا من الدرس والمنفعة والتمتع بالمتع الاثنية السامية التي لا يستطيع الحيوان أن يتمتع بها لأنها من احتكارات الانسان وبرهان رقيه

يجب أن نرتب حياتنا بحيث نستغلها الى أقصى ما فيها ولا يتيسر ذلك لنا حتى نعتاد عوائد حسنة في ادخار الوقت والمال والصحة والتوفر بها كلها على الدرس والسياحة وخدمة الناس والعمل لرفق الهيئة الاجتماعية التي نعيش بين ظهرانيها بترقية العلوم والفنون

في مدح اللعب

ليس من الصدف العارضة ان تكون اكثر الامم حضارة مثل انجلترا اكثر انغماساً في اللعب وادماناً على اختراع الالعب المختلفة . ففكرة القدم التي اخترعها الانجليز قد صارت تلعبها جميع الامم في جميع القارات . ففي تسير مع القطار أينما حل وهو ينشر التجارة والحضارة حوله كما تنشر هي طرب الحياة في هذه الحضارة . وكلاهما مع ذلك من اختراع الانجليز

وإذا نحن تأملنا اللعب الفيناة نوعاً من الفنون الجميلة فإن الانسان يشعر فيه بمثل ذلك الطرب الالهي الذي يشعر به رجل الفن عند ممارسة فنه

وهو يشترك أيضاً والفنون من حيث انه نوع من الترف الكمال الذي تراح اليه النفس المتعبة المنهكة . بل من الفنون ما لا نعرف تعيينه على وجه تمام مثل الرقص مثلاً فأننا نحتاج الى ان تسامح : هل هو لعب أو فن ؟ ففي الرقص ايقاع وفي السباحة ايقاع وكلاهما رياضة فنية تختلف

من حيث الدرجة فقط وكلاهما أيضاً ضرب من اللعب يختلف من حيث الايقاع وتنوعه وادمان الجد في هذه الحياة قد يجر البلايا للأفراد بل للامم أيضاً . واكبر مثال على ذلك هذا البارود الذي اخترعه الصينيون قبل الف سنة ومع ذلك لم يصنعوا منه سوى الصواريخ يلعبون بها ويطلقونها في الظلام فتنتثر نجومها مضئية يطرب لها القلب وتهتز لها الاعصاب . وقد قنعوا في البارود بهذا اللعب فعاثوا اكثر من الفنى سنة في سلام . أما الاوريون فنظروا اليه بعين الجد واستخدموه للقتل فتناحروا به اكثر من ٦٠٠ سنة وكاد أخيراً يمحو حضارتهم . فالنظر الصحيح للبارود ان يلعب به فقط

وهذه الامة العظيمة امة الاغريق التي وثبت الى صفحة التاريخ ثم غابت كأنها الحلم اللذيذ لم تكن تعرف لحكومتها واجبا محتوماً يجب أن تقوم به سوى تنظيم الالعب الاولمبية . فكانت هذه الالعب أساس حياتها العمومية يبني عليها تقويم السنين ويقصد منها غاية الجمال . وكان للاغريق بذلك حضارة لم ير مثلاً من قبل ومن بعد . وكان اللعب مزاج هذه الحضارة فكانت لذلك الحرية تشمل جميع مؤسساتهم وافكارهم وفلسفاتهم لانهم تناولوا كل هذه الاشياء بروح اللعب فانتفى عنهم التكلف والتنطع وكانوا يعيشون كأنهم يلعبون

وما أحرانا نحن بأن ننظر الى الدنيا نظر الاغريق القدماء فنجعل الجمال غايتنا ونجعل ألعابنا وسيلة فنلعب ونمارس أرقى الالعب وهي الفنون الجميلة مثل الرقص والموسيقى وسائر أنواع الرياضة ونحس منها بطرب الحياة وحرية الحركة وحرارة اللعب ولست أنظر الى الرياضة واللعب نظر البخيل أقصد منهما زيادة القوة وتحسين الصحة بل أنظر منهما الى غاية الجمال . والصحة يجب أن تأتي عفواً بعد ذلك . ولا فائدة من الصحة اذا لم تقترن بالجمال . ولذلك يجب أن نسير في ألعابنا كما يسير المتأق في اختيار الطعام يختار ما يساغ وما يلد طعمه فيكون له منه ، مع ذلك وبلا قصد ، ما يحفظ صحته ويزيد قوته

ومن ينظر الى الالعب الاسوجية يجد أن الأمم الأوربية تتطور نحو الجمال في ألعابها وأن القوة الجسدية لم تعد الغاية التي تنبجها اليها الرياضة كما كان الحال قبلاً

فيجب لذلك أن تكون ألعابنا جميلة تشمل كل طبقات الامة رجالها ونساءها وصبيانها حتى تقوم أخلاق الامة على الرشاقة والحرية والنظام لأن هذه الصفات الثلاث لازمة للالعب الرياضية ولها مع ذلك صدى يري في حياة الامة اليومية . والرياضة ألزم لنسائنا منها للرجال لأن هذا السمن العظيم والترهل الكبير الذي نراه أحياناً في أجسام النساء عندنا ليس يرجع في الواقع إلا الى عدم اعتياد نسائنا الرياضة . ثم هذا الارتباك الذي يري أحياناً في مشية البعض منهم يرجع أيضاً الى العلة نفسها . فنسائنا في حاجة الى اللعب حتى يكن رشيقات الحركة ضامرات الأجسام مثل الأوريات منتصبات القدود وبالجملة يكن جميلات لأن السمن والارتباك والرأس المنحني كلها تنافي الجمال

أطاعت ما يطلب منها من الواجبات الزوجية فجنت وحملت الى المستشفى تنتظر الراحة الأبدية بالموت القريب ولكن زوجها هندي مثقف يعرف السنة والقرص من عقائد آباءه ولذلك رافعا الى القضاء يطلب ردها الى بيت الطاعة ...

والهنود أبناء هؤلاء الامهات ينشأون ضعاف العقول خريبي الاجسام لا يقوون على عمل ولا يصمدون لكفاح يفتخرون بأنه كان لهم قبل الف سنة حضارة عظيمة ولكن الحضارة الراهنة لا تنال بالماضي بل تفكر في المستقبل وهي تكتسح من أمامها كل من يعارضها ولا يجرى على اصولها الصحية والاجتماعية فصيرون الهنود الى الفناء اذا لم يصلحوا عائلتهم ويحرروا نساءهم ويرفعوهن من ذل هذه العادات القديمة

والعالم الآن في تطور سريع لا يتسع للأمة الراكضة المستسلمة لما يميل عليها ماضيها بل حياة كل أمة الآن تتوقف على مقدار ما عندها من قوة للابتكار وقدرة على التحول للاوساط الجديدة. وهذه الصين وهذه تركيا كلتاهما قد عرفت أن الماضي يجب أن يدفن وأن تشق الأمة بها طريقاً الى المستقبل

وهذه الهند الأمة العظيمة بماضيها المسكينة بحاضرها لن تدخل في زمرة الامم المتحضرة حتى تخلع عنها ماضيها وتسب لنفسها شرائع قائمة على العلم والتجربة والفائدة

الوطنية الجديدة

حدث منذ اقل من شهر ثلاث حوادث كبرى يجب ألا تمر دون تنبيه للقراء وتعليق عليها من المحرر

فأول هذه الحوادث ان محكمة الهاي حكمت في الخلاف الذي قام بين فرنسا وتركيا بشأن الباخرة لوتس لمصلحة تركيا دون فرنسا مع ضعف تركيا وقوة فرنسا

والثاني أن مسيو جوفيل مندوب فرنسا في عصبة الامم استقال من هذه العصبة لانه يتهم فرنسا ووطنه الاصل بأنها تحاول اضعاف عصبة الامم . فاستقالته اتهام لوطنه واحتجاج عليه

والحدث الثالث أن اللورد سسل مندوب إنجلترا في عصبة الامم استقال من هذه العصبة أيضا لانه يتهم إنجلترا ووطنه الاصل بأنها كانت علة فشل العصبة في تخفيض السلاح

فهذه حوادث ثلاث تدل على اخلاق جديدة وولاء جديد ووطنية جديدة . ففي كل أمة الآن من الامم المتمدنية طبقة من الناس قليلة العدد ولكنها كبيرة الاثر بعلمها وجاها تحاول ان تجعل العالم الوطن الاول للانسان وتنتظر الى عصبة الامم باعتبارها البذرة الاولى لحكومة العالم التي

الهند العظيمة المسكينة

ارتاع الانجليز كما ارتاع الاميريكون من كتاب الفته سيدة امريكية تدعى الآنسة مايو عن الهند تناولت فيه أحوال العائلة الهندية وعرضتها بالتفصيل على قرائها كما رأتها بعينها مدة اقامتها في تلك البلاد الاسيفة

وكلنا اذا ذكر الهند خطر بباله الاستعمار الانجليزى وسيئاته واستنكر أفاعيل الانجليز بالهند وود لو تقوى عصبة الأمم حتى تصير حكومة علمية حقاً وتحكم بطرد الانجليز من ذلك القطر الذي يكاد يكون قارة

ولكن كل من يقرأ كتاب هذه الآنسة الاميركية يعرف أن نكبة الهنود ليست في الانجليز بل هي احدى النكبات الشاملة الاقطار الشرقية وهي في عقائد الهنود وعاداتهم وعبادتهم للماضي وفي التنطع بان للشرق حضارة تفضل حضارة العرب وفي التوهم بان للهندي كرامة يجب أن ترفعه عن محاكاة الغربي

فهذه الهند العظيمة بحجمها الحقيقى بأبنائها ما زالت ترضى بأن تحكمها أديان وعقائد مضى عليها آلاف السنين . والعالم يتقدم ويتطور مدة هذه الآلاف من السنين والهند واقفة تشرح ما قاله علماءها منذ الف أو الف سنة وتمارس عادات قديمة يهلك بها ملايين الاطفال كل عام وليس بين الهنود واحد يجرؤ على تسفيه هؤلاء القدماء

فهذه المؤلفة الاميركية وجدت أنه يموت من الامهات في كل جيل في الهند ٣٢٠٠٠٠٠ ام وقت الولادة وذلك لأن هؤلاء الامهات المسكينات يحملن وهن في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من أعمارهن إذ يتزوجن وهن في السادسة أو السابعة وتأتى لهن مولدات يعالجن بالرقى والطلاسم عوض العلاج الطبي الحديث

ويموت في الهند في كل عام ٢٠٠٠٠٠٠ طفل لأن امهاتهم لا يعرفن لصغر أستانهن كيف يعين بهن وأيضاً لأنهن لا يدركن من معنى النظافة سوى تلك الطهارة التي تقول بها أديانهم والتي تجعل روث البقر اطهر من ماء النهر وتجعل الام وقت النفاس دنسة لا يقترب منها أحد طاهر

وتتزوج الفتاة بل الصبية الهندية قبلما تبلغ العاشرة من عمرها تؤخذ من ميدان اللعب الى بيت الحريم حيث لا ترى سوى زوجها وضرائرها وقد يكون زوجها فوق الخمسين . وقد ذكرت المؤلفة حوادث يشعر لها البدن عايتها بنفسها في مستشفيات المجانين حين وجدت صبايا هن دون العاشرة تزوجن رجالا في اعمار جدودهن . فلما التقى العروسان لم تتحمل الصبية المسكينة فظاعة المنظر ولا

تندمج فيها حكومات الأمم المختلفة وهي تنظر بعين الرجاء إلى المستقبل حين يكون لعصبة الأمم القول الفصل في جميع المنازعات الامة بل ايضاً تكون لها الكلمة العليا في الاجراءات التي تعمل لرقى الانسان

وهذا طور جديد في الاخلاق يحتاج في مصر الى ان نماشيه بحيث اننا عندما نعلم تلاميذنا مبادئ الوطنية يجب الا نقول لهم بوجوب التضحية بانفسهم لمصر فقط بل ايضاً يجب ان نعلمهم ان المبادئ الحديثة تقتضي بأن نضحى بمصر لاجل العالم لانه كما ان الفرد يقتدى به الوطن كذلك الوطن يقتدى به العالم الذي هو الوطن الاكبر لكل انسان

ولكن هذه المبادئ البارة لا تثبت إلا بجهود طويلة فتحن في حاجة الى أن نحدف من التاريخ تلك الاجداد الحربية السخيفة والى أن يفهم التلميذ أن الحروب والغزوات من الهمجية القديمة وان الحضارة الحديثة تضطر الأمم الى التحكيم وأن العدل مضمون في المحاكم الامة مثل الهاي . ثم يجب أن يبدت الحب في النفوس بدل البغضاء والكراهية والتسامح بدل التعصب كما يجب أن تظهر الادبان في جميع أنحاء العالم مما يحضر الناس على كرامة الغير ويسمو بهم الى أن الدين عقيدة شخصية يجب ألا تشترك فيها حكومة وأن حرية الفكر هي أساس التقدم والرقى

وقد تكون عصبة الأمم ضعيفة الآن ولكنها اذا اجتمعت القلوب حولها وعاضدتها على البر والخير للعالم صار منها أداة عالمية قوية لنحو الشرور التي لا تنفع فيها جهود أمة وحدها . فتعتمد العصبة الى الغاء الرق بكل معانيه من النخاسة الصريحة الى حجاب المرأة الى استغلال العمال بارهاقهم الى الاتجار بالاعراض . ويصير لها شرائع تخضع لها جميع الأمم في صيانة الصحة والتعليم والمبادلة التجارية وحماية الاقليات ونحو ذلك ويكون لها جيش ينفذ شرائعها وهذا الجيش لا يعرف سوى الولاء لها . وليس بعيداً عن هذه العصبة أن تنشئ للعالم لغة عامة تحتم على جميع الناس التفاهم بها كما قد تستطيع ايضاً أن تنشئ ديناً عاماً

وقد يكون هذا القول تمادياً في الخيال ومبالغة في الرجاء ولكنه خيال يقوم على أساس من الحقيقة . ففي العالم الآن محكمة تحكم لدولة ضعيفة مثل تركيا على دولة قوية مثل فرنسا . وفيه ايضاً عصبة تعمل لخير العالم ولها على الناس ولاه أسمى من الولاء للوطن كما رأينا من مثال اللورد سسل والمسيو جوفنيل

وواجبنا نحن المصريين ان نكون اداة خير لهذا العالم فنعمل لرقية بتقوية هذه العصبة بأن نشترك فيها ونعاضدها على البر والسلام . ويجب ان نصنع عقول شباننا بصبغة عالية نضع الاثار فوق الاثر الوطنية . وعلى كل سياسي في مصر ان يدرس نظام هذه العصبة ويعاضدها بصوته ورأيه وعلمه

اثان من اليهود

مضى زمن التعصب وانقضى ذلك العهد حين كان كل انسان يعتقد أن الجنة وقف على بني دينه فقط . وصرنا الآن ننظر إلى جميع الأديان فنجد فيها من الرقى مالا يقل عن أدياننا بل صرنا نرى في تصوف العالم أو الفيلسوف معنى سامياً جديراً بالاحترام لا يقل عما نجده من المعاني السامية في أدياننا

وقد عانى اليهود من التعصب أكثر مما عاناه المسلمون أو المسيحيون ورأوا الذل والهوان على أيدي المتعصبين الذين حرموهم الحقوق الابتدائية الممنوحة لغيرهم من امتلاك الارض والعقارات فاضطروهم بذلك إلى الانتفاع بالربا . ثم عادوا بعد ذلك يكرهونهم بل يمتقونهم لأنهم مرايون والآن بعد أن انكسرت شوكة التعصب واستعاد اليهود حقوقهم الممنومة وصاروا يزاولون الأعمال التي كانت محرمة عليهم قبل صرنا نرى منهم الزارع والتاجر والعالم والفيلسوف . فاليهودي الآن عضو عامل لخير الانسانية يزيد الثقافة ويقوى الحضارة ويدأب في خدمة العالم . ثم هو أليق الناس بأن يكون ابن القرن العشرين هذا القرن العجيب الذي ألغى الوطنيات المتعادية وجعل العالم الوطن الأصلي الذي يجب على كل منا خدمته وذلك لأنه هو نفسه قد ألغى وطنه منذ نحو ١٨٠٠ سنة . فهو يمتاز على كل منا بأنه قد مضت عليه هذه المثات من السنين وهو على الرغم مما يكابده من الظلم يعرف أن العالم وطنه ولا يعرف وطناً سواه

وليس يجب أن نطلب المساواة باليهودي على وجه التسامح بل على وجه الحاجة والضرورة لكي نتفهم بمواهبه . فاننا الآن قلنا نجد حركة علمية أو فلسفية أو حتى أدبية إلا واليهودي فيها يد البر والخير . فنحن مثلاً نعزو حب المال إلى اليهود ولكننا ننسى أن زعيم الاشتراكية في العالم هو كارل ماركس وهو رجل يهودي

والآن ننظر في عالم العلم والفلسفة فنجد على القمة رجلين يهوديين يشقان الطرق الجديدة في هذين الميدانين لا يداينهما أحد من العلماء أو الفلاسفة نغني بهما فروود واينشتين

فالاول منهما قد شق طريقاً إلى الذهن الانساني واكتشف مجاهله وعرف ماهو العقل الباطن وما هي الأحلام التي نراها في نومنا . والاكتشاف في هذا الميدان الغامض هو تحسس في الظلام ولكن فروود أجاد التحسس ولم ييخل على هذا البحث بنحو أربعين سنة من عمره انتهى منها إلى الوقوف على أسرار الذهن وإلى انشاء علم جديد هو علم النفسولوجية الذي كان قبل فروود كشكول

سخافات وخرافات فصار بجده ومثابرته علماً منيراً يكشف عن طبيعة الانسان وغرائزه وأمانيه السامية . ويعيش فرود الآن في فقريته الفاقة والضنك لأن الحروب الكبرى أضاعت القليل الذي جمعه لشيخوخته . وهو يعرف قيمة العلم الذي اهتدى اليه ومقدار الأدوات التي عرفها في استكناه ذهن البشرى ولذلك فهو مغتبط باكتشافاته ولا يبالي كثيراً بفقره

فهذا واحد من اليهود ستذكره ذرارينا بالشكر والفخر . وثم آخر هو أيضاً في القمة بل هو يفرد بالتبريز أكثر من انفراد فرود لأن الذين يدركون مدى نظريته قليلون . نغني به اينشتين صاحب نظرية النسبية . فهذا الرجل العظيم قد عرف قيمة البعد الرابع للأشياء في هذا الكون فليس للجسم في نظره ثلاثة ابعاد . الطول والعرض والارتفاع بل الزمن أيضاً . وقد وضع من الفروض الجديدة في الرياضة والفلك ما سيجعل العلماء يقضون القرن التالي في مراجعة آرائهم الماضية وتقيحها حتى توافق نظرية النسبية التي تنفي الحقائق المطلقة وتقول بأن كل شيء نسبي في هذا الكون وان اثنين من الناس قد يختلفان في ماهية الحقيقة ولو كانت من الأرقام ومع ذلك يكون كلاهما مصيباً اذا اعتبرنا الزمان والمكان لكل منهما

فهذان يهوديان يزيدان ثقافة العالم بل هما قد زاداها بعلمهما وضربهما في مجاهل الفكر بحيث لم يلحق بهما ولا داناها أي انسان آخر من سائر الملل والنحل ولو كان اليهود يعانون الآن ضروب الذل التي عانوها في الازمنة الماضية الكافرة لما انتفعنا بعلم فرود واينشتين . فاليهود الآن يدفعون ثمن الحرية والتسامح الذين يتمتعون بهما ويكافئون عليهما العالم أكبر مكافأة ممكنة لأي انسان وهي زيادة النور والعرفان

سعد والشبيبة

ما تمدح عليه شبيبة البلاد تعلقها بسعد ذلك التعلق الذي كان أشبه بالرباط السحري بينها وبينه وقد حاولت القوة الغشوم أن تقطع هذا الرباط فلم تفلح والشبيبة جديرة بالمدح لتعلقها بسعد لأنها انما تعلقت باخلاصه للوطن ونشاطه في خدمته وولائه على مبادئه وثباته في إيمانه . وهذه صفات . بل مناقب لو لم يكن يقدرها شاب في نفسه لما قدرها في سعد . لذلك كان تعلقه بسعد تعلقاً بالفضائل السامية التي تمثلت فيه

ولكن سعداً كان على خلق عظيم وشابنا يحجل بعض نواحي هذا الخلق ونحن لذلك ذاكرون بعض هذه النواحي كي يقتدى بها الشباب في خدمة نفسه وأمه . فمن ذلك أنه عاش طول حياته طالباً للعلم يدأب في الدرس وكلما وصل الى مرتبة من الرقي طلب ما هو أرقى منها . فقد نشأ شيخاً أزهرياً معماً ثم خلع عمامته وليس الملابس الافرنجية . ثم اشتغل بالأدب فصار محرراً في الوقائع المصرية

والف كتاباً في ذلك الوقت في الانشاء لتلاميذ المدارس عمد فيه الى تخلص العبارة العربية من الاغراق في الاسجاع والزخارف . ونشبت بعد ذلك الثورة العربية فكان في صف العدل يقاوم ظلم الخديو ثم توظف في الحكومة . واستقال منها فدخل في المحاماة وهي ميدان جديد مخفوف بالمكارة فلم يقع بما فقع به غيره بل أخذ في الدرس ومقابلة الشرائع والتفقه فيها وعاد وهو في سن الاربعين طالباً يتقدم للامتحان في باريس لينال شهادة الحقوق

فتأمل أيها الشاب في هذه المهمة العظيمة التي تحفز شاباً أزهرياً معماً الى درس اللغة الفرنسية ثم القوانين الفرنسية والسفر الى باريس للامتحان في سن يشرف فيها غيره بيوادر الشيخوخة . أليس في هذه الهمة ما يحفزك الى أن تنظر الى ما هو أرقى من مركزك الحاضر فتجهد جهدك لكي تبلغه ؟ ولكن سعداً كان شاباً حتى في شيخوخته بل في نهاية شيخوخته . سمع عن عظمة المانيا ورقيها وهو في سن الستين فشرع يتعلم الألمانية كأنه شاب . بل ماذا أقول ؟ كأنه صبي يتعلم حروف الهجاء وأخذ يحفظ عن ظهر قلبه الالفاظ ويحاول أن يلوى لسانه على مخارج النطق الألمانية . فهذا ما كان يعمل سعد لكي يرقى نفسه ويشهر بأنه بتقدمه في السن يتقدم في العلم وهذا ما يجب أن يفعله كل منا يجب أن نبقي طلبه في جامعة العالم تتعلم وندرس ولا ندخل القبر إلا وقد حوينا في صدورنا أجمل ما في هذه الدنيا من علم أو أدب كما يجب أن نطلب الرقي لانرى مرتبة من مراتب الرفعة الاطمعنا فيها وأملنا في بلوغها . ولكن سعداً لم يكن يخدم نفسه فقط بترقية نفسه وتهذيبها وانما كان يخدم أمته أيضاً . وانضمامه الى الثورة العربية برهان على يقظة ضميره وهو بعد شاب لم يبلغ الثلاثين وقد ضحى بمركزه في المحاماة وما كان يجني منها من الارباح الطائلة لكي يخدم القضاء المصري . فلما رأى الفرصة سانحة في خدمة الحركة الوطنية أخذ يغذيها بماله وآرائه كما شهدت بذلك جريدة المؤيد . ورأى ميلاً من الخديو عباس الى الاستبداد فقام وكافح . ثم جاءت سنة ١٩١٩ وتاريخ سعد بذلك هو تاريخ الامة المصرية بأجمعها وهذه العجالة لا يتسع فيها المجال لذكرى تاريخ أمة والآن ماذا نحب في سعد ؟

نحب فيه أنه كان مصرياً صميماً له وجه الفلاحين والفراغة وكان يرقى نفسه يدأب في الدرس ويتطور مع الزمن متمشياً مع روح العصر يدرس اللغة الفرنسية في سن الاربعين واللغة الألمانية في سن الستين . ثم كان مصرياً يخلص الولاء لمصر فلم يقل مرة أننا أمة عثمانية مثل الذين ضلوا بعد عرابي وكان يضحي بكل شيء في سبيل الوطن يرضى بالنفي والاهانة وهو ثابت على ولائه لا يتزعزع فسعد قدوتنا جميعاً يجب على كل شاب أن يقتدى به في ترقية نفسه وفي خدمة وطنه

في الصحافة

كثير من الناس لم تقدر لهم الاقدار أن ينالوا تلك التربية المدرسية العالية التي تفتح الذهن للثقافة القديمة والحديثة ولكنهم بمواصلة القراءة في الصحف الراقية استطاعوا أن يبلغوا مكانة عالية في الثقافة والتربية. وهذا هو السبب في أن معظم الادباء في أوروبا لم ينالوا شيئاً سوى القليل من التربية المدرسية ولكنهم نشأوا على أن يقرأوا من الصحف الراقية ما تبثت في نفوسهم ذوقاً للادب والعلم وهداهم الى الكتب التي نزعته بهم الى نزعات الرقي المختلفة وحشدت رءوسهم بضروب الثقافة فالصحيفة الراقية تقف الآن الى جانب المدرسة والجامعة وتنافسهما في نشر التعليم وابتعاث الاذواق والنزعات. وتأثير الصحيفة في القاري اكبر من تأثير المدرسة أو الجامعة لأنه يقرأها مختاراً فهو يتقبل آراءها بقوة الانحاء الذي تبعته اللفظة المطبوعة وبقوة التكرار الذي هو طبيعة الصحف الدورية. أما في المدرسة والجامعة فان الاجبار يثير في نفس المتعلم شيئاً من المقاومة والكراهية حتى أننا قلنا نقرأ كتاباً من نوع ما كنا نقرأه في ايام التعليم ولا ننظر بعد تركنا المدارس الى الكتب المدرسية الا بشيء من الكراهية هو أثر الشعور السابق بواجب الدرس. ولكن منا من يحب صحيفته كما يحب قهوته يصطحبها ويغضب لغضبها ويسر لسرورها. ومن هذا الاثر البالغ لهذه الصحيفة في نفسه ان شرأ فشر وان خيراً فخير

وعلى ذلك يجب أن يختار القاري من الصحف ارقاها وأدعاها الى أن ترفعه وتسمو به وتحته على الخير والبر في العالم وعليه أن يتأنق في اختيارها كما يتأنق في اختيار الاصدقاء كما عليه أن يقاطع الصحف التي تعمل للعداوة بين الناس وتدعو الى التعصب الديني وتمتدح الجور وتؤيد الاساطير وليس شك في أن الصحف المصرية قد ارتقت هذه السنين الاخيرة وصار عندنا وزراء وعلماء لا يجدون من الغمط لأنفسهم ان يكتبوا فيها وصار للرأي العام عن طريق هذه الصحف قوة يخشاها ذوو النيات السيئة للبلاد

ولكن صحفنا مع ذلك لم تبلغ حد الكمال فلا يزال بعضها يؤثر الطرق القديمة في ملء انهرها بالكاتب المتطوع لأنه أرخص من الكاتب المأجور. ولكن قليلاً من التجارب تثبت أن هذه الطريقة في الاقتصاد هي أكثر اسرافاً من دفع الاجور المناسبة لمن به كفاية من الكتاب. وكثير منها لا يزال يخدم أغراض العامة من الاغنياء والاعيان بوصف توديع مدير أو مأمور أو رثاء طويل أو نحو ذلك مما يجب أن يكتب تحت عنوان «الاعلانات» أو لا يكتب البتة. على أن أكبر نقص في صحفنا الحاضرة هو اهمالنا أخبار العالم فان الاخبار الخارجية تنحى الى الصفحة

الاخيرة أو التي قبلها كأنها من مهملات الاخبار فينزع القاري نزعاً وطنية محدودة مع أننا أبناء هذه الدنيا يجب أن نعرف أن الوطن الأول هو هذه الدنيا بأكملها فيجب أن ندرس أخبارها وتطوراتها. وأن أكبر أنواع الجهل ليس جهل الفلسفة أو الكيمياء أو التاريخ بل جهل هذه الدنيا التي نعيش فيها. وتلك الصحيفة التي تبالي بتوديع مأمور أكثر مما تبالي باعتصاب العمال في اليابان تجنى على عقول قرائها جناية قد لا تستقال

ومن الجناية على القراء أن يقتل ويجرح نحو ألف انسان في عاصمة النساء في الشهر الماضي فتتج أخبار هذه الفاجعة الى الصفحة السابعة أو الثامنة من الجرائد بينما الصفحات المهمة تخصص لتقولات الموظفين وترقياتهم

إن شبيبة مصر يجب أن تكون راقية الذهن وواقفة على أحوال العالم واتجاهاته في تطوره الحاضر حتى تعرف العالم ومكانة مصر منه ولا سبيل لها إلى ذلك سوى الصحافة. فإذا لم يخدم محررو الصحف القراء من هذه الناحية فانهم يهملون اهمالاً فاضحاً في أداء مهمتهم

مركز الثقافة العربية

أيها القاري

تفكر وزارة المعارف الآن في تأليف موسوعة كبيرة للمعارف العامة كما تفكر في انشاء مجمع على يسائر الحركة العلمية والأدبية أو برود الطريق لها ويمهدا بالانشاء الالفاظ التي يحتاج إليها الأديب أو العالم ويضع لها معجماً

ولمصر تقاليد في انشاء الموسوعات ليس قطر من الأقطار العربية يناقشها فيها. ففيها وضع ابن منظور معجمه بل موسوعته الكبرى «لسان العرب» وفيها وضع النويري موسوعته الكبرى الأخرى «نهاية الأرب».

وبديهي أن الموسوعة التي تنوي وزارة المعارف وضعها ستقوم في الاكثر على الترجمة وستختلف عن طريقة ابن منظور والقلقشندي وغيرهما كما يختلف زماننا عن زمانهم. فقد عنوا هم باللغة والالفاظ عناية كبيرة ولم تكن غايتهم من هذه العناية الدقة بل الزخرفة.

ولسكننا نحن في حاجة اليوم إلى الدقة في التعبير أكثر مما نحن في حاجة إلى الزخرفة لأننا نعيش في ثقافة علمية أو يجب أن نعيش كذلك فاجتأنا إلى العبارة الواضحة الدقيقة أكبر من حاجتنا إلى الزخارف والبهارج.

وقد كانت ثقافة العرب أدبية ولذلك عنوا بهذه الزخارف . أما الثقافة الحاضرة في أوربا فتتجه نحو العلم . والحضارة الراهنة تنحو نحو الصناعة ولذلك فنحن في أشد الحاجة الى أن تكون عبارتنا واضحة دقيقة مختصرة تؤدي المعنى العلمي أداء مقتصداً مختصراً . فإذا كانت المعاجم العربية تذكر مائة اسم للأسد فنحن في معجمنا الجديد يجب أن نقنع بواحد ولكن يجب في الوقت نفسه أن نزيد على ألفاظ هذا المعجب ٤٠٠٠ اسم خاص بالاجهزة والادوات الكهربائية مثلاً وكذلك الحال في الموسوعة يجب أن نغني فيها بالثقافة الحديثة عناية كبيرة . ويجب أن نجعل غايتنا توجيه القراء الى ناحية العلم والتفكير في المستقبل دون ناحية الأدب أو التفكير في الماضي ونحن الآن في مركز الزعامة للثقافة العربية من مراكش غرباً الى العراق شرقاً . ولنا من الاوربيين مزاحمون في الثقافة فإذا لم نجعل ثقافتنا وفق العصر الحاضر بحيث يجد فيها القارئ العربي ما يعلبه ويهذبه ويسمو به الى آراء القرن العشرين فإنه لا بد تاركنا الى اللغات الاوربية التي تغذوه بالآراء الحديثة

ونحن نرى في مصر وسوريا الآن طائفة من الشباب المتعلمين تركونا وتعلقوا باللغات الاوربية لانهم لم يجدوا في ثقافتنا ما يغذون نفوسهم ولانهم وجدوا أن أدبنا ما زالوا يهرجون لهم في اللفظ ويذكرون لهم أبطال الأدب في بغداد والبصرة قبل ألف عام دون عناية بما يجري حولهم ولنا شباب آخرون تعلقوا بالثقافة العربية القديمة التي أصبحت لا تتفق والعصر الحاضر فصاروا ينظرون الى كل نزعة جديدة بعين المرتاب الذي يخشى منها كفرة جديداً أو تفرنجاً سخيفاً فلهؤلاء ولهؤلاء نحتاج الى موسوعة جديدة للمعارف ومعجم يكونان دستوراً للاديب يجذبان الينا أولئك الذين هجرونا الى الآداب الاوربية ويفتحان أعين أولئك الذين يتعلقون بالقديم للثقافة الحديثة

وطنا يرغب في أن يتوحد العالم العربي في اللغة العربية ولكننا لانحب أن نصح في ذلك بشخصيتنا ولانحب أن تكون الرابطة بيننا وبين سائر الاقطار العربية رابطة لغوية فقط . وانما ترتبط بهذه الاقطار بثقافة حديثة قائمة على العلم والصناعة تربطنا جميعاً برباط الحضارة لا برباط البداوة فسيل التعارف والتآلف بيننا يجب أن يكون قائماً على الآراء الحديثة في الحكومة والزواج والاصلاح الاجتماعى والمخترعات والمكتشفات العلمية وبعبارة أخرى يجب أن ترتبط برباط المدنية الحديثة والثقافة الحديثة حتى تتحد عواطفنا الاجتماعية وغاياتنا الاصلاحية

وهذه الغاية نبلغها اذا كانت مصر مركزاً للثقافة الحديثة تخرج منها المؤلفات ويجمع العالم العربي معجماً للالفاظ المفيدة في العلوم والآداب يكون دستوراً للادباء كما أن الموسوعة تكون أساساً جديداً لنهضة جديدة تقوم على الابتكار والاختراع

اعلان

أنا الآن صحفي عتيق لا أقنع من الصحيفة أو المجلة بما يقنع منها القارئ العادي يقرأ المقالة أو القصة ويتركها وقد ينسى اسمها . فقد انغمست في الصحافة وزوالها مدة طويلة حتى صرت أميز فيها بغريزتي أكثر مما أميز بعقلي . ولذلك فاني أنظر في اعلانات الصحف وخاصة منها تلك المجلات الاوربية نظرة المدقق الباحث عن الفن الصحفي وكثيراً ما اهتدى إلى دقائق في الفن لا اهتدى اليها في المقالات والقصص

وما يجعلني أنتفض وأتفرز إعجاباً بتلك الاعلانات الخاصة بالطيران تعلمها مدارس هذا الفن الجديد وتبحث الشبان على الالتحاق بها وتطمعهم بالآمال الواسعة المعقودة بهذا الفن حين تحتكر الطيارات حمل البريد وحين تتصل القارات بخطوط هوائية وحين تعدد الاغراض من الطيران حتى تصبح الحرفة رائجة السوق عالية الاجر

وهي ترغب كل قارئ في أن يكون طياراً . فهذا الاعلان يقول مثلاً : « في منزلك وفي أوقات فراغك يمكنك أن تتعلم قواعد الطيران وتشرع بنفسك في طريق الريح العظيم » فالطيران أصبح أيها القارئ حرفة ينبغيها الناس للريح العظيم ولم يعودوا يذكرونه بالشجاعة أو الشهامة أو الجرأة لأنهم قد ألفوه فصار من صناعة القرن العشرين التي يتعلمها الناس لكي يعيشوا لا لكي يشار اليهم بالبنان وتذكر أسمائهم في الصحف

ولكن هذه الحرفة لسوء الحظ لاتزال غريبة عن بلادنا مع أن لنا أجساماً قوية وعقولا ذكية وقلوباً جريئة وانما يعوزنا أن ننزع نزعة جديدة تناقض ما ألفناه بل ما تعلمناه فنعرف أن الانسان سلطان هذا الوجود الذي يقهر الطبيعة ويدلها ويركب السحاب ويسخر الريح وان مهمتنا في هذا العالم أن نبكر ونخترع ونترك طرق الاسلاف القديمة ونشق لأنفسنا طرقاً جديدة توافق عصرنا وتعمل لخيرنا ورقينا

ولكن كيف السبيل الى أن ننزع هذه النزعة التي تجعلنا نستسهل الطيران ونقبل عليه ؟ السبيل الوحيد الى ذلك أن نتشقق بالثقافة التي كان الطيران احدي نتائجها ، أعني بها الثقافة الاوربية . فيجب أن نقبل على درس هذه الثقافة وأن نكرع منها حتى الامتلاء وننقل منها الى أبناء وطننا ونحثمهم على الاطلاع عليها وادمان درسها . وليس يعيننا النقل عنها فانها أثبتت أنها أرقى ثقافة في العالم الآن وأن نتائجها العملية أي الحضارة الراهنة تفوز على أية حضارة أخرى

وهذه الثقافة قد مضى عليها أكثر من ألف سنة وهي تتكون فيجب أن ننتفع برقيها ونأخذ آخر أطوارها وأرقاها ونجرى على سننها الأخيرة ونزوع نزعاتها العديدة . ولا عبرة بأن يقال لنا عندئذ أننا مقلدون فانه يجب علينا أن نقلد أهل الرقي فريقيهم وإذا نحن اعتمدنا على أنفسنا فقط فالتنا نحتاج إلى ألف سنة لكي نبلغ ما بلغته أوروبا من الرقي الآن . وعندئذ تكون أوروبا قد سبقتنا بألف سنة أخرى فنبقى إلى الأبد متخلفين عنها .

ويجب أن نحلم من الآن أحلاماً لذيذة بشأن الرقي يراه أبنائنا وأحفادنا إذا لم نره نحن فيجب أي تحدث بل نهجس بذلك اليوم الذي نرى فيه كلية الأزهر تعلم الطيران للمجاورين وتحسهم على ركوب السحاب . وعندئذ يحتاج المجاور إلى تبديل ملابسه من قبة الرأس إلى أنخص القدمين لأن الريح فوق السحاب لا ترحم . ويجب أن نحلم أيضاً ونهجس عن الشاب القادم حين يخترع ويبتكر ويعيد إلى هذا الوطن تلك الذكرى المجيدة التي لا تزال له من أيام الفراعنة آباءنا العظام الذين أفسحوا الحضارة وأخرجوا العالم من ظلام العصر الحجري

وبمثل هذه الأحلام وهذه الهواجس نغرس في ذهن الشباب هذه النزعة الميمونة إلى الجديد فيخرج حراً طليقاً من القيود التي تقيدنا نحن بها بحكم تربيتنا وثقافتنا القديمة منذ طفولتنا ويستطيع عندئذ هذا الشاب إذا أشرب الثقافة الأوروبية وتشبع بها أن ينزع نزعة أبنائها في الاختراع والابتكار . ويجب علينا ألا ننسى أن أحلامنا هي حقائق أبنائنا وأحفادنا

هزيمته الأدب السخيف

« نهضنا نهضة أدبية بيننا المدنية الحديثة علمية خالصة . ف نحن نعيش في وادو الغربيون في واد آخر لانالانابه إلا للاداب ونهمل العلوم إهمالاً فاضحاً فأدى ذلك إلى تهقيرنا وانحطاطنا . فان كل شيء يقوم الآن على قواعد العلم حتى الأدب لا يمكنه أن يستقيم إلا إذا كان له أساس من العلم وذلك علة تهقيرنا في الآداب التي قصرنا عليها اهتمامنا . فان أدباءنا إلى الآن لا يطرقون الموضوعات الاجتماعية العلمية فيدرسون حالة فلاحنا دراسة علمية ويطلبون اصلاح حاله مثلال بل هم يؤلفون عن عصور الخلفاء وأعجاز القرآن بينما نحن نجعل حقيقة الحركة العربية مع أن التاريخ أصبح الآن علماً بكل ما في كلبه علم من معان . والأدب أصبح علماً يقوم على أساس من العلوم الكونية والطبيعية وعلى المشاهدات المحسوسة لا على الأوهام والخرافات

« وهامم الأوروبيون يريدون أن يجعلوا من كل شيء علماً . فهذه الفلسفة ما تقدمت حديثاً إلا حين انسلخت عن الآداب وادخلت في دائرة العلم لها ما لغيرها من العلوم من معامل وتجارب ومقارنات

وبراهين . وهذا علم النفس صار من زمن بعيد علماً له معامل كسائر العلوم وبلغ من التقدم أنه صار أساس الأدب الحديث فكل الروائيين والشعراء الآن علماء . نفس بلا مبالغة بيننا أدبنا ليس له أساس إلا لعلم الخرافات فصارت الفلسفة علماً والأدب علماً . كذلك قل في السياسة والصحافة والتاريخ ولا يزال نحن هنا نعيش في القرن الثاني للهجرة نفسير الالفاظ وننشد المراثي والمدائح بينما الأوروبيون يقلبون ظهر الأرض باختراعاتهم واكتشافاتهم فهم يحاربون الأمراض ويعملون على تقريب اليوم الذي يصبح المرء فيه في مأمن منها كلها . وهم يخترعون الغازات السامة بيننا دأبنا السلام الأجوف في كل شيء . نطالب به .

ولا تظن أيها القارئ أن ما قرأته هنا هو من قلبي وإن كنت قد اعتدت مني على مثل هذه اللهجة حتى السأم . ولكننا منقولة من كاتب يجب أن تحبه هو « حسن عارف » ويجب أن تشجعه على المضى في هذه النزعة الشريفة التي يراد منها الخير لبلادنا . فنحن منكوبون حقاً بالأدب السخيف أدب الالفاظ واللعب والمهو ودرس السلف كأننا أمة بدوية تعيش في وسط الصحراء ولا تتصل بالحضارة الحديثة ولا يهملها إلا قصة رويت قبل ألف سنة أو بيت شعر هو نكتة من نكات المغفلين وقد أثلجت صدرى هذه المقالة التي تدعونا إلى هجران الأدب السخيف والنزوع إلى العلم وقلبت الجريدة التي بها هذا المقال فرأيت مقالا آخر عن المستر فورد خلاصته أنه ينو أن يحدد مصانعه بحيث تخرج في اليوم — أجل في اليوم الواحد — ١٢٠٠٠ أتومبيل . فكانت هذه المقالة الثانية برهان صدق المقالة الأولى وأكبر دليل على أن النزعة العلمية هي التي تعمل للرقي بيننا النزعة الأدبية كما هي بلادنا لا تعمل إلا للانحطاط

مندسنة أو أكثر مات رجل انجليزى يدعى الاستاذ يرى ألف كتاباً غريباً يبحث عن فكرة الرقي والتقدم كيف نشأت ومتى نشأت ؟ فانك إذا استقرت أحوال الأمم القديمة لا تجد لهذه الفكرة أثراً إذ هي حديثة جداً قد لا يزيد عمرها عن مائتي سنة . والذي يبدو للباحث أن هذه الفكرة الشريفة التي تجعل الانسان ينزع إلى تحسين نفسه وبلدته ووطنه لم تنشأ إلا من الخترعات العلمية . فان الانسان ابن العادة فإذا هو رأى التبدل والتحسين في الآلات نزع به ذلك إلى التفكير في التبدل والتحسين في المؤسسات العمرانية . فالعلم هو أساس فكرة التقدم والاصلاح أما الأدب فما كان له هذا الفضل قط . ولهذا السبب أصبح أدباء أوروبا علماء بل منهم من لا تعرف هل تسمه بالعلم أو الأدب ، مثل ما يترنك مثلاً فانه يؤلف كتاباً عن الارضة وكيف تعيش وبعد ذلك يؤلف درامة عن المسيح

تربية الكبار

ليس الصبيان وحدهم ولا الشبان وحدهم هم الذين يحتاجون الى تربية . والفرق بين الاثنين أن الصبي أو الشاب يحتاج الى معلم يعلّمه ويرشده أما الكبير فيجب أن يربى نفسه واذكر بهذه المناسبة رجلاً قد ربى نفسه ونجح في تربيتها أعنى به المستر ولز الانجليزى . فقد كتب يصف أحد أبطاله وأظنه كان يصف فيه نفسه بقوله :

« كان في عقله من التفرد ما يكسبه حرارة ودقة وكانت له مع ذلك ابتكارات ونزعة سخيقة وكان يحب الكلام والكتابة وكان يتكلم عن كل شى وكان يفكر في كل شى . ولم يكن في وسعه أن يمتنع عن تشمئ أثرك وهو يتبعك . فكان هو يتشمئ أثر الحقائق . وكثيرون من الناس يعتقدون أنه مفيد منير وقليل منهم لا يطيقونه وكان حافلاً بالأفكار عن السلالات البشرية والامبراطوريات والنظام الاجتماعى والمؤسسات السياسية والحداثى والاتومبيلات ومستقبل الهند والصين وفلسفة الجمال وأميركا وتربية النوع البشرى على وجه العموم »

وولز رجل فوق الستين ولكنه دائب الدرس والتفكير والتأليف وقد تطور في الثلاثين السنة الماضية واعتقد انه سيتطور في المستقبل . وتطوره هذا يدل على أنه يربى نفسه وهو كبير بل وهو شيخ وإذا نحن تتبعنا بعض مؤلفاته منذ شبابه الى شيخوخته علمنا مقدار تطوره ومقدار عناية بنفسه في تربية نفسه

فقد بدأ حياته بكتاب عن تشرىح الارنب وبعض الحيوانات لانه هو نفسه تربى تربية علمية ثم عمده الى الادب فكتب بعض القصص والمقالات ومنها مقالة هزأ فيها بالاشتراكية والقائلين بها ثم بعد ذلك بسنوات عاد فألف أحسن كتاب في الاشتراكية يدعو اليها ويوضح أنظمتها ويقول بضرورتها الحتمة . ثم جاءت الحرب فأخذ يقول بضرورة حكومة للعالم ويدعو الى حل الامبراطورية البريطانية مع أنه هو انجليزى . ووضع تاريخاً ضخماً للعالم باعتباره أمة واحدة

ولاح امامه درس جديد وهو النفسولوجية الحديثة التى ابتدعها فروود فدرسها والى قصة بل قصصاً عنها . حتى آخر النظريات التاريخية الحديثة القائلة بأن مصر هى أصل حضارة العالم أخذ يدرسها وينصح لقراء قصصه بقراءة مؤلفات اليونان سميت مهتدع هذه النظرية

فهذا كاتب يتطور مع الزمن ويدرس كل شى من الاتومبيلات الى مستقبل الصين ومن تنظيم الحداثى الى فلسفة الجمال ولا يزال بأن يغير رأيه ودرسه متى ملح قبسا من الحقيقة

فهذا كاتب يتطور مع الزمن ويدرس كل شى من الاتومبيلات الى مستقبل الصين ومن تنظيم الحداثى الى فلسفة الجمال ولا يزال بأن يغير رأيه ودرسه متى ملح قبسا من الحقيقة وما أحرانا نحن بأن نتعهد أنفسنا بمثل هذه التربية فنعيش مدى حياتنا طلبة في جامعة العالم ندرس وتتفقه في حقائقه وتتطور في الآراء والمذاهب وننظر في هذه الحضارة التى نعيش بين ظهرانيها فندرس حقائقها وأحلامها وأديانها وآلاتها ومؤسساتها

والدرس نوع من التوسع ولذلك فإن طالب المعرفة كطالب المال لا يشبع لأن كلا منهما يشعر بنوع من السيادة في هذا التوسع يشبه الملوكة إذ له شى من كبريائها وكرامتها . ولكن قلباً تجد رجلاً يعتمد الى الدرس والتثقف مالم يكن قد نزع هذه النزعة وهو شاب . ولذلك فإن تربية الرجل كبيراً تحتاج الى تربيته صغيراً بحيث ينزع نزعة الدرس

فيجب أن نقصد من تربية الصبي الى غرضين : أولهما أن نغذوه بالمعارف العامة . والثانى أن نغرس فيه هذه النزعة الى التوسع الذهنى بحيث يكون هو المعلم لنفسه في المستقبل حتى يدأب في تربية نفسه وهو كبير

وأنه لمن المأسى العظمى أن يرى الانسان شاباً أو شيخاً وهو قاعد « يقتل » الوقت لانه لا يعرف كيف يشغل ذهنه بما يفيد ويرفعه من اكتساب المعارف والتفكير في حقائق هذه الدنيا التى هى وطننا الاكبر والتى يجب على كل منا أن يدرسها ويبحث في تنظيمها وتخليصها من الاغلال القديمة

تحديد النسل

إذا كان أهم أسباب الحروب هو فيض السكان على الاوطان فان أنجع علاج للحرب وخير ما يدرأها عن الناس هو تحديد النسل بحيث لا يزيد السكان على الوطن الذى يعيشون فيه فيمتنع الازدحام الذى يدعو الى المهاجرة أو الى الاستعمار وبذلك تقل المنافسة بين الامم وتتفق الحروب والامم الآن ليست عظيمة بعدد سكانها بل بمقدار ما فيها من صحة ونظافة وحضارة وثقافة فهذه الهند مثلاً يزيد سكانها عن ٢٢٠ مليون نفس ومع ذلك فان أسوج التى لا تبلغ ستة ملايين نفس أعظم منها وأقدر على التمتع بالحياة منها ولو نازلتها في حرب لغلبتها ولو تبارى الاثنان في علم أو أدب أو جمال أو فن أو حضارة لبزت أسوج الهند وأربت عليها

فكثرة السكان الآن لاقية لها البتة وانما العبرة بما عند الامم من وسائل لتعليم هؤلاء السكان وما عند هؤلاء من اخلاق وعلم وصحة . وأكثر الامم حضارة هن أقلهن نسلاً فأوروبا أقل نسلاً من آسيا أو أفريقيا ولكنها تفوق الاثنتين في القوة والذكاء والجمال وكل ماله قيمة انسانية وكل

أمة كثة ما كانت تنقسم طبقات أرقاها أقلهن نسلا أيضا. ففي أوروبا نفسها يتكاثر العمال ويزداد نسلهم بينما الطبقة السائدة الحاكمة التي تقبض بأيديها على المال والحكومة لا تكون أبدا إلا قليلة النسل

وقد كان المرجفون الذين يحبون من الأخبار ما يرجف ويرعب ينعون على أوروبا قلة موليدها ويذكرون آسيا وأن أهلها يتكاثرون بحيث قد يطنى سيلهم على أوروبا فيغرقها ويبيد حضارتها. وكان الامبراطور غليوم يؤمن بهذه السخافة حتى أنه رسم صورة رمزية تمثل هذا الخاطر المزيج فتناقلها الصحف وتذاكرت الآراء فيها

ولكن اتضح بعد تمحيص الآراء في هذا الموضوع ومشاهدة الآثار التي تخلفها الحضارة الأوروبية في آسيا أنه كلما ارتقى الاسوي وتثقف رأى من هذا الارتقاء نفسه داعيا يدعو إلى تحديد نسله. ولذلك عاد الأوروبيون فاطمأنوا وعرفوا أنه مادامت آسيا في همجيتها وتقيدها بقيود الأسلاف فانه لا خطر على أوروبا من كثرة نسلها لأن من الجهة الواحدة معظم هذا النسل يموت لقلة العناية الصحية به ومن الجهة الثانية تحتاج الحروب الحديثة إلى صناعة لم يتثقف الاسوي بعلمها ثم هي أيضا إذا تحضرت وعرفت الصناعة فانها تعاد عادة تحديد النسل فلا يخشى عندئذ من تكاثرها لأن تحديد النسل نتيجة للرق والحضارة إذ هو في الواقع ضرب من التبصر والعناية بالاولاد وقد شرعت عائلات كثيرة في مصر تحدد نسلها وتمنع تزايد الاولاد حتى يستطيع الابوان تعليمهم وتهيتهم بقليل من المال للدخول في معترك الحياة. ونحن يجب ألا نخيفنا هذه النزعة إذ خير لنا أن نكون أمة صغيرة راقية مثل أسوج من أن نكون أمة كبيرة متأخرة مثل الهند أو الصين وجسم الانسان بعد كل ما يقال هو ملكه وهو أعرف الناس بمصلحة أولاده وأسدهم رأيا في تقدير حاجاتهم فإذا وجد أن أمواله لا تكفي لتعليم عدد كبير من الاولاد وتربيتهم التربية الصحية وتنشئتهم النشأة اللائقة بهم وجب عليه أن يقتصر على عدد صغير. لانه كما أن كلا منا يجب عليه أن يتبصر لمستقبله كذلك يجب أن يتبصر لمستقبل أولاده. ثم يجب ألا ننسى أن الهناء العائلي لا يتم الا اذا كان الابوان في راحة بال وراحة جسم من جهة أولادهما. وقليل من الامهات من يستطعن أن يلدن ويربين عددا كبيرا من الاولاد. فالولادة نفسها مجهود كثيرا ما يقضى على حياة الوالدة وتربية الطفل مجهود آخر يضئ الاعصاب ويهد القوى. ولذلك فلا اعتدال في النسل ضروري للام للمحافظة على صحتها وضرورة للاديب لكي يستطيع أن ينفق على تربية أولاده

الايان يرقى الانسان

لما أوشكت الثورة الفرنسية أن تقع وانشق الناس فريقين فريق كبير هو الأمة كلها تقريبا وفريق صغير هو الملك والنبلاء، كان بين هؤلاء النبلاء رجل يدعى المركيز دوكوندورسيه. وكان مع أنه نبيل نشأ في بيت له تليد في النسب والحسب قد انضم إلى الشعب فأخذ يعاون رجال الموسوعة في نشر الأفكار الحرة ودمل على تقويض الطبقة التي ينسب هو إليها وصار ينفق ماله وجهاه وعلبه لكي يذب الشعب إلى الثورة

وجاءت الثورة فاختلط فيها الجنون بالعقل وقام الناس على النبلاء يقتلونهم وينهبون أموالهم وكان المركيز دوكوندورسيه من هؤلاء النبلاء له شارتهم وعليه ساءوهم فكان على الرغم من حبه للشعب وسعيه لانقاذه من الجهل والظلم معدودا بينهم فقتله الثائرون ونهبوا أمواله

والآن قد تظن أيها القارئ أن هذا الرجل قد مات يائسا من تقدم الشعب وركيه إذ أعطاه صحة وذكاه وماله ولم يأخذ عوض ذلك شيئا ثم قتل على يديه. ولكن الواقع أنه عاش ومات مرتاح البال يؤنس رجاء عظيم هو رجاء التقدم المطرد للنوع البشرى. فقد كتب قبل وفاته يقول: «لم تضع الطبيعة حدودا لآمالنا وحسبنا أن نتخيل تقدم النوع البشرى بعد انطلاقه من السلاسل وهو يسير بقدم ثابتة عن طريق الحق والفضيلة والسعادة فنجد من هذا المنظر ما يعزى الفيلسوف إلى الأخطار والجرائم والمظالم التي لا تزال تدنس وجه الأرض وتنزل بها المصاعب، يمثل هذه العقيدة مات المركيز كما يموت الشهيد من أجل عقيدته الدينية بفرق واحد بينهما وهو أن الأول يريد الجنة في هذا العالم ويعمل لتحقيقها والثاني ينتظرها في عالم آخر بعد الوفاة وليس شيء يخفف عنا آلامنا ويذكر في أعيننا تلك الكوارث العديدة الحافل بها تاريخ الأمم سوى هذا الايمان بأن العالم يتخلص بالتدريج من الأوهام والمظالم فيخرج من الايمان بالأساطير إلى الايمان بالعلم ومن الاستبداد إلى الدستور ومن المرض إلى الصحة ومن الضعف إلى القوة ثم مثال هذا النبيل الفرنسي يخفف عنا أيضا ما نجده في أيامنا من قوى تعمل للشر وتناهض ما فينا من خير وبر فإن صحيحة الإصلاح التي نصيح بها على ما فيها الآن من ضعف ووهن ستفوز في النهاية لأن الرقي طبيعة البشر التي لا يحيد عنها. وليس البرهان على ذلك بعيدا عن الإثبات أو مستعصيا على الافهام، فإن نظرية التطور نفسها هي نظرية الرقي ولذلك أطلق عليها اسم «نظرية النشوء والارتقاء» عند ما نقلت إلى لغتنا. فإذا كان تاريخ ألف مليون من السنين يدل على الرقي في الماضي فمن التعسف أن نحسب أنه انتهى وانقطع بوجودنا. فإن عناصر هذا

الرقى كامة في كل منا حتى المستحرق نفسه إنما ينتحر لأن نفسه تنزع الى الرقى والمجنون نفسه يحن بأشياء تحمله على أجنحة الرقى والعظمة فيتصور نفسه ملكاً أو أميراً أو عظيماً فالرقى كامن في نفوسنا ينطق به تاريخنا الماضي وهذا هو ما يؤنس قلوبنا ويجعلنا نرضى بالتضحيات كلما سمعنا عن الاستبداد يبطش بالدستور أو الظلم يحجور على الحق أو البغض ينتصر على الحب أو الاثرة تفوز على الايثار وسرى هذا الوطن كما نرى غيره من أوطان العالم حراً تعيش فيه الامهات حرائر متعلبات ويعيش فيه الرجال علماء أيقاظاً يدرسون هذا العالم ويتمتعون به ويقصرون همومهم على اسعاده . ولولا هذا الايمان بأن العالم يرتقى لما كان لحياتنا معنى أو مبرر للبقاء . وفي هذا الايمان قوة تؤاتينا على الخير والبر . ثم في ذلك كله شعور بالسعادة لانا نؤدى عملاً يرتاح اليه ضميرنا ويتفق وما في صميم نفوسنا من نزعات وهذا بخلاف ما اذا عملنا للشر وناهضنا التقدم فاننا نشعر بأننا نكافح في نفوسنا نوازع الرقى فيأخذ اليأس مكان الرجاء ونقيم حياتنا على مضض وعنت فكلنا يجب أن يكون هذا المركز دوكوندورسيه يعمل لرقى الشعب ويؤمن بهذا الرقى فانه حقيقة لاشك فيها وأول ما نرى برهانه في أنفسنا إذ لا يمكننا أن نفكر في ترقية الناس ما لم نرتق نحن أولاً . ولا عبرة بعد ذلك بالعوائق فان النهر العظيم لينحرف بعض الانحراف في مجراه ولكن بالغ مصبه

في الحب

من القصص العظيمة التي مثلها المستر اتكنز في القاهرة قصة « تاجر البندقية » وفيها يخاطب اليهودى المسيحيين الذين يتعصبون عليه ليهوديته فيقول موضحاً لهم أن اليهودى لا يختلف من المسيحي « أليس لليهودى عينان ؟ أليس لليهودى يداً وأعضاء وحواس وعواطف وشهوات ؟ أليس يطعم بالطعام ويخرج بالسلح نفسه وتنزل به الأمراض نفسها ويشفى بالوسائل ويدفأ ويبرد في الصيف والشتاء كالمسيحي ؟ أليس يخرج منا الدم اذا وخرنا ؟ وألسنا نضحك اذا جشنا ونموت اذا سمعنا ؟ »

وما أحرانا بأن نذكر كلمة هذا اليهودى حين يطعمو بنا التعصب القومى أو الدينى . فنحن كلنا اخوان في هذه الدنيا وخير لنا أن نتحاب من أن نتكاهر لانا بالحب نستطيع أن نتعاون وبالحب نستطيع أن نعمل ما لانعمله بالبغض والكراهية

ويقص الانجليز قصة يستخرجون منها عبرة الحب . وهى أن أحدهم خرج في يوم قد كثف

ضبابه . والأشباح تتجسم في الضباب حتى يهول منظرها على بعد . فرأى وهو سائر في طريقه شبحاً كبيراً خفيفاً فارتاع منه . فلما اقترب منه قليلاً تبين له أنه رجل . فلما واجهه عرف أنه أخوه وهكذا نحن في هذه الدنيا نحسب الناس غرباء عنا فنخشاهم وتتوجس منهم ولكن الواقع اننا نحن وهم اخوان بل اخوة قد اتصلت دماؤنا بدماهم . فاذا حسب المصرى مثلاً وأحصى مقدار ما دخله من دماء الامم الاجنبية في نحو أربعين قرناً مضت لوجد أنه خليط من الدم الرومانى والعربى والانجليزى والفرنسى والسورى والصينى والتركى

فنحن لسنا أبناء مصر فقط بل أبناء هذه الدنيا واذا كانت مصر وطننا الأصغر فالعالم وطننا الأكبر . ويجب لذلك أن يكون الحب والتعاون وسيلة التعارف والمعاملة بيننا وبين الناس سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين . وبهذه المناسبة نذكر كلمة للشاعر الانجليزى المعروف بتنام حيث يقول : « ان سبيل الراحة لنا هو أن نعمل لراحة الآخرين . وسبيل الراحة للآخرين انما يكون بأن نبذل لهم كائناتنا نجهم . وانما نبذلهم كائناتنا نجهم اذا أحببناهم بالفعل .

وهذا كلام صريح وحقيقة تتضح لكل من اختبر الناس . فاننا لا يمكننا أن نرتاح الى الدنيا والناس ما لم تكن علاقتنا بهم علاقة الحب . وراحتنا لا تقوم الا براحتهم

ولكن الوحش القديم لا يزال للأسف حياً في الانسان فازلنا نفكر في التنازع بدلا من أن نفكر في التعاون ولا يزال التنازع لان خطة التعامل الرسمية بين الدول وأفظع ضروب هذا التنازع هو الحرب : ولكن العالم كله يسير من التباغض الى التحاب ومن التنازع الى التعاون وينهزم الوحش في الانسان رويداً رويداً . ففي العالم الآن محاكم تحاكم أمامها الدول وفي كل أمة متمدنة جمعيات تتعاون على البر وتنشر العلم والصحة وترفع الكرامة الانسانية

ولا عبرة بعد ذلك بأن تبقى في عصرنا أشياء من متخلفات الماضي كالاستعمار والسجون والرقى الاقتصادى فان كل هذا سيزول لأن الحب سيتغلب على البغض وسرى أوبرى أولادنا يوماً ما حل الامبراطورية البريطانية واستحالة السجون الى مدارس ومستشفيات وارتقاء العامل الى حيث يملك كل ثمرات عمله بدون أن يكون فوقه واحد يعيش من كده ولا يعمل شيئاً لفائدة الناس

ولكن الحب للأفراد فيما بينهم ليس في ذاته صدقة يتصدق بها الواحد على الآخر بل خطة تعود بالراحة والسعادة على من يمارسه : فهو لذلك يستحق الثمن الذى ندفعه بما نكلف أنفسنا من معاونة الناس وابداء الحب لهم بخدمة النزيهة التى تدل على أن ما نظهره لهم هو طبق ما نبطنه

الطفل والطفولة

ليس شيء في العالم يبلغ في الحلاوة منظر الطفل وهو يتلطف على صدر أمه وينظر إليها نظرة فاتنة تنسيها كل ما تعالجه في سبيله من آلام . وإذا كان الجمال يتمثل في المرأة أو الرجل فالحلاوة تتمثل في الطفل الذي تكمن في نفسه عناصر الانسان الراشد . وليس شيء ألد عند الام أو الاب من ان يربا هذه العناصر المندمجة في طبيعة الطفل تفتح رويداً رويداً حين تتشوف هذه النفس الصغيرة الى الرجولة أو الانوثة القادمة . فيرى الجواد لأول مرة في حياته ويتأمل من ذنبه الى رأسه ويسمع عن الكذب ويدرك كنهه لأول مرة ويأخذ في اكتشاف هذه الدنيا قطعة بعد قطعة وهكذا الى ان يشب الطفل فتتكشف طبيعته عن انسان سوى

ولكن اذا كانت الطفولة حلوة بطبيعتها فان عندنا من العادات ما يحيل هذه الحلاوة الى بشاعة حين نرى الطفل وقد كساه الذباب أو حين يأكل الرمدعيه أو حين يتقلب في الاوساخ ولمثل هذه الحال الاسيفة أقامت الليدي لويد سوقاً خيرية للعناية بالاطفال فاستحقت بذلك الشكر الخالص من كل مصري

ولكن العناية بالطفل يجب أن تبدأ قبل ولادته . فيجب ان تمنع الفتاة الصغيرة من ان تلد بل من ان تتزوج لأن صغر سنها اذا لم يكن سبباً لعسر ولادتها ووفاتها كما يحدث كثيراً عندنا وعند الهنود فانه من اكبر أسباب الاهمال لصحة الطفل وتنشئته النشأة الحسنة في جسمه وذهنه ثم يجب ألا يتزوج الا من كان سليم البدن حتى لا يولد الطفل وهو يحمل عبء أبويه من الامراض التي نزلت بهما لاهمالهما السابق

ويجب ان نذكر أن أثمن ما في الامة من ثروة هم أولادها فاذا نشأوا على التربية الحسنة والخلق العظيم والذهن المثقف كانوا قوة لا تعادلها في جلب الثروة واستكثارها كثرة الاراضي أو المناجم أو المصانع . فان رأس المال الحقيقي لكل أمة هم أولادها . ومن الغريب ما نراه في مصر ان معدل المواليد عال جداً وكذلك معدل الوفيات في الاطفال . بل يحدث في أشهر الربيع عندنا ان تزيد الوفيات على المواليد في المدن الكبرى وهذه الزيادة ترجع الى ثقل الوطأة التي تنزل بها الامراض على الاطفال فتحمل أجسامهم الصغيرة الى القبر بعد آلام لا تطيقها هذه النفوس الغضة في الامعاء والرأس . وعلة هذه المآسى كلها جهل الآباء والامهات . وهذا الجهل متراكب فهو من ناحية جهل بتحديد النسل حتى يزدحم البيت بالاطفال فلا تقوى الام على

تربيتهم ولا تقوى الاب على العناية بهم لقلة دخله ثم عندنا ايضاً جهل الام التي تقدم الطعام الجامد للطفل قبل ان يتم سنته الاولى فلا تقوى أمعاؤه الرقيقة على هضمه فتستحيل ثعابين تتلوى في بطنه حتى يموت . وأيضاً هناك جهل الاب الذي يتزوج وهو لا يبالي بمرضه ثم هناك الظامة الكبرى في زواج الفتاة وهي بعد صغيرة لا تصلح للامومة

فكل هذه عيوب يجب على الآباء اصلاحها . وهناك عيوب أخرى يجب على الحكومة ازالتها نغني بها كثرة الذباب . فهذه الحشرة الخبيثة تقتل عشرات الالوف من أطفالنا كل سنة . وهي قليلة الآن في المدن الاوربية لان الانومييل قد طرد الخيول من المدن وزال بذلك روثها الذي كان الذباب يبيض فيه . ولكن الخيول ما تزال تملأ مدناً وتدنس شوارعنا بروثها . ان الطفل حلاوة مجسمة وهذه الحلاوة لا تتفق والاوساخ والامراض

الحكم بالاعدام

كتب بعضهم وصفاً للطرق الشائعة في اعدام المجرمين على المشنقة فاجاد الوصف وأوجع القراء وأوسعهم ألماً وخجلاً

ولا أظن أني أفرد في الشعور بالالم والخجل كلما قرأت هذا الوصف فاني لا أعتقد أني أرق احساساً من غيري من القراء . فالحكم بالاعدام وتنفيذ الاعدام هملان لا يمكن أن يؤديهما انسان الا وهو كاره بل وهو مضطر . بل لقد حدث من مدة قريبة ان الجلاد في باريس قد اقبل من منصبه فرغب في الظهور على المسرح فطرده الجمهور ولم ينفعه اعتذاره بأن الحكومة لم تعين له معاشاً بعد إقالته . وذلك لاننا في أعماق نفوسنا نكره كل من يلطخ يده بالدم

ومع أن العادة تيسر كل شيء وتسهل الصعب فاننا ما زلنا نتألم على الرغم من تعودنا قراءة أخبار الاعدام كلما ذكرت الصحف اعداماً جديداً لاحد الاشقياء ونحن جديرون بالفخر لهذا الالم لانه يدل على أننا قد ارتقينا حتى صار يأبى ضميرنا أن يقنع بحجة العدالة في هذا الانتقام الصريح فليس شك في أن الاعدام انتقام وانه برهان على العجز في معالجة القتل . فنحن بالطبع لانقصد الى ترقية القاتل باعدامه وانما نقصد الى المقاصة التي نقول اننا تركناها للاسلاف القدماء وبقاء الاعدام الى زماننا هذا وصمة لكل انسان وخاصة اذا علمنا أنه الغي في عدة امم فلم يزد جرائم القتل بالغائه

واذا كان كل انسان منا يتألم كلما سمع بخبر الاعدام واذا كان جميع من يزاولون تنفيذ الحكم أو يحضرونه يشعرون بالخجل ويخرجون وأعصابهم ممزقة من منظر يغم على أذهانهم ويملاً

نفوسهم بالكرب كأنهم هم المسئولون عن هذه الجناية فلم لا نلغى هذه العقوبة ؟

اننا نعيش الآن في عصر تدعونا مظاهره كلها الى الشك في مبادئه وأغراضه وأخلاقه ونزعاته فهل يجوز لنا الشك في كل شيء مع الجزم بفائدة الاعداد وحده ؟ مع ان الاعداد حاسم لا يمكن الرجوع فيه أو التعويض منه . والانسان عرضة للخطأ في كل أحكامه وليس شيء في العالم نحن متأكدون من صحته فيجب لذلك أن نجعل لأحكامنا مجالاً للراجعة والتحرير ولو رجعنا الى أحكام الاعداد الماضية التي ذكرها التاريخ في الاضطهادات الدينية والسياسية العديدة لكانت حوادث الاعداد أكبر وصمة في هذه الاضطهادات

ان كل من يدري شيئاً من أسرار النفس البشرية يعرف ان الوحش القديم لا يزال حياً في كل منا وانه عند ما يطمو بأحد في نزوات الشرفانه لا قبل له في رده . ومهمة الحضارة استئناس هذا الوحش وتذليله . ولكنه يجمع أحياناً ويخرج على العقل وعندئذ نرى القاتل

ولكن تذليل هذا الوحش الكامن بحكم الوراثة في نفوسنا يحتاج الى عناية بالوسط فاذا كان سيناً فان الارجح أن الغرائز الشريرة الموروثة تنقلب وتنطلق . ومن هنا قال رسكين الاديب الانجليزي المعروف ان العقاب اللائق لاية جنائية تقع ألا يؤخذ الجاني نفسه بل يقترح على سكان المدينة التي يقيم فيها ويؤخذ من تصفيه القرعة فيعاقب . وهو يعني بذلك أن الجناية تثبت من الوسط الذي يعيش فيه الجاني فكل من في هذا الوسط مسئول عنها ولذلك اذا أردنا العقاب فلنقترح عليه ما دمنا كلنا مسئولين

وخير من معاقبة القاتل بجناية قتل أخرى أن نرقى هذا الوسط فننشر التعليم والحرية ونقل التفاوت في الثروة . ومع كل ما نقوم به من ترقية وتفرج للعواطف المحبوسة فان الوحش القديم سيظمونا أحياناً وينزو نزواته الشريرة فنرتكب جريمة القتل في أنفسنا وفي غيرنا . ونحن نشفق على المنتحر ونعرف أن أزمة الاعصاب التي وقع فيها انتهت بالقضاء على نفسه ولكننا لانشفق على القاتل مع أن أعصابه قد تكون أحياناً في أزمة أشد من تلك التي تصيب المنتحر وفي السجن المؤبد بدل من القتل

قلب المرأة

من مدة قريبة شكت زوجة زوجها الى المحاكم الانجليزية تطلب الطلاق لأنه زنى بامرأة أخرى . ثم رأت المحكمة ستطول فاستعجلت القاضي في الحكم بالطلاق وتعللت بأن التأخير

سيؤذي المرأة الزانية لأنها قد تلد قبل أن تتمكن من الزواج بزوجها فيولد ابنها وعليه وصمة فهي لذلك تستعجل القاضي حتى يتمكن زوجها من تزوج هذه المرأة وحتى يولد الولد في بيت شرعى ولادة شرعية شريفة

فهذه الحادثة الصغيرة تبعث الانسان على التفكير في قلب المرأة وهل هي تنزع الى الخير أم الى الشر اذا نالت حريتها . والواقع أن المرأة لم تكشف عن طبيعتها قط . فقد عاشت الى الآن في ما يشبه الرق الذي تختلف درجاته بين أمة وأخرى . وقد لا يقوم هذا الرق على الشرائع المدونة ولكنه يقوم على رأى العام ولهذا قوة لاتقل عن قوة الشرائع لانه يقسرننا بعامل الحياء واللياقة على أعمال ومضايقات لاتستطيع الشرائع أن تقسرننا عليها بعامل العقوبة . وما دامت المرأة غير حرة فما يبدو منها الآن من دناءة تبعثها الغيرة ليس حجة عليها وليس دليلاً على أن نفسها مطبوعة على الدناءة

والواقع الذي نراه الآن أننا نجد عند الرجل من الارحية والتساح والصراحة والبر أكثر مما نرى عند المرأة . ولكن الارجح أن ذلك لا يرجع الى اختلاف في طبيعتي الرجل والمرأة وانما يرجع الى اختلاف الاحوال عند كل منهما . فالرجل يستشعر القوة والاستقلال ويرى أبواب الرزق مفتحة أمامه والفرصة متاحة في كل وقت فنفسه تسخو بما لا تسخو به نفس المرأة لانها ترى العيش ضيقاً أمامها وحريتها محدودة والرأى العام يمنعها من مزاوله الاعمال التي يعملها الرجل

وأرجح الظن أن المرأة عند ما تنال حريتها وتعتاد هذه الحرية مدة ما تذهب عنها آثار الرق السابقة ونرى عندئذ أمثال هذه الانجليزية التي لاتنسى وهي مكسورة القلب من الزوج الخائن أن هناك ولداً يوشك أن يدخل هذا العالم بغير رغبته ويوصم بوصمة الزنا طول حياته بغير جريته فهي تتقدم لانقاذه مع ما تشعر به من غيرة تأكل القلب وتغم على الذهن وما أحرانا بأن نعمل كلنا لكي نبلغ هذه الحالة ونرى المرأة مستعدة لمثل هذه المواقف الشريفة . وانما يكون ذلك اذا علمناها حتى يتسع الافق الذي تنظر اليه في هذا العالم . فهو الآن محدود عندنا بحدود البيت ولكن البيت مهما أكبرنا شأنه وتمجيده لا يزال ضيقاً والمرأة انسان يدخل هذا العالم لكي يعرفه ويتمتع به . فيجب أن يعدو نظرها حدود البيت ويجب أن تدخل غمار الاعمال كالرجل ويجب أن تستشعر القوة والاعتماد على النفس حتى تصرح لنا عن غفو نفسها بلا مواربة أو مداواة

وبمثل هذه الحرية التي تورث المرأة القدرة والكفاية يتحول الزواج من حرفة تطلبها لكي

تعيش منها وتنتظر الى نفسها فيها كأنها خادمة للرجل الى شركة حقيقية قائمة على التساوى والاحترام المتبادل بل الحب المتبادل بين الزوجين . فالحب لا يكون ثمرة القسر والاضطرار وإنما يجب أن يخرج من القلب عفواً . ولكن المرأة لن تكشف عن قلبها حتى تستشعر القوة أما اذا كانت ترى في نفسها العجز فانها تضطر الى أن تتبع قلبها لمن يدفع أكبر الاثمان فهي عندئذ توارب وتداجي وتتزوج على سبيل الاحتراف تشدد من الزواج عيشاً فقط

فلكي تكون المرأة صريحة بل لكي تسمو الى الفضائل التي نعزوها عادة الى الرجل يجب أن تتحرر وتستقل بالتعليم وبالدخول في غمار الاعمال . وعندئذ نرى ان في المرأة شجاعة وبر وتضحية وتشبه ما رأيناه من هذه المرأة الانجليزية عند ما ضحت بغيرتها برأ بطفل لم يولد

التغلب على المصاعب

أذكرني حادث تعيين الدكتور طه حسين عميداً لكلية الآداب ثم استقالته منها ، بحادث آخر في إنجلترا يصبح أن يكون موضوع هذا المقال حتى يرى القارىء كيف يتغلب القلب الكبير والهمة الشماء والنفس العالية على المصاعب والعقبات

فكما أن العمى لم يمنع الدكتور طه حسين من التفوق حتى يبلغ عمدة كلية الآداب فكذلك هو لا يمنع الآن الكابتن أيان فريزر من أن يكون نائباً في البرلمان الانجليزي . ولكن أعظم مثال للهمة تستهين بالعقبات وتتخطاها هو بلا شك مثال هنرى فوست . فقد صار هذا العظيم مديراً للبريد في بريطانيا العظمى مع أنه كان أعمى

فقد ولد هذا الرجل سنة ١٨٣٣ فلما شب التحق بجامعة كمبردج وكان جميل الوجه مديد القامة ذكي الفؤاد وكان مغرماً بالخيال فركب جواده في احد الايام وخرج في جماعة ولكن جواده عثر به فسقط هنرى فوست واصطدم رأسه بالارض صدمة عنيفة فنهض منها وهو أعمى لم يبرأ طول حياته من العمى

ولو أن أحد غيره نزلت به هذه النارلة لاستسلم لحكم القدر وانزوى عن الحياة العمومية وعاش وادعاهاداً في بيته . ولكن فوست لم يكن ليقر بالهزيمة في الحياة ولن ينهزم انسان مادام لا يقر بالهزيمة

وهكذا عمد فوست الى درس « الاقتصاديات » حتى برع فيها وعينه جامعة كمبردج أستاذاً فيها لهذا العلم . وفي أحد الايام في سنة ١٨٦٤ كان في برتيون يتنزه فسمع عن خطبة سيلقيها المرشح للبرلمان عن حزب الاحرار فقصد الى قاعة الاجتماع لسمعها ، فلما انتهى

الخطيب من القاء خطبته وقف فوهت وألقى خطبة على سبيل التعليق والانتقاد للخطيب السابق فاستهوى أفئدة الجمهور حتى اتفق رأى الاحرار على تعيينه هو مرشحاً للبرلمان بدلاً من الخطيب وذلك على الرغم من أنه كان أعمى

ولما صار عضواً في البرلمان أخذ يدرس المسائل السياسية ويدأب في فهم تفاصيلها حتى بلغ من معرفته بشئون الهند أن أطلق عليه اسم « نائب الهند » وكان أكبر الاعضاء همة في ترويج الاصلاح والدعوة الى تحسين الاحوال المعيشية وعرف له الاحرار اخلاصه وذكاه وحمته فعيّنه وزارة غلاستون سنة ١٨٨٠ مديراً للبريد العام وهذا منصب من مناصب الوزارة وأدى فوست واجبات هذا المنصب الاداريه أحسن أداء كما نظن أن الدكتور طه حسين كان يؤدي مثل هذه الواجبات بكلية الآداب لو لم يستقل

والعبرة لك أيها القارىء الآن هي الخلق العظيم الذى يستهين بالكوارث مهما جل خطبها ويتخطى العقبات مهما تراءت عظيمة مخيفة . فهذا العمى الذى يحسبه كل منا أنه أكبر كارثة تنزل بانسان لم يمنع المستر فوست من أن يصير وزيراً للبريد في إنجلترا . وليس شيء أدعى الى تعجيز المرء ومنعه من أن يرقى بنفسه ويتنافس اخوانه من هذه الآفة

فاعتبر ذلك أيها القارىء . واعلم أن الفقر والمرض هما دون العمل في الانتصار على المصاعب والظفر بشار النجاح . ولكن يجب أن يكون لك قلب جرى وهمة شماء ودأب في العمل واقامة على بلوغ الغاية . فانت نفس وجسم معاً . ولكن نفسك أكبر من جسمك كما أنت بصيرتك خير من بصرك ومادامت نفسك سليمة لم يدخلها الجزع أو الهزيمة فان الفقر والمرض والعقبات المختلفة ليست كلها شيئاً أمام الهمة الحافزة التي تستثيرها النفس العالية

فاذا كان الدكتور طه حسين ينال عمدة كلية الآداب واذا كان الكابتن أيان فريزر ينال عضوية البرلمان البريطانى بل اذا كان المستر فوست يرقى الى درجة الوزارة وينال ثلاثتهم هذه المراكز العالية مع آفة العمى التي لا علاج لها فاذا أنت فاعل بنفسك وأنت موفور الصحة كامل البصر ؟

الحق أن في الامثلة ما يحفز الهمم الخاملة ويدعو الى الثقة بالنفس والايمان بأن الارتقاء ليسور لكل انسان حتى مع النقص البادى يكون هذا النقص نفسه حافزاً للنفس العالية على الاجتهاد والتفوق كما هو باعث للنفس الدنيئة على الاستكانة والاعتكاف والفرار من ميدان العمل

فاجعل من نقائصك حافزاً لك يعزبك بالاستكمال في النواحي الاخرى من النشاط وبيعتك على أن تزداد علماً وجاهاً وثروة وخدمة لبلادك . والناس عندئذ يكرمون فيك هذه الهمة التي رفعتك على الرغم من النقص

عبرتان من اعلان

لا تذكر روسيا الآن في صحف أوروبا الا وهى مقرونة الى البغض والحذر والتوجس وقد لا يكون هذا غريباً اذا تذكرنا ما حدث من الانقلابات العظيمة في تلك البلاد . والناس يخشون الانقلابات مهما كانت طبيعتها وغايتها . ولكن تكرار رؤية الشتائم تصب على رأس الشيوعيين متوالية بدون أن يعثر الانسان على كلمة عطف أو رحمة ليس مما يسر النفس لانه مهما أبغضنا الاعداء وخشيناهم فانه من المروءة أن نقرن الى بغضنا شيئاً من الرحمة والعطف

لقد جالت هذه الخواطر برأسي وأنا أقرأ اعلاناً في الصحف الانجليزية من احدى الجمعيات الخيرية تطلب فيه من الجمهور الانجليزى أن يتبرع بمبلغ ٥٠٠٠ جنيه لتأسيس مدرسة في روسيا لتخريج الممرضات . وفي هذا الاعلان عبرتان لكل قارئ مصرى بل عربى

العبرة الاولى هى وضع الندى في موضع السيف أو الحب في مكان البغض . فان الجمهور الانجليزى أشد جماهير العالم كراهية لروسيا التى تهدد الامبراطورية البريطانية وتصارح أوروبا بضرورة هدمها ونحو الاستعمار حتى باتت الهند محفوفة بالجواسيس خشية تسرب الشيوعيين اليها . ومع كل هذا فان هذه الجمعية البريطانية تخاطب في الجمهور عواطف الرحمة والرفقة وتطالبه بالتبرع لتأسيس مدرسة للممرضات في روسيا غايتها تخفيف المرض ومواساة المريض والعناية بصحة الشبان والامهات . فما أشرف هذه الغاية في مثل هذه الظروف وما أجدرنا نحن بأن نفتدى بهذه الجمعية فنقهر في أنفسنا عواطف الشر والعداوة ونغلب عليها عواطف الخير والصدقة ونعمل على الدوام للبر حتى بأعدائنا

هذه هى العبرة الاولى . أما العبرة الثانية فهى أن هذه الجمعية ناشدت في الجمهور الانجليزى الرحمة والبر بحق أولئك الادباء العظام من الروس الذين كانوا سلوى ونوراً وقوة لكل من قرأ مؤلفاتهم . فقد ذكرت في أعلى الاعلان بحروف واضحة أسماء دستوفسكى وتولستوى ونورجينييف وتشيهوف وهم ادياء روسيا الذين تقرأ الآن مؤلفاتهم في كل لغة حية ثم قالت بعد ذلك :

« اتنا مدينون لهؤلاء الروس العظام بما أوجوه الينا من البصر بالحياة والنظر للمستقبل حتى زادوا بذلك ثروة الحياة والتفكير في العالم . وفي مقدورنا أن نرد الى الشعب الروسى بعض هذا

الجليل بأشارة خير قد تساعد على أن تزيل من الجو آثار الخصومة وسوء التفاهم من البلدين . وفن التريض الآن في روسيا متأخر وفي حالة يرثى لها ونحن شارعون في انشاء مدرسة لتعليم هذا الفن يقوم بأدائها معلمون من انجلترا وأميركا . الخ .

وهذه العبرة لها مناسبة خاصة في وقتنا الحاضر . فان جملة عناصر تعمل الآن جادة مثابرة على أن تجعل من الأدب المصرى وسيلة للتعارف بين العالم ومصر . جريدة الاهرام قد أنشأت جائزة لترجمة بعض أشعار شوق الى الانجليزية والفرنسية . ومنذ أيام قدم الى مصر المسيو لوشير ليسعى لدخول مصر في معهد التعاون الذهنى الذى تشرف عليه عصبة الأمم . وقد أقام أخيراً فخر من الاجانب المقيمين في مصر حفلة لتكريم شعرائنا الثلاثة شوق ومطران وحافظ

فهذه كلها ظروف تجعلنا نفكر في ناحية من نواحي الأدب المصرى وهى أن تكون احدى غاياته البر والحب والتعارف بين مصر والعالم كما كان الأدب الروسى بحيث يقرأ الانجليزى أشعارنا فيحبنا ويحترمنا ولا يجعل المدفع والسيف وسيلة للتخاطب بيننا وبينه كلما دب خلاف . ولكن الأدب المصرى في حاجة إلى أن ينزع نزعة جديدة حتى نستطيع أن نعرضه على الاوربيين سافراً بدون أن نخجل منه . فان في أشعارنا للأسف مدائح طويلة لاستبداد عبد الحميد وهذه لو قرأها الاوربى لكرهنا واشتأز منا بدلاً من أن يحبنا . فان الاوربيين والعالم كله يحترمنا لاننا أبناء أولئك الفراعنة الذين اخترعوا الحضارة الاولى للعالم وما زالت آثارهم تبعث الدهشة والعبرة . ولكن مصر الحديثة تحتاج الى أدب جديد يكون صورة لنفسها وسجلاً لآمالها يقرأه القارئ الفرنسى أو الألمانى أو الانجليزى فيسربه ويتفجع ويزيد آماله رحابة ويقوى فيه عواطف الحب والبر . ومثل هذا الأدب لم ينشأ بعد

التسامح الدينى

كلما احتدت المناقشة بين خصمين على صفحات الجرائد وشعر أحدهما أنه مغلوب مفحم عمد الى الآخر فاتهمه بأشياء تعدو حدود المناقشة قد تكون تهمة الكفر احداها ولو أن أحداً اتهم آخر في أوروبا بمثل هذه التهمة لعد هذا منه نهاية الوقاحة لان العقيدة الدينية تدخل في باب الضمائر وليس من الحياء أن نفقش ضمائر الناس لنعرف عقائدهم ونقف على أسرار علاقاتهم مع ربهم . بل ليس من الحياء أن يسأل أحد الناس الآخر عن عقيدته ولكننا نحن في مصر مازلنا بعيدين عن هذا الطور حين نحترم لكل انسان عقيدته ونكف

عن التنقيير والتفتيش في قلوب الناس . ولكن يحق لنا أن نسأل أولئك الذين يقذفون خصومهم بكلمات الكفر والزندقة لعله ولغير علة : هل يمكن أن يكون الانسان كافراً ؟

أن تاريخ « الكفار » الذين اضطهدوا في أوروبا وفي الشرق يثبت أنهم كانوا أكثر ايماناً ممن اضطهدوهم . فقد اضطهد الرومانيون المسيحيين وقتلواهم تقتيلاً فظيلاً ونحن الآن نعرف أى الفريقين كان أكثر ايماناً . واضطهدت جاهلية قریش المسلمين ثم عاد المسلمون والمسيحيون فاضطهدوا المتصوفين منهم . ونحن نعرف فوق ذلك أن الملك الكافر في تاريخ القراعنة هو اخناتون وهو الوحيد الذي آمن بالله ورفض عبادة الأوثان المصرية

فغنى الكفر ليس في الحقيقة عدم الايمان . بل المخالفة في العقيدة فقط . وتعيش في زماننا هذا امرأة هي مصداق ما نقول نغنى بها المسريزانت الانجليزية فانها كافرة من حيث مخالفتها للعقائد الدينية الشائعة ولكنها أكثر ايماناً من أى انسان على ظهر هذه الكرة . وفي تاريخ حياتها عبرة لأولئك الذين لا يبالون بالتنقيير عن سرائر النفوس وقذف الضمائر

فهذه المرأة نشأت مؤمنة بالمسيحية وتزوجت قساً من قسوس الانجليز ولعل هذا الزواج لم يكن حباً لشخصه فقط بل كان أيضاً حباً لهذا الايمان الذي أرصد حياته لخدمته . وعاشت عدة سنين وهي عابدة تصلى لاتهمل فريضة أو نفلاً . ثم دب الشك في قلبها وتزعزع ايمانها . وكانت من شرف النفس وعلو الهمة بحيث لا يمكنها أن توارب أو تدارى أو تقعدهن الكفاح في سبيل ما تؤمن به . فتركت زوجها وخرجت تدعو الى الاتحاد بما لها من قوة ومال وعلم واتصلت برعيم الاتحاد في ذلك الوقت المستربرادلف فعمل الاثنان معا في نشر الاتحاد في انجلترا وكانت لهما مجلة تخرج على الناس كل أسبوع بما يؤدى عواطفهم الدينية . ولكن العلم القليل الذي يدعوا الى الاتحاد لم يطل عليه الوقت حتى تغلب عليه العلم الكثير الذي يدعوا الى الايمان فرأت أنه كلما ازدادت توسعا في الثقافة الدينية ازدادت ايماناً وزكا قلبها بالحب للناس واتحدت أنغامها مع أنغام هذا الكون من انسان وحيوان وجماد حتى صارت تؤمن بوحدة الوجود وحتى أصبحت زعيمة لهذه الصوفية الجديدة التي تدرس الاسلام والمسيحية والبوذية وسائر أديان العالم وتنشد منها الصلاح والخير والبر

فهذه المسريزانت ليست مسيحية ولا هي مسلمة ولكنها الآن مسيحية ومسلمة وبوذية تريد من الدين أن يكون عفو النفس ينبع عن مجاهدة واختيار فلا يقسر الناس عليه قسراً ويحملون على التعصب له . فهي ترى أن طبيعة الانسان دينية وأن الايمان ثمرة تثمرها الناس اذا نضجت وهذه المرأة هي الآن فوق الثمانين من عمرها تعيش معظم أيامها في الهند وتدرس أديانها

القديمة وتطلب من أبنائها الحاضرين أن يستقلوا عن الانجليز وقد كاثت الاستعمار الانجليزى في الهند حتى حبست من أجل الهنود وهي انجليزية . فمن منا يجرو على أن يقول لهذه المرأة بل لهذه الانسانية العظيمة أنها كافرة وهي التي كاثت طول حياتها لتحرير ضميرها من أجل الحق ووقفت في وجه أبناء وطنها من أجل الحق وآمنت ثم كفرت ثم آمنت من أجل الحق . وكانت كل هذه الجهود عن نفس حرة تأبى الخضوع للعقيدة تقسر عليها ولا تؤمن بها

الموتى لا يحكمون الاحياء

منذ مدة مات القصصى الانجليزى المعروف توماس هاردى وأوصى وصية لفتت نظر الكتاب وبعثتهم على انتقاد الميت وتبريح أخلاقه لأنه أشرط في هذه الوصية بأن يكون نصيب زوجته مادامت لا تزوج ٦٠٠ جنيه فإذا تزوجت لم يكن حقها في الميراث سوى ٣٠٠ جنيه فقط في السنة وواضح أن في هذا الشرط من دناءة النفس ما يشبه أو يشير الى تلك العادة الهندية التي كانت منذ نحو ٧٠ سنة أو ٨٠ سنة تقضى بأن تحرق المرأة بعد وفاة زوجها . وقد خففت هذه العادة الآن الى بقاء الزوجة التي يموت زوجها أرملة مدى حياتها . وليس هذا بالأمر الهين على المرأة الهندية فانها تتزوج وهي صبية وتترمل أحيانا قبل أن تبلغ العاشرة أو الخامسة عشرة فتعيش مدى حياتها في عار الترميل وآلام الحرمان وكم العواطف . وهي مع ذلك تشكر الحظ الذي لا يقضى عليها بالحرق كما كان يفعل بجدها

فوصية توماس هاردى وان لم تكن في قوة إحراق الزوجة فانها من نوعها لان الاختلاف في الدرجة فقط . ففي الهند كان الزوج يخشى بقاء زوجته بعده ويتوقع حبها لغيره فكانت تحرق وتوماس هاردى يخشى أن تحب زوجته رجلاً غيره فهو يعاقبها على هذا الحب بانقاص دخلها السنوى الى النصف

وفي كلتا الحالتين ترى الميت يريد أن يحكم الحى ويجعل نزوات نفسه ونزقات قلبه حية تعيش بعد موته وهو رمة بالية في القبر . وهو في هذه الحال أشبه شئ بذلك الرجل عندنا يوصى بأمواله لبعض الورثة دون البعض ثم يموت ويترك لهم البغضاء والحسد طول حياتهم . وهذه الدنيا يملكها الاحياء ولا يملكها الموتى فمن حق الحى ألا يعتته الميت ومن واجب الميت أن ينام وادعا في قبره ويترك الدنيا وتسوية مسائلها لأبنائها الذين يسعون على أرضها ويتحملون مشاقها ويتمتعون بملاذها .

ونحن نعيش الآن في زمن تجيز فيه حتى الامم المسيحية الطلاق بعد أن كانت تنظر اليه الكنيسة

كانه محال . فاذا كان الاحياء يرون زوجاتهم يتزوجن في حياتهم وينزلون على حكم العقل فان من واجب الميت ألا يقرر العقوبات لزوجته اذا تزوجت بعد وفاته وحسبه من حبا تلك الحياة التي قضاه في هناء الزوجية والذكرى التي تمجد اسمه

واذا نحن تأملنا في معظم القلائل والآخر في العائلات لم نبعد قليلا في تأملها حتى نجد أنها ترجع الى ثورة الأحياء على الاموات . فانه لما كانت نفس الانسان تنزع الى الخلود فهو يرى في أبناؤه وأسرته وثورته معنى من معاني الخلود ويقرر قبيل وفاته عن سبيل الوصية نظاماً يبقى يمثل ارادته ويشير الى معنى الخلود حين يبلى جسمه في القبر ولكن طبع الحياة التطور وشأن الزمن التحول فلا تكاد تمضي على الميت بضعة سنوات حتى يصطدم نظامه القديم بالاحوال الجديدة ويرى الأحياء أنفسهم معرقلين لا يملكون التصرف فيما ينفعهم بما وضعه لهم الآب أو الزوج أو الجد من شروط للحياة التي يعيشونها هم والتي هم أعرف بمصالحها من هذا المورث الوادع في قبره والذي كان يعيش حياة لعلها تختلف من جملة اعتبارات من الحياة التي يعيشها أبناؤه أو أحفاده فذلك الزوج الهندي القديم الذي كانت أرملته تحرق بعد موته وهذا القصصى الانجليزى الذى يعاقب زوجته اذا تزوجت بعده وهذا الموصى الذى يزيد وينقص في حظوظ أبناؤه ويقيد حريتهم في التصرف كلهم من معدن واحد يريدون أن تبقى ارادتهم خالدة بعد موتهم وهم يضعون لهذا الخلود المنشود برنامجاً هو العنت للأحياء

وشيء قليل من التأمل في الدنيا يزيل عنا هذا الغرور ويجعلنا ندرك معنى الفناء المادى الى جانب معنى الخلود الروحى فنذهب الى القبر متساعجين راضين أن نترك الدنيا لأبنائها وانما أبناؤها هم الاحياء فهم أجدر من الموتى بتنظيم أحوالهم والتصرف في شئونهم من حب ومال وعمال وما يقال في الميراث يمكن أن يقال مثله أيضاً في ما خلفه السلف من ثقافة . فهى ميراث للذهن ولكن هذا الميراث يعرقل أذهاننا ويؤخر رقينا اذا أحيط بما يشبه شروط الواقف أو الموصى بحيث نجبر على التزام الطرق القديمة ونمنع من الانطلاق وحرية التفكير

العبيد الذين غلبوا نابليون

كلنا يعرف أن زنج أفريقية عاشوا قبائل مشتتة تتناحر فيما بينها وتغير عليهم الامم المتمدنية وتسمى نساءهم وأولادهم وتبيعهم في أسواق النخاسة عبيداً يقضون حياتهم في الكد والكدر لغيرهم . وكلنا يعرف أنهم يعيشون في أفريقية عيشة التوحش تغشى حياتهم الفاقة ويحصد أولادهم الموت وتستعبدهم الخرافات

وكلنا أيضاً يعرف أن نابليون قد قهر أوروبا وبدل التخوم الفاصلة بين ممالكها كما يبدل الانسان خطوط الخريطة بقلبه ، وهدم عروشاً وصنع عروشاً كما يصنع التجار بعض الاثاث . ومع ذلك فان نابليون على قوته وجبروته قد انهزم أمام العبيد في جزيرة هايتى

وقصة هؤلاء العبيد يجب أن تكون ماثلة أمام أعيننا على الدوام مع كفاحنا مع أعدائنا الذين حرمونا من الرقى في الخمسين سنة الماضية . لأنه اذا كان الزنج قد استطاعوا بالاتحاد والاختلاق أن يقتصبوا استقلالهم من نابليون فجدير بنا ونحن نفوق الزنج في القوة والذكاء أن نحقق استقلالنا أمام الانجليز

وجزيرة هايتى تقع في شرق أميركا وكانت فرنسا تملكها وكانت المزارع في أيدي المستعمرين الفرنسيين . والعبيد من الزنج يكدحون فيها لمواليهم . فلما حدثت الثورة الفرنسية الكبرى وتحطم عرش ملوكها من البوربون وأعلن الثأرون حقوق الانسان بلغت هذه الأخبار السكان في جزيرة هايتى من البيض والسود حوالى سنة ١٧٩٠ وانشق البيض على أنفسهم بعضهم يدافع عن الملكية وبعضهم يدعو الى الجمهورية . وانضم العبيد الى الجمهوريين لأن الثورة التي أوجدتهم وأعلنت حقوق الانسان لم تميز بين الاسود والبيض بل أقرت لكل انسان حقه في الحرية والفت بذلك العبودية . فلما وقف العبيد على مبادئ الثورة وعرفوا منها حقوقهم الانسانية انضموا الى الجمهوريين وقاتلوا الملوكة من الفرنسيين كما قاتلوا حلفاءهم الانجليز وانصروا عليهم . وبذلك استقلت الجزيرة . ولما كان الزنج يؤلفون الكثرة من السكان آل الحكم اليهم وصاروا هم أسياد البلاد

ولكن جاء الطاغية نابليون وحاول أن يفسد مبادئ الثورة الشريفة فبعث بالجيش والبوارج لاختضاع الجزيرة . ولم يكن الزنج في هايتى بارقي من زنج أفريقية فقد كانت الخرافات تتحكم في أذهانهم وعواطفهم ولهم كهنة يوهمونهم الضعف بممارسة السحر ويتغلبون عليهم ويعثون الخوف في قلوبهم . ولكن كانت بينهم طبقة صغيرة من الذين احتكوا بالفرنسيين وأشربوا روح الثورة من الحرية والمساواة والاخاء فعمدوا الى رجل منهم متين الاخلاق فولوه الزعامة وكان هذا الرجل يدعى توسيه لوفرتور

وكان أول ما التفت اليه هذا الزنجى العظيم في محاربة نابليون أن عمل للاتحاد بين الزنج فقهر الكهنة وصاح بالناس وتجاوب الناس صياحه : ان اتحدوا فاللحاد أقوى من السحر ثم عمد بهذه الجموع المتحدة من الزنج فقهر الاسبانين ثم قهر جيش نابليون الذى كان يبلغ ٣٥٠٠٠ مقاتل وضمن للجزيرة استقلالها في أيدي سكانها الزنج الأحرار . ووقع هو

نفسه أسيراً وحمل الى فرنسا حيث قضت دناءة نابليون بأن يقتله جوعاً . ولكن الجزيرة لم تعد الى فرنسا بل بقيت مستقلة الى الآن

فاذا كان الاتحاد بين الزوج العبيد يقهر الأمم العظيمة ويتغلب على جيوش العظيمة ويحيل العبودية الى حرية فأحر به أن ينيلنا استقلالنا ويضمن لنا الظفر في كفاحنا مع طغاة القرن العشرين . ولكن اتحادنا لن يكون قوياً متيناً حتى نبعد عن البلاد كل نكرة يقصد منها الشقاق وتصديع الكتلة الوطنية . فاذا كان في بلادنا عناصر تعمل لهذا الشقاق وتفتح الثغرة التي ينفذ منها العدو الى صميم الوطن . فان هذه العناصر يجب محوها ومحققها وإبادتها . فنحن في مركز يتطلب منا جميعاً أن نتحد ونقف في وجه خصومنا وقد جندت أجسامنا وعبثت قلوبنا . وما ناله العبيد الذين غلبوا نابليون يمكننا أن ننال نحن مثله أو خيراً منه اذا اتحدنا كما اتحدوا

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الدعوة الى الشقاق تتخذ أشكالا عديدة منها الطعن في الزعماء ومنها الحيف على الاقليات ومنها تحريك الضغائن المذهبية ونحو ذلك مما يجب أن نحذره أمام الطغاة

الاجرياء

كنا نقرأ ونسلم بما نقرأه من ان الامم المتقدمة التي تتقلب في نعيم الثروة تتدهور وتنحط وتذهب عنها متانة الخلق التي كانت تنسم بها أيام العيش الخشن والطعام الجشب . وكنا نعتقد ان الجراءة والشجاعة والدأب من خصال الخشونة وان الجبن والنكوص ومطوعة الهوى من خصال النعومة والترف

ولكن نظرة واحدة الى أوروبا وأميركا تثبت لنا الآن عكس هذه النظريات القديمة . فان الترف في هاتين القارتين قد بلغ أعلى مستواه ومع ذلك فهذه الحرب الكبرى أثبتت باحصاء القتلى الذين يعدون بالملايين ان الشجاعة وبذل النفس وبجابهة الخطر خصال لا تنقص هؤلاء المترفين . ثم هؤلاء الطيارون الذين أوشكوا أن يجعلوا من الكرة الارضية وطناً واحداً للانسان والذين يعملون في الغاء الحدود بين الامم وتقريب المسافات أو ما يشبه الغاها يثبتون لنا ان الجراءة من المزايا المطبوعة في أخلاقهم . فهذا الفتي العظيم لنديج يركب طيارته في غبشة الفجر ويمرّق بها كالسهم أو كالقنبلة طائراً فوق المحيط الاطلسي لا يسمع حوالياً سوى أزيز المروحة فيقضي النهار والليل وهو يخترق السحاب ويبتاز به ويعلوه وينحدره نه ثم يفشاه الظلام ويخيم عليه وهو طائر في الفضاء يقتحم الزمان والمكان وهو قطرة بل شرارة صغيرة من الحياة في وسط

هذا الفضاء حتى يحط في باريس فيلبس أحسن ملابسه ويشرب أجود المشروبات ويؤانس السيدات والرجال بأحسن ما نشأ عليه من أخلاق

ثم هذا الفتي العظيم الآخر هنكل الاسترالي يركب طيارته في انجلترا فابزال يطوى بها الهواء من أوروبا الى أفريقيا الى آسيا الى أستراليا وهناك يلتقي بأهله ليخبرهم بأنه أول انسان على هذه الارض استطاع أن يطير من أقصى أوروبا الى أقصى أستراليا

هؤلاءهم الاجرياء الذين لم يفسدهم أو يضعفهم الترف . لان الحضارة السليمة التي تخترع الفراش الوثير والطعام المطعم والملبس اللين تعرف أيضاً كيف تغرس في النفس ذلك الخلق العظيم الذي لا ينسى الجراءة والشجاعة . بل هذه الحضارة نفسها التي تجعل المرأة تتبرج وتزين وتجعل معظم البضائع والعروض في المخازن الكبرى خاصاً بزيئة النساء وما يلزم لتجميلهن هي نفسها تلك الحضارة التي تعلمهن العلوم العالية وهي نفسها تلك الحضارة التي جعلت أم لنديج أستاذة في الآداب وهي نفسها تلك الحضارة التي تجعل ١٨٧ امرأة يشتغلن بالمحامة في باريس وحدها وهي نفسها تلك الحضارة التي جعلت الآنسة جليتز تعبر بوغاز جبل طارق أخيراً سباحة على ثبج الامواج . ولا بد أنك أيها القارئ قد سمعت عن طارق بن زياد كيف انه عند ما عبر هذا البوغاز من أفريقيا الى أوروبا أحرق سفنه حتى لا يمكن أحداً من جنوده أن يفر ويعود الى أفريقية . ولكن الآنسة جليتز الانجليزية استطاعت وهي امرأة أن تقوم بما لم يكن طارق يظن ان الرجال يستطيعون أن يقوموا به فسبحت من أوروبا الى أفريقية

وفي العام الماضي قامت الفتاة الاميركية جرترود أدول فسبحت من فرنسا الى انجلترا وخرجت الى الشاطئ تضحك وتقبل جديتها المعجوز بعد أن قضت نحو ١٤ ساعة وهي تكافح الامواج والرياح وتكادحها حتى تغلبت عليها . ولا بد ان كلا من الآنسة أدول والآنسة جليتز تغشيان المخازن الكبرى وتشتريان أجمل الملابس وتزينان باجمل ما تزين به النساء ولكنها في هذا التبرج لاتنقصها الاخلاق المتينة التي تعرف الصبر والشجاعة والدأب في بلوغ الغرض

وعبرتنا من هؤلاء الابطال الاربعة ألا نخشى ترف الحضارة فان هذا الترف ترافقه تربية سامية للاخلاق ترفع النفس وتعلم المرأة والرجل خصالاً من الشجاعة والدأب والمروءة ربما لم يكن يعرفها أبائنا . وعبرتنا أيضاً أن نمارس الترف نغني ترف الجسم كما نغني ترف الذهن فنعيش في أجمل المنازل على أوفر الفراش ونأكل كل أغنى المأكول ونقتني أجمل الطرائف وأرق المؤلفات ونقرن الى هذا الترف تلك المتانة التي تنسم بها أخلاق الطيار وذلك العناد وذلك الدأب في أخلاق السابحات من النساء اللواتي لا تتعير من التشبه بهن

التقير خطته في الحياة الهجوم ولذلك فقد أثرى وتفشى في العالم وصارت له امبراطورية تغطي حول الكرة الارضية . أما الفرنسي فيقنع من الدنيا بالدفاع فهو لذلك معتز . لامرأته وسائل عجيبة كريمة في التقير ثم هو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ولا ينفق الا بحساب كأنه يخشى الدنيا ولذلك فهو فقير اذا قوبلت أحواله بأحوال الانجليزى الذى يهاجم الدنيا ويؤثر أمواله فى الصين ومصر والهند وأميركا

ولكننا من حيث المزاج نجرى على احدى الطريقتين . أما الدفاع والاحتياط . أما الهجوم والتصدى . وليس هذا شأننا فى الثروة فقط بل هو ايضا شأننا فى نشاطنا الذهنى . فمنا من يقنع بدرس كل ماهو مألوف مأمون بل أحياناً يبالغ فى هذه الخطة حتى يطلب الرقابة على الادب وتقييده ومنع الادباء من المخاطرة والمغامرة كأنه يطلب من الناس أن يعيشوا عيشة المحار بعيدين عن التعرض لاي خطر . وهذه خطة الدفاع والاحتياط

ثم منا من ينزع نزعة الجراءة فلا يحجم عن اقتحام كل خطر يطلب من الادب أن يكون حراً مكشوفاً يتناول كل موضوع ويتخصص فى كل بحث ويهاجم كل عقبة لان الذهن الانسانى يموت بالادخار والحصر ويحيا بالاقدام والانطلاق . وهذه هى خطة الهجوم والتصدى فلكي نعيش جداً ونحيا ملء حياتنا الايجابية يجب أن نتصدى للدنيا ونبرى لتذليل عقباتها ونجعل الهجوم وسيلة الدفاع فى المال والذهن فلاندخر كالفرنسى بل نستغل ونؤثر كالانجليزى واذا كان فى الاستغلال مخاطرة فلنقبلها راضين بما لها من عوض فى الزيادة والنماء والارتقاء فالهجوم والتصدى والمغامرة هى صفات الحياة العالية تلك الحياة التى ترضى بالارتقاء فترتقى وتتطور ولو كان فى ارتقاءها فناؤها

فى شرف الهزيمة

قد يكون من الهزائم للامم والافراد ماهو أبجد وأشرف من الانتصارات . فهذه فرنسا مثلاً بعد أن أعلنت الثورة الكبرى وأذاعت مبادئها على العالم عادت فانزمت واضطرت الى الاقرار بأن مبادئها ليست حقة فكانت فى هزيمتها هذه شريفة لأن كل انسان الآن يقرأ تاريخ تلك الثورة يعرف أنها ليست ثورة فرنسا فقط بل ثورة الانسان كائناً ما كان لأنها أعلنت حقوقه ورفعت شأنه وباتت مصباحاً تستضيء به كل أمة فى العالم حتى أن طغيان نابليون ثم اتحاد الامم عليها ورد الملوكة الى عرشها كل هذا لم يقتل مبادئ الثورة بل بقيت حية أمام هذه الهزائم وعادت فى النهاية الى الانتصار

خطة الدفاع

من أغرب الظواهر الطبيعية للحياة أن تلك الأحياء التى بالغت فى الدفاع عن نفسها وتدرعت بدروع تقيها من الأعداء وقفت عن التطور وكفت عن الارتقاء . فهذا المحار مثلاً نشأ منذ مئات الملايين من السنين أى منذ كان المقطم تغمره مياه البحر ومع ذلك بقى كما هو قطعة هلامية من اللحم مستكنة فى بيت من الصدف لا تتطور ولا ترتقى

بل هناك من الحيوان أنواع نجحت فى حماية نفسها الى درجة بعيدة أفقدتها بعض حواسها كما ترى فى الخلد الذى أثر الاكتنان والاختفاء تحت الارض على السعى فوقها ففقد عينيه فالمحار عاش متدرباً بصدفه ملايين السنين وهو لا يتطور حتى اننا نجد صدفه للاً فى صخور المقطم والخلد لم يقف عن التطور والارتقاء فقط بل هو ارتد للوراء اذ فقد احدى حواسه بل أهم حواسه وهى حاسة النظر لان هذه الحاسة لا تنفع صاحبها الا اذا كان يسعى فى النور ويحتاج الى التمييز بين الصديق والعدو أما اذا أثر الاعتكاف واختلاس العيش فى الظلام فهو لا يحتاج عندئذ الى هذه الحاسة الراقية . وما أحرانا نحن بان نعتبر ذلك فلا نقنع من الحياة بخطة الدفاع كالمحار والخلد فتجنب السعى قانعين بأقل العيش راضين بالاعتكاف كأنما نعيش عيشة سلبية هى نقي الموت فقط بل انما يجب أن نسعى ونفتحم للاخطار وتصدى للعقبات نمهدا أو نزليها ونهاجم الطبيعة فنكتشف فيها ونخترع ونرتقى من الحسن الى الاحسن

ان الحياة درجات فيها حياة النبات وهى أحط حياة ومنها حياة هذا المحار وهى أقل من حياتنا وقت النوم ثم تتدرج من ذلك الى أن تبلغ الانسان الذى يلقى من هموم الدنيا أكثر من أى حيوان آخر ولكنه أيضاً يتمتع بها أكثر من أى حيوان آخر ويعيش ملء حياته تجارب واقتحامات وآلاماً وملذات

ومن الأمثال الحربية التى تنطبق على الحياة المدنية أن أمثل الطرق للدفاع هى الهجوم فاذا كنا نخشى الفقر فليس سبيلنا الى التقاتل أن نحفظ بالقليل والذى نملكه ونحوطه ونصونه قانعين منه بأتمه العيش وأخسه بل انما نتقى الفقر باستغلال هذا القليل وتأثيله فى عمل ما لكى يربو ويزيد مع ما فى هذا الاستغلال من التعرض للخطر فالثروة ليست نتيجة الادخار والارتقاء بل هى نتيجة الاستغلال والمغامرة

وهنا يخطر ببالى أن أقابل بين الانجليزى والفرنسى . فالانجليزى مغامر لا يدخر قرشاً ولا يعرف

وأقرب من هذه الثورة تلك الهزائم التي نزلت بالأمة الصينية في حرب جائرة أعلنتها عليها الامبراطورية البريطانية لكي تقصرها على شراء الافيون بعد أن كانت الصين قد منعت زراعته والاتجار به وتدخينه . فان هذه الامبراطورية حاربت الصينيين وقهرتهم واجبرتهم على شراء الافيون فكانت الصين مجيدة في هزيمتها شريفة في مدلتها أمام هذا العدو المنتصر الذي طغا عليها بحروبه واضطرها الى شراء السم لأبنائها

ومن الهزائم المجيدة أيضاً تلك الهزيمة التي نزلت بنا في سنة ١٨٨٢ حين وقف عرابي بجيشه يدافع عن الدستور وعن الوطن بينما الخديوى قد انضم للاعداء . فكان عرابي في هزيمته أسمى من الخديوى في انتصاره وذلك لأن الاول كان يدافع عن الحق فانهمز بينما كان الثاني يدافع عن الباطل فاتصر الحق مهزوماً أجد وأشرف من الباطل منصوراً

ومن الهزائم الشريفة هزيمة الدكتور ولسون حين خرج مجاهداً في سبيل السلام يدعو الامم الى القاء سلاحها وانشاء عصبة الامم لكي تكون المحكمة العليا للعالم كله . وقد انهزم ولسون أمام الحلفاء ولكن هزيمته كانت أشرف من انتصارهم اذ كان هو يعمل للصراحة والحب والوفاء وكانوا هم يعملون للوارية والكراهية والغدر

وجا أن مبادئ الثورة الفرنسية قد عادت فانتصرت وكما أننا الآن ندافع عن الدستور الذي انتزعه عرابي من الخديوى ونرفع المبادئ التي كان يرفعها كذلك سنتنصر بمبادئ الدكتور ولسون على دهاء الساسة الذين خدعوه واذا لم يكن هذا الانتصار عاجلاً فهو آجل

وعبرتنا نحن الافراد العاديين من هذه الامثلة ألا نبالي بالهزيمة اذا كانت في سبيل الحق وأن نؤثرها على الانتصار في الباطل وأن نطمئن الى هذه الهزيمة لأنها هي في الواقع انتصار أو تهيم للانتصار وذلك لأن الحق لا يهزم الا الى وقت وميعاد اذا آن فيهما أوانه ظهر على الباطل وأزهقه

وما أحرانا بأن نتذكر ذلك في كل مناقشة أو جدال يحمل فيه أحد المتناقشين على خصومه بالسباب واللعن فان عندنا طائفة من الكتاب يبدو كما يكتبون أنهم لم يتعلموا اللغة العربية الا ليصيدوا منها كل لفظة مفزعة يرمون بها خصومهم حتى لينقلب الجدل بينهم الى مهارة تشبه المفاحشة التي تسمع من السفلة غير أن ألفاظها عربية وألفاظ هؤلاء عامية . ففي مثل هذا الجدل تكون الهزيمة أشرف من الانتصار

ويجب أيضاً ألا ننسى ميدان السياسة حيث يفوز الخطيب المفقوه الذي يستثير عواطف الجمهور بما يخيله لهم من آمال كاذبة على ذلك السياسي الرصين الذي يسكن الى الحقائق ولا يتطوح مع الاوهام . فان مثل هذا الفوز لا يشرف صاحبه كما أن هزيمة الآخر لا تعيبه

المناقشات حول الأدب

كتب مدير جامعة شيكاغو مقالا جاء فيه قوله :

« لما كنت طالباً في غوتنجن في المانيا كانت هناك جالية من الطلبة الامريكيين الملتحقين بجامعة هنا وكانوا منقسمين فثنين احدهما تنوى درس اللغة الالمانية فقط والآخرى تنوى درس موضوع بعينه من المواضيع التي تدرس بالجامعة كالعلوم مثلاً . فلما مضى علينا نحو ستة أشهر اتضح أن أولئك الذين قصرنا همتهم على تعلم اللغة لم يعرفوا من اللغة الالمانية مقدار ما كان يعرفه أولئك الذين جاءوا لتعلم شيء آخر غير اللغة »

وأظن أننا نحن هنا في مصر نرى مصداق هذا الكلام . فاولئك الذين يختصون بدرس النحو واللغة والبلاغة والبيان ليست لهم تلك القوة على الاداء والبيان التي لأولئك الادباء أو العلماء الذين يمسون موضوعات الحياة ويكتبون عنها . وهذا يدلنا على أن اللغة ليست موضوعاً يدرس بذاته بل هي يجب أن تدرس عرضاً بدرس موضوع آخر . وكذلك الادب ليس سبيل التفوق فيه أن نعرف أقسامه وأساليبه وأصوله وفروعه بل أن نعلم الى الحياة ذاتها فندرسها كما هي في طبيعتها بحيث إذا كتبنا عنها لم نعد الحقائق الحية . وذلك أن موضوع الادب هو حقائق الحياة فأحسن الادباء وأنفعهم للقراء ليس هو ذلك القادر على سرد قواعد اللغة والوقوف على ما فيها من ثروة لفظية يحفظها عن ظهر قلب وهو قابع في غرفته بين الكتب والاقلام بل هو ذلك الذي يختلط بالناس ويدرس مسائلهم الاجتماعية والاقتصادية يعرف كيف يعيشون وكيف يموتون وكيف يحبون ويكرهون . لان موضوع الادب هو الحياة التي اذا وقفنا على شيء من أسرارها فتفتحت لنا أبواب المعاني وانقادت لنا اللغة في التعبير عنها . أما إذا أردنا أن نتعلم الادب بدرس اللغة فاننا لانخرج من هذا الدرس إلا بصورة حائلة عن أصلها ومسوخ بعيد الشبه عن الحياة

نكتب هذا بمناسبة المساجلات التي عقدت حديثاً بشأن الادب وهل يجب أن يكون مكشوفاً أو مستوراً وهل الادب العربي فيه ما يشبع الأديب المصري أولاً وهل يجب أن يكون المصريون القدماء أساس الثقافة أولاً . وأيضاً ما يقوم أحياناً من مناظرات عن كفاية اللغة العربية أو نقصها ونحو هذا من الابحاث التي تشبه وضع القواعد للأدب . وانا أرى أن الادب لا يثمر بهذه الابحاث وانما سيلنا في الادب أن ندرس الحياة من جميع وجوهاً لأن الادب هو وصف الحياة

وتقدمها والتوسعة فيها باظهار القارى على مايجب له من معانيها وارشاده الى الطريقة المثلى للعيشة. فليست الغاية من الأدب أن نكتب ونجيد الكتابة الأدبية بل أن نعيش المعيشة الأدبية ولذلك فالقاعدة الوحيدة للأدب هي أن يطابق الحياة المثلى ويصورها. ولهذا يحتاج الأديب لكي يبلغ هذه الغاية أن يدرس كل مايتصل بالحياة من أنظمة اجتماعية الى اكتشافات علمية الى مضاربات فلسفية. ولهذا السبب فإن المحامى أو الصحفي أو الطبيب أو النجار الذى لم يشتغل قط باللغة أو الأدب يعرف منهما أكثر مما يعرفه أولئك الذين عنوا بدرستهما من الكتب والمعاجم لأن هذا قد مس بضاعته ناحية من نواحي الحياة وباشرها ونفذت بصيرته اليها أما هؤلاء فلم يعرفوا من اللغة والأدب سوى نوع من التحنيط المعنوى. وبما يزيد صدق ما نقوله ونؤيد به قول مدير جامعة شيكاغو أنه ليس عند الانجليز مجمع أدبى كما عند الفرنسيين. وإنما لهم مجمع علمى. ومع ذلك فإن اللغة الانجليزية الآن أوسع من اللغة الفرنسية ألفاظاً والأدب الانجليزى أغزر مادة وأوفر مواضع من الأدب الفرنسى. لأن الانجليز بتعلقهم بالعلوم زادوا اتصالهم بالحياة فأتسع بذلك أدبهم أما الفرنسيون بادمانهم الكلام عن الأدب وأصوله وقواعده ابتعدوا قليلاً عن الحياة ورفعوا من شأن الصنعة فصرنا نجد في أدبهم لذة الموسيقى دون الهداية التى نتهدى بها فى الحياة. وخلاصة القول أنه كما يجب أن تجعل الموضوع وسيلة لدرس اللغة كذلك يجب أن تجعل الحياة وسيلة لدرس الأدب

فَقْشُ عَنِ الْمَرْأَةِ

يؤثر عن نابليون أنه كان كلما اعترضته دسيسة أو خلاف بين الضباط يقول: فقش عن المرأة. يعنى بذلك أن المرأة هي أصل المشاكل والشورور وأنها تثير بين الرجال من ضرور الغيرة والمنافسة والمباغضة ماينتهى أحياناً بالمأساة المفجعة

وليس شك فى صحة هذا القول ولكنه وإن يكن حقاً فهو ليس كل الحق لأن المرأة كما هي أصل كبير لمعظم الشرور والفواجع فهي أيضاً كما ثبت علم النفس الحديث أصل كبير لمعظم مافى الحضارة من رقى ونزوع إلى السمو. فهي أصل الجنون كما هي أصل النبوغ وهي أصل الفواجع والشقاء كما هي أصل المسرات والسعادة. وهي كذلك لأن حياتنا نحن الرجال تشبه بحياتها وعواطفنا تتعلق بعواطفها منذ أن نولد إلى أن نموت

فهي أول انسان نراه فى طفولتنا نحبه ونعلق مسراتنا على مرضاته. وهي التى تطبع فى ذهننا صورة الجمال نستعيره من وجهها حتى إذا شبننا وبدأنا نتطلع بما فى نفوسنا من همائم الجنس

ووساوس الحب لم نستجمل من النساء سوى تلك التى تشبه هذه الأم التى رضعنا ثديها وتمرغنا على صدرها وارتسمت صورة وجهها فى أذهاننا

ثم هي أيضاً أصل الفنون الجميلة. وهذا واضح إذا ذكرنا الغناء والموسيقى وفى كليهما معنى الحب حين تلتفت النفس بالنغم واللحن إلى صبواتها الماضية أو حين تتشوف إلى لذائذها المستقبلية. ولكن التصوير وصنع التماثيل توقفاً أيضاً على مقدار ما عندنا من العواطف نحو المرأة بل الرسام الماهر إذا أراد أن يصور الصدق أو الحق أو العدالة لم يجد فى ذهنه ما يمثل هذه المعانى سوى جسم المرأة ووجهها وجمالها وعينها كأن هذه المعانى نفسها كامنة فى الأدب مضمرة فى الفنون الجميلة تبطن عقولنا وتتغشى نفوسنا

والمرأة أيضاً هي محور العائلة وعمود البيت فهي التى تحركنا إلى الكسب والجهد للعيش وهي التى ترسم لنا طريق الاستقامة فى الحياة وتنزع بنا إلى الرقى الدائم فاذا فكر أحدنا فى الاثراء أو العارة أو تربية الأولاد أو زيادة الجاه فانما يفكر فى ذلك ووراء ذهنه هذا السائق القديم سائق الحب والغرام بالمرأة أيام الشباب وسائق النبوة والانعطاف نحو الأم أيام الطفولة ومن هنا نفهم لماذا يجن كثيرون من الناس إذا أخفقوا فى الحب ولم يصيبوا من المرأة المعشوقة سوى الاعراض والصدود. فان عاطفة الحب الجنسى تكاد تكون كما يقول فرود أصلاً للرجبة فى الحياة وهي محور العائلة والأولاد والفنون الجميلة. فاذا ترعرع هذا المحور تداعى البناء كله وشعر الانسان انه قد أضاع غايته من الحياة وضل عن قصده فبتر عزع لذلك ذهنه وتختل غرائزه وعبرتنا من هذا كله ان نعرف للمرأة هذا الاثر فزبها على ان تكون جميلة ساحرة توحى إلينا الرقى والسمو. حتى نقول كلما حططنا على أثر نفيس من الفنون أو علامة خير وبر فى المجتمع: فقش عن المرأة. ولكن بمعنى آخر يناقض المعنى الذى رعى اليه نابليون

فترية المرأة يجب ان تكون من المهام الوطنية الخطيرة ويجب ان نرى من هذه التربية إلى ترقية الفنون الجميلة وتدريب الأمة على الاقتصاد وتقوية بناء العائلة أى يجب ان نربها لكي تكون أما تلهم الرضيع وتطبع فى ذهنه أروع صورة للجمال وان تكون زوجة ترسم لزوجها الغايات السامية حتى يتوجه بكلية نحو السعى الخالص لنفسه وأهله وأمتة

وكلنا يعرف ان الحب يدفع الشاب إلى النظافة والاجتهاد والامانة والوفاء. وكل هذه فضائل يبتعثها فى النفس جمال المرأة. والتربية تزيد هذا الجمال قوة وتتجاوز الجسم إلى النفس. وبذلك يمكننا ان نجعل تربية الفتاة وسيلة إلى تربية الشاب بل إلى تربية الأمة كلها. وذلك لأن المرأة إذا أحسنت تربيتها رفعت مستوى الفضائل عند الرجل ودفعته إلى السير نحو الرقى والعلاء

في الجمال

مما يعاب على الحضارة الحديثة ان غايتها المال بينما الحضارة الاغريقية القديمة لم يكن لها غاية يسعى لها الناس اكبر سعيهم سوى الجمال . فاذا قابلنا بين الغايتين الفينا حضارتنا دون حضارة الاغريق وربما كان اهتمام الناس بالمال في الاوقات الحاضرة عارضاً أكثر منه غاية لاننا نعيش في طور ابتدائي من الصناعة يحتاج الى الجمع والامتلاك بحيث اذا نظمت الصناعة أمكننا ان نوجه سعيها توجيهاً سديداً نحو تحقيق الجمال بضروبه المختلفة . ومنذ الآن نرى تبشير هذه الحضارة الجديدة في رعاية المرأة بجمالها أكثر من قبل . وبما هو جدير بالذكر ان نظرنا الى الجمال يكاد يكون نظراً اغريقياً من حيث اتنا نقرنه الى الرياضة والصحة . فلسنا نطلب الآن من المرأة ان تكون أشي بالغة الانوثة كتلك التي كان ينشدها الشاعر العربي حين كان يصف المرأة المكسالة ذات الارداق الثقيل . وانما نحن ننشد في المرأة شيئاً من الخفة والاسترجال حتى صار السمن فضيلة الاجيال الماضية عيباً في الفتاة الحديثة تتوقاه وتبالغ أحياناً في التخلص منه الى حد الاذى لنفسها . ومن ينظر الى التماثيل التي خلفها الاغريق يجد اننا نميل الآن نحو المعايير الاغريقية في تقدير الجمال . فالجمال الاغريقي مقرون على الدوام الى الرياضة البدنية والقوة الجسدية . ومن ينظر الى فينوس ربة الجمال عندهم يكاد يعتقد ان وجهها وجه رجل لا وجه امرأة . والمرأة الحديثة مع عنايتها بجمالها قد عنيت أيضاً بالرياضة حتى صار من النساء من يقطعن المانش سباحة وكذلك اتخذ المثل الاعلى للجمال عندها هيئة الرجال حتى صارت تقص شعرها وتضممر جسمها ولا تقصر همومها وجهودها على المنزل بل تخرج لمزاحمة الرجال في أعمالهم . وانما لنزعة شريفة تلك التي تنزع بنا نحو العناية بالجمال ننشده في الرجل والمرأة والمنزل والمدينة . لان غاية الجمال تحتاج لتحقيقها الى جملة وسائل كالنظافة والصحة والاعتدال وذلك لان اليد التي تنفق بسخاء على تطريتها يجب أيضاً أن تنظف . وجمال الوجه لا يكون تاماً الا اذا كان القوام معتدلاً بالرياضة . والرياش الثمين الجميل لا قيمة له ما لم يكن نظيفاً في بيت نظيف ومهما جملنا المدينة وزيناها بالمباني والتماثيل فلا قيمة لجمالها ما لم تكن نظيفة . وعلى ذلك يمكننا ان نقول ان الجمال كالحب أساس لجملة فضائل وباعث على ممارستها فهو يدعونا الى النظافة والى الرياضة والى الاعتدال في تناول الطعام والى مراعاة الصحة وتنشئة الذوق والرغبة في ارضاء الناس والعمل لسرورهم وهو بذلك يصح ان يكون أساساً لحضارة راقية في زماننا هذا كما كان عند الاغريق

واذا نحن جعلنا الجمال غايتنا فاننا لن نخرج بذلك على الطبيعة فانه أيضاً غايتها . فليس من مجرد الصدفة والاتفاق أن يكون الانسان أجمل حيوان وان يكون في الوقت نفسه الغاية التي بلقتها الطبيعة . وان يكون النخل في استقامة عودده وجمال غصونه واتساقه دائرة متساوية الاطراف أجمل الاشجار هو أيضاً آخر ما نشأ منها في سلم التطور

فنحن في لباب أنفسنا نعشق الجماع وتنطق والطبيعة في معناه ونراه يستتم أجزاءه كلها تقدم الحيوان أو النبات في التطور . فأرقى أنواع الحيوان هي أيضاً أجملها وتكاد أنواع الحيوان الاولى كالاسفنج والمحار تكون شوهاء بالنسبة لما ظهر بعدها

واذا كانت الطبيعة قد زينت الزهر والطير بجميع ألوان « الطيف الشمسي » وجعلت أشي النبات والحيوان تتبرج للذكر فمن التنطع البالغ ان تنكر التجميل والزينة على الفتاة والفتى وننسبهما الى الخلاعة في حين أن الواقع يثبت ان سعيهما للتجميل يدعوهما الى اكتساب جملة فضائل سامية لا يتم الجمال الذي ينشدها الا بها . واذا كانت هناك نساء يستعملن الاصباغ لتجميل الوجنات والشفاة فانهم يعرفون ان الصبغة جمال مستعار وان الجمال الحقيقي هو ما اقترن بالصحة وشف عن الدم الصحيح من وراء البشرة السليمة . وما الصبغة الا اعتذار عن الصحة وقرارها بأنها خير وسائل الجمال

نحو المستقبل : الغايات الرابع

لقد حادثك في هذه الصفحة مدة السنتين الماضيتين وصافيتك الحديث وستان من الحديث تكفيان لان يتساح كل منا مع الآخر . وأنا أحوج منك الى هذا التسامح فأنت ساكت وسكوتك من ذهب وأنا متكلم وقد يكون الكلام أحياناً من غبار وتراب . ولكنني لست من التواضع بحيث أقول أن حديثي معك كان كله أو معظمه من التراب . فاني قد حاولت أن أثبت في نفسك أربعة أشياء شائعة أرى أن أخصها هنا حتى يزداد تفاهمنا في المستقبل

وأول هذه الاشياء : هو ضرورة التسامح وتأكد ذلك والعمل على الاخاء والدعاية الى كراهة التعصب للدين أو القومية أو المذهب . وذلك لأن العالم كله يسير نحو الاتحاد في دولة واحدة . والآراء والمذاهب قد أصبحت شائعة بين جميع الناس وقد كانت الحرب في الازمنة القديمة مجداً من الامجاد تؤلف فيه القصائد وهي الان يعتذر عنها اعتذاراً صريحاً واذا دبرت فتديريها في السر كما يدبر السافل فضيحة من الفضائح . وذلك لاننا نشعر أننا جميعاً

تربطنا رباط الانسانية ليس بيننا مؤمن وكافر وصرنا نشعر أن العالم هو وطننا الاكبر الذى يجب أن نحقق فيه النعيم الذى تشوق اليه الانبياء والفلاسفة
والشئ الثانى : هو ترويج العلم والدعاية اليه وذلك لأن الحضارة الراهنة هي حضارة صناعية وهى تحتاج الى ثقافة علمية تنبئها وتهيئ لها البيئة الموافقة . فلكى لا تأخر عن الامم المتعدية ولكى لا تقع فى الفقر الذى هو مجلبة للبرص والشقاء والجهل والهوان يجب أن ننزع نزعة ونحاول أن نجعل معاهدنا القديمة كالأزهر ومدارسنا العليا وصحفنا السيارة تثبت العلم وتحض على الاكتشاف والاختراع . ويجب أن نعجب بأسقف برمنجهام حين صرح للناس من منبر كنيسة بان مذكرته الكتب عن قصه آدم يجب ألا يفهم بحرفه وأن لا يتناقض مع مقررات العلم ونظرية التطور . وفى هذا الكلام بالطبع صدمة لعواطفنا ولكن التربية الصحيحة تقتضى ذلك منا

والشئ الثالث : الذى بثته فى نفسك أيها القارىء هو الزاوية بأدب الالفاظ والعبارات المبهجة التى تشغف بها كتابنا والتي كانت أحد علل الانحطاط عند العرب . فهذا الادب لعب وهو لا يصح أن يكون سلوى للصبيان فغلا عن الرجال . ونحن فى حاجة الى أدب يشبه الدين وينبع من منبعه ويرمى الى الجلد والرجولة والبر وصحة الروح والضمير . فان الروح تعتل كما يعتل الجسم والضمير يفسد وتسوء بصيرته اذا اعتل الادب أو فسد الدين ثم اذا كانت الحضارة القادمة هي حضارة صناعية فانه يجب علينا أن نجعل الادب يروج الدعاية للعلم ويهيئ أذهان الجمهور لهذه الحضارة الجديدة ويحثنا على التطور والتجديد . أما الادب الذى يجتر نفسه ويعيد علينا عبارات الجاحظ وابن الرومى فهو أدب راكد بل ميت ولو كان فيه شئ من الحيوية لأحيا الذين درسوه فى الالف سنة الماضية

بقى الشئ الرابع : وهو نتيجة لازمة لما ذكرناه آنفاً . وهو ضرورة النظر للمستقبل والسير مع الامم الراقية فى نزعتها العلمية والادبية واصطناع حضارتها . وذلك واجب حتم علينا فان هذه الحضارة الاوربية تغير على كل ماحولها ولا ترضى بالحياة فاذا لم ندخل فى غمارها ونسير على شرائعها غمرتنا وقهرتنا فنكون من الاوربيين بمثابة العبيد من الاسياد . أما اذا تحضرنا بها فانتا نزل منهم على قدم المساواة . وعندئذ نسد نظرا الى المستقبل وهو الان زائع نحو الماضى . فبدلاً من أن ندرس الخلاف بين الكوفيين والبصريين ندرس الخلاف بين العمال والموليين فى مصر ونطلب من أدبائنا وكتابنا أن يفكروا فى حل نستطيع به أن نرى عمالنا متعلمين وفلاحينا أحماء الابدان والعقول يعيش كل منهم فى بيت له حمام ومكتبة كما هو الحال عند العامل الانجليزى . فان دم الفلاح المصرى ليس أقل شرفاً من الدم الانجليزى فلماذا يهان

بين روث البهايم يأكل الغذاء الدون ويعيش العيشة الزرية ؟ هذه هي الاغراض التى حادثك بشأنها فى الستين الماضيتين . وهى أغراض شاقة تحتاج من الكاتب والقارىء الى سعة من الصدر وتربص لنوازع الخير فى الناس فتتهز وتشجع نوازع الشر فتكبت وتقهر فيجب مثلاً أن تمدح طلبة دار العلوم اذا نزعوا الى الحضارة فى اللباس كما يجب أن تؤنب رجلاً يسمى من لا يدين بدينه كافراً . ويجب أن نمدح الدستور ونلطم الاستبداد حينما كان . ويجب أن نحترم الصانع والعالم لأنهما من رجال المستقبل أكثر مما نحترم الاديب أو الزارع لأنهما من رجال الماضى . وخاصة ذلك الاديب الذى يلعب بالالفاظ أو ذلك الزارع الذى يزرع على طريقة الفراعنة

وخلاصة القول أنه يجب علينا أن نتطور وأن يكون ههنا الاكبر هذا الانسان المصرى كيف نعمل له لكى يكون ضخم الرأس ذكى العقل شريف العواطف متعلماً غنياً حتى يكون قوة من قوى الخير والرقى فى العالم ولا يكون عالة كما هو الآن نعوله أوروباً بمخترعاتها ومصنوعاتها ويقنع هو بتقديم المواد الخام لها

التجديد فى الحياة

الى الآن لم تثر الدعوة الى التجديد فى الادب شيئاً يذكر سوى القليل من النقد والهدم أما الابتكار والبناء فطور ما يزال بعيداً عنا والعلة الاصلية لهذا النقص ترجع الى أن الادباء يبتغون تجديد الادب مع انهم هم أنفسهم لم يتجددوا . فهم أمام مكاتبهم وأقلامهم فى أيديهم يدعون الى التجديد ولكنهم اذا تركوا المكتب عادوا الى طرق العيش المألوفة حولهم فارتضوها لانفسهم . والادب هو نقد الحياة والتسامى بها الى المثل العليا فاذا لم يمارس الاديب بنفسه حياة جديدة فان دفاعه عن الادب الجديد ودعوته اليه يكونان زائفين ولن يكون لكلامه حرارة المقتنع وحماسة الرجل الذى يدعو الى حق قد أحس به فى لباب نفسه ومارسه فى معيشته ورأى فى نفسه وفى غيره البرهان المحسوس على صحة ما يدعو اليه

ولضرب لذلك مثلاً واضحاً للتجديد . فهذا الطب مثلاً قد تجدد فى مصر فالطبيب المصرى يمارس فيه فناً جديداً بآلات جديدة ويدرس فيه علماً جديداً ويتزود كل يوم بما يجد فيه من المكتشفات ولا يقيد نفسه بما كان يقوله الاطباء من ألف سنة مضت . ولذلك فان جمهورنا يثق بالطبيب المصرى بل الجمهور الاوروبى فى مصر يثق به أيضاً وهذا مثلاً الدكتور على بك ابراهيم يحترمه المصرى كما يحترمه الاوروبى

أما الادب المصرى فما يزال كالزراعة المصرية يجرى على الطرق القديمة من العناية باللفظ وتزيين العبارة والسير على السنن المألوفة ولهذا السبب ليس فيه رجل يحترمه المصريون والاوربيون كما يحترمون الدكتور على بك ابراهيم مثلاً

فعلى بك ابراهيم قد تجدد فى الطب ونال الاحترام اللائق بكل مجدد لانه هو نفسه لم يقل بالطب الجديد قولاً فقط بل مارسه وعمل به وأما أدباؤنا فلا ينالون الاحترام الذى يطلبونه لانهم يقولون بالتجديد قولاً فقط دون أن يمارسوه ويعملوا به. ولكى يكون الادب حياً يجب أن يكون ثمرة الحياة فاذا لم يكن الاديب نفسه متجدداً يطلب التجديد فى الحياة ويمارسه فانه لن يستطيع أن يجعل أدبه جديداً

وقد يقال هنا أن العلوم والفنون تتجدد وتتطور ولكن الادب خالد. وهذا هراء يبلغ لا يتسع المجال للرد عليه هنا

فلكى نكون أدباء بل أدباء عظماء يجب ان ننسى اننا أدباء ولا نكتب الا عن شئون الحياة وطرق العيش فلنبحث عن أمثل الطرق لى يحيا الناس حياة صالحة وندرس الفقر درس الارقام والاحصاء لادرس البلاغة والفصاحة وندرس طرق الزواج فى العالم وأمثلة لنا وندرس الاديان والحكومات والملوكية والجمهورية والملابس والمساكن والسكر الذى يصنع من الخشب والحريز الذى يصنع من الخلود وكيفية اتقاء الحروق كيف يمكن أن نجعل فلاحنا يعيش فى منزل به مرحاض وحمام ونحو ذلك مما يتصل بلب الحياة ويعمل للسعادة أو للشقاء

فاذا فعلنا ذلك وانتقدنا الحياة وطرق العيش لم نلبث أن نرى اننا قد ارتفعنا الى اسمى طراز من الادب لان الادب هو نقد الحياة فدرسه لا يكون الا بدرس هذه الحياة أى بدرس كل ما يتصل بها من مسكن وما كل ومشرب وأجور للعمال وحكومة وقضاء ونحوها وعندئذ نرى أنفسنا اننا نجدد للناس طرقاً من العيش كما اننا نحن نتجدد أيضاً وندخل بذلك فى طور الابتكار والبناء ويتلخص كلامنا هنا بأن نقول انه يجب أن نكون أدباء لى نعيش ونحيا وليس يجب أن نحيا لى نكون أدباء. فالحياة هى الاصل والادب وسيلة نرفع بها الحياة ونسحبها الى أمثل ما نفهمه من صورها ونرفه عن الناس ما يجدونه فيها من مشقة. ولا يكون ذلك الا بأن نجعل موضوع الادب التجديد فى الحياة بدرسها فى أحوال البشر المختلفة وممارسة ما نرومه من اصلاح فى أنفسنا بقدر ما تمكنتنا الظروف وعندئذ يصير أدبنا جديداً ويصير للاديب تلك الحرمة التى يستحقها باعتباره مرشداً فى الحياة

فلتكن صيحتنا: التجديد فى الحياة وليست التجديد فى الادب: واذا فعلنا ذلك لم نلبث ان نجد أننا نجدد فى الادب حقاً

اخلاق الشبان

اننا ممن يؤمنون بأن الشبان المصرى فى الجيل الحاضر أرق من زميله فى الجيل الماضى على الرغم من جميع ما يوصم به من نقائص. ففيه خصال الاستقلال فى الرأى والنزوع إلى الحرية والرغبة فى الثقافة. وفى لباسه ومشيته ما يكشف عن نفسه فهو على وجه العموم يعنى بهندامه ويمشى مرتفع الرأس. وفى العناية بالملبس ما يدل على الرغبة فى النجاح والشعور بالحاسة الاجتماعية وفى ارتفاع الرأس ما ينبئ بالاستقلال والشعور بالقوة. وأذكر انى كنت أحادث استاذاً أميركياً زار روسيا الشيوعية وكان يعرفها أيام القيصر فلما قابل بين حالتيها فى العهد القديم والعهد الحديث أشار الى ان الشبان يمشون الآن مرتفعي الرؤوس وكانوا أيام القيصر لا يعرفونها وان هذا يدل على روح الاستقلال التى فشت فى صدورهم عقب الثورة

ومثل شباننا هؤلاء يفضلون آباءهم سنة ١٨٨٢ أولئك الذين ارتضوا الاحتلال وسكتوا على نقي الزعيم الكبير عرابي. ومن يراجع تاريخ السنوات العشر الماضية يعرف فضل شباننا فى مكافحة الحماية البريطانية وكيف وقفوا الى صف الزعماء فى الدفاع عن الوطن والنهوض به. ومثل هذا الكفاح السياسى ثم هذا النهوض كلاهما يدل على المتانة والقوة فى الأخلاق

ولكن هذه الميزات نفسها التى يمتاز بها شباننا قد رافقتها عيوب تحتاج إلى ارشاد حتى تستقيم الأخلاق. ويتجه النظر إلى المقاصد السامية دون انحراف. فهذا التمرد الذى انبث فى نفوس شباننا منذ سنة ١٩١٩ قد رافقه أحياناً تمرد على الآباء والمعلمين حتى فقد هؤلاء سلطتهم فى القيادة وهى سلطة تقول بها الطبيعة ويقر بها العمران والطالب يحتاج بفطرته إلى من يرشده من والد أو معلم فاذا حمل لواء التمرد فى وجهيهما نشأ وكأنه الجندى بلا جيش. فتحن فى حاجة إلى ان ننبه شباننا وهم بعد فى طور التحصيل الى ان الآباء والمعلمين ليسوا من الانجليز ولا هم يمثلون القوة المحتلة الغاصبة فيجب طاعتهم والانتفاع بارشادهم. ويجب ان نوضح لهم ان المرء مفطور على ان يعمم فى نزعاته ولا يخصص. فتحن نسخط على الدنيا كلها اذا سخطنا على شئ خاص فى أعمالنا. وكذلك الطالب يتمرد على الانجليز فينساق بذلك الى التمرد على الآباء والمعلمين وغيرهم. ولكن شيئاً من التأمل والتفكير يعيد الى الشبان تلك الحرمة التى فقدوها فى النظر الى من هم أكبر منه وأرشد

وثم نزعة أخرى شريفة هى نزعة الحرية قد رافقها هيب آخر فى الشبان نغنى به نوعاً من

المجانة حين لا يكثر الشاب بما يقرأ أو بما يلهو . فتراه يقرأ بعض الصحف التي تعتمد في طلب الزواج على السب والقدح ولا يكاد يكون لها وسيلة أخرى للاعراب عن معنى من المعاني . ولكن الحقيقة يخطئها الشاب هنا ان الحرية ليست المجانة وانما هي الشعور باننا مسئولون واننا نتحمل تبعات . وحسبنا من الأمثلة على ذلك مثال الدستور الذي منحنا حريتنا جميعاً في ان نحكم انفسنا كما نشاء فانه زاد بذلك تبعتنا في تحمل اعباء الحكم

فالحرية هي المسئولية . ومن هنا كراهة معظم الناس لها وخوفهم منها . فاذا عرف الشاب ذلك بقى عليه ان يضع لنفسه دستوراً يتقيد به في لهوه وقراءته . فلا يلهو بالتعرض لفتاة ولا يقرأ صحيفة ساقطة لكي يلهو بما فيها من شتائم . ولعل خير الطرق للقراءة ان نسأل انفسنا عقب الانتهاء من صحيفة أو كتاب : ماذا انتفعنا بقراءة هذه الصحيفة أو هذا الكتاب ؟ فن هذا يتضح للقارى ان عيوب الشاب الحديث ليست في الحقيقة سوى لواحق بفضائله . فهو في حاجة الى الارشاد حتى يطهر أخلاقه مما علق بها وحتى لا يسيء فهم التمرد ولا يخطيء معنى الحرية . فنحن تمرد على الانجليز ولكن ليس على آباءنا ولا معلمينا ونحن نحب الحرية ولكن لكي نزداد مسئوليتنا في الرقابة على انفسنا حين نلتقي بفتاة أو نشترى صحيفة أو نقرأ كتاباً والشاب الذي يسمى معنى الحرية والاستقلال هو كالفاتة التي تعتقد ان السفور هو التبرج وان الحياء ضعف لا يتفق مع الاستقلال . فان الشاب والفتاة يستطيعان التمتع بالحرية والاستقلال دون ان يحتاجا الى التمرد على الآباء أو المعلمين ودون الحاجة الى أن يفقد الحياء

أسطورة قديمة جميلة

من الاساطير الصغيرة التي يدبجها الشاعر الانجليزي كبلنغ ببراعته وكأنه يرسمها بريشته هذه الاسطورة الفريدة التي نقلها عن ديانة البراهمة . وقال :

حدث في أحد الازمان أو عند ما كان الزمن مبتدئاً في ميلاده وعند ما كانت الآلهة جديدة لم تعرف لها بعد أسماء وحين كان الانسان ما يزال جسمه ندياً بالطين الذي جبل منه ان هذا الانسان نفسه وقف وتصدى للآلهة وادعى انه هو أيضاً إله

فقصص الآلهة ما قدمه من بينات ووزنها فوجدت ان دعواه صادقة

ولكن هذه الآلهة بعد أن سلطت بدعوى الانسان تسالت اليه في الخفاء واختلست منه هذه الالهوية وهي تنوى ان تخفيها عنه حتى لا يهتدى لها أبداً . ولكن هذا العمل لم يكن سهلاً . فقد قالت الآلهة لنفسها انها اذا أخفتها في أى مكان في الارض فان الانسان لن يترك حجراً في مكان

حتى يقلبه في البحث عنها والاهتداء اليها . ثم هي اذا أخفتها عندها فانها تخشى ان يصعد الانسان اليها في السماء ويقتنصها منها

وبينا الآلهة جميعها في حيرة إذ تقدم اليها أعقلها وأحكمها وقال : « اتركوا الى هذه المسألة فانا أحلها »

ثم قبض بيده على هذه الشعاعة الصغيرة المضطربة التي تحتوى على ألوهية الانسان فلما صارت في قبضته بسط كفه واذ بها قد طارت منه . وعندئذ قال : « هذا حسن . لقد أخفيتنا حيث لا يستطيع الانسان أن يحلم بمكانها . أجل . انى أخفيتنا في الانسان نفسه »

ومغزى هذه القصة أو الاسطورة الجميلة يدركه كل من قرأ تاريخ الصوفيين من قدماء العرب ومحدثي الاوربيين بل أيضاً من يقرأ الفلاسفة الجدد مثل جيمس أو برغسون

ففي نفس كل منا شعاعة صغيرة تضطرب هي هذه البصيرة القدسية التي ترفعتنا أحياناً فوق عقولنا فنعرف منها من المواقف والمآزق الحرجة أننا أشرف مما كنا نظن وان فينا من السمو والعظمة ما لم يكن يخطر لنا في بال

فهذا العقل الذي يسوقنا الى الانانية البشعة ويحضنا على التنافس والتحاسد ومغالبة الغير على مافي أيديهم والاستزادة من العقار والتخلص في ثنايا الشح والتقدير بالمال والحياة ينهزم أحياناً أمام هذه البصيرة القدسية فترانا نضحى بأنفسنا في سبيل البر والخير يتمتع بهما غير ناهين نكون نحن أشلاء أو رماداً . فالعقل مادي وهو يطلب الاثرة ولكن هذه البصيرة التي أخفتها الآلهة في انفسنا كما تقول الاسطورة الهندية تغرينا بالايثار وتدفعنا اليه فنسمو ونرتفع فوق أنفسنا فنحقق بالدفاع عن الوطن أو الحرية ما نترك ثمرته لغيرنا بينما لانال نحن منه سوى التضحية بانفسنا . فلو كنا انانيين نقنع من الدنيا بمصلحتنا الذاتية لما رضى واحد منا بأن يضحي بنفسه

فن هذه التضحية ندرك أننا أشرف مما نظن واننا نضع مصلحة الناس والعالم فوق مصلحتنا الشخصية وان لنا بصيرة سامية ندرك مصلحة الكون وتغلب في الازمات على صوت العقل فتكشف لنا بذلك عن هذا السر الذي أودعته الآلهة قلوبنا خفية كما تقول الاسطورة أو عن ذلك

القبس الذي يشع في قلوبنا من ذلك العنصر الذي يبعث الحياة في الاجسام كما يقول برغسون

وليست التضحية بالبرهان الوحيد على اننا نسمو فوق عقولنا ونؤثر مصلحة الكل على مصلحتنا

التي هـ الجزء بل هناك مثلاً ذلك النوع من البر الذي يقهر عليه قهراً ونعرف أن فيه تلفناً ولكننا مع ذلك نتشبث به . كما يحدث عندما ندعو الى مذهب نبغى تحقيقه أو مثل أعلى نشده . فنشعر

عندئذ أن بصيرتنا بالحياة تتغلب على عقولنا وتسوقنا بل تسخرنا لأغراضها السامية ونحن راضون بما نلقاه من خسف ومشقة في سبيل هذه الأغراض وربما كانت ميزة الأديب على العالم أن بصيرته تملك عليه عقله

وخلاصة القول أن في نفوسنا شعاعة صغيرة من النور أخفتها الآلهة فعلياً أن نلتمسها لأنها هي الصلة التي تربطنا بالكون وتصلنا بعنصر الحياة الشاملة لجميع الأحياء وهي البصيرة التي ترفعنا فوق العقل والانانية والمادية

أجل الأشياء

الجمال كالسعادة إذا تحراه الإنسان الفاه في كل مكان لأنه حالة في النفس التي تشده . وكان كل إنسان ليس قادراً على السعادة إلا بمقدار ما عنده من الاستعداد الذاتي لها كذلك ليس كل إنسان قادراً على فهم الجمال وإدراك معانيه إلا بمقدار ما في نفسه هو من عناصر الجمال . وذلك لأننا لا نقر بأن هذا المخلوق الحي أو الجامد النبات أو الحيوان جميلاً ما لم تكن العناصر التي يتألف منها جماله مغروسة في أنفسنا قبل أن نراه

وبعبارة فلسفية نقول أن الجمال ذاتي عندى وليس شيئاً موضوعياً . ولكن هذا تقعر يبعدنا عن السهولة التي توخاها في هذه المقالة . فالجمال مع أنه أغلى الأشياء وأتمناها فإنه أيضاً أشيع الأشياء وأقلها كلفة للاستمتاع به . ففي أنفاس الصباح العطرة جمال يدركه أولئك الذين ما تزال فطرتهم سليمة فلا يفسدونهم بالسجائر يدخنونها لأن في نسيم الصباح عبقاً أعطر من عبق الدخان . ولقد كان الأديب الإنجليزي رسكين يعجب من المدخنين كيف يدخنون ويحرمون أنفسهم من نسيم الصباح

وهذا يذكرنا بما يقوله غاندى ذلك الهندي العظيم الذي يدعو إلى الفطرة ويخفف عنا بذلك شيئاً من تكاليف الحضارة والحاحها علينا في أن نعيش عيشة صناعية حافلة بالمنبهات القوية والطعام الدسم والسهر المتوالى . فهو ينصح لنا أيضاً مثل رسكين بأن نتوخى الجمال في رؤية الطبيعة وهي تستيقظ من رقدة الليل ونمشي حفاة الأقدام على التراب الندي في وسط الحقول وبين العشب والزهر حين تنفرد بالجسم ولكننا في انفرادنا لا نشعر فيه بالوحشة لأننا نستأنس بالطبيعة التي تقربنا من الكون وخلاته فتزيد الوشائج ويتأكد الاجتماع الروحي بيننا وبينها فيفعم الحب قلوبنا ونحس في لحظات بذلك الطرب الذي يكشف لنا عن مصالح روحية أسمى وأبقى من هذه المصالح الصغيرة التي تستهلك وقتنا في الحضارة

أن الاحساس بالجمال يسرى في النفس بمقدار استعدادها للحب . ولذلك فإن رجل الفن العظيم الذي ينشد الجمال في قصيدة أو تمثال أو مقال أو قصة هو أيضاً رجل الحب العظيم . ولهذا السبب تجد للحب تلك المكانة العليا في الأدب ومحال أن تجد رجلاً ينغل صدره الحقد والانانية يمكن أن يكون أديباً سامياً

وأسمى الأدباء وأخلداهم ذكراً هو دستورفسكي رجل الحب والجمال فقد كان يرى الجمال في كل شيء ويحب كل شيء وينصح لنا بأن نحب العالم كله ونقبل التراب الذي ندوس عليه . ولذلك فإن القارئ يقرأ قصصه وكأنه يقرأ صلاة سامية يخشع فيها له خشوع المحب لحبيبته الذي يجثو أمامها ويترقب للدموع تتساقط من عينيه والقبلات الحارة تنطبع على قدمي حبيبته

والجمال يشغل العالم كله ولكنه يتفاوت ولعل أجمل الأشياء هم أطفال الإنسان والحيوان ففي معطف الإنسان عالم من الجمال قد انطوى في جرم صغير كأنه العطر يجمع من حقل من الورد في قنينة صغيرة . ففي جسم الصغير حكمة الآباء وتاريخ الملايين من السنين وفي نفسه تشوف الإنسان إلى المستقبل ورغبته في السمو والنزوع إلى التقدم بل يكاد الطفل يكون أحد الأصول في بزوغ حاسة الجمال عندنا فإن لفظة « لطيف » التي تعني الآن الجميل لم تكن تعني في أصل وضعها سوى الصغير . وذلك لأننا نستجمل كل شيء وكل مخلوق صغير

بل طفل الحيوان نفسه لا يقل جمالاً عن أطفال الإنسان فقلوبنا تطفر إليه حباً وحناناً فنرى حملاً أو جرواً أو خنوصاً حتى نخنوع عليه ونمسحه وتأمل تلك السذاجة في وجهه وهذا الاستسلام البريء لنا في حركاته ونظراته فنعشقه ونحوطه بعنايتنا وخدمتنا ونحميه من كل ما يؤذيه ولكن نعود فنقول أن الجمال ذاتي عندى فنحن لا نستحيل العالم واثباته إلا بمقدار ما في نفوسنا من جمال . ولذلك فاجملنا نفساً هو أكثرنا استمتاعاً وأكثرنا حباً وأبعدنا من الكراهة وإذا كان الاحساس بالجمال والاحساس بالحب طبيعتين فإن التربية تزيدهما . كالرقص يعلمانا الرشاقة في المشي أو كالخطابة تعلمنا اجادة الالقاء فيجب أن نربي أنفسنا على التفتيش عن الجمال ونقمعها عن الحقد والكراهة

حياة عظيم

يعيش الآن في الولايات المتحدة رجل في الحادية والثمانين من عمره هو المستر أديسون . ومع أنه في هذه السن التي إذا بلغها أحدنا شرع يتهاى للموت ويقف عقاراته على ورثته وأقاربه

وفقاً يضمن لهم الشجار الدائم بعد وفاته قد شرع يدرس علماً جديداً لم يدرسه قط في حياته هو علم النبات . وغايته التي يرمى إليها من هذا الدرس هو استنبات شجرة تصلح لان يستخرج منها الكوتشوك

وقصة الكوتشوك من أعجب القصص التي تدل على النشاط والتبصر . فقد كانت هذه الشجرة التي تفرز هذه المادة تنبت في برازيل فلما عرفها أحد الانجليز ووقف على فائدتها وبصر بمستقبلها في الصناعة سرق كمية من البذور وحملها الى لندن حيث استنبتت هناك في الاصح . وحملت هذه الاصح الى ممتلكات بريطانيا العظمى في سنغافورة وغيرها وزرعت

وصارت النتيجة ان البريطانيين الآن يتحكمون في أسواق الكوتشوك ويكادون يحتكرون تجارته دون الاميركيين الذين نبتت هذه الشجرة في قارتهم . ولذلك فان الاميركيين يقلقون الآن أشد القلق كلما تذكروا أنهم هم أكبر المستنفدين لهذه المادة ومع ذلك فهي لا تنبت في بلادهم . ولو قامت حرب بينهم وبين الانجليز لاستطاع هؤلاء ان يمنعوا ارسال الكوتشوك اليهم ويمنعوهم بذلك من صنع الاتوميلات

ورأى أديسون بعد أن جاز الثمانين هذه الحال فشرع يدرس علم النبات لكي يستنبت شجرة يمكنها أن تعيش في مناخ الولايات المتحدة ويمكنها أن تخرج هذه المادة . فكانه يريد أن يخلق شجرة جديدة تتحمل مناخاً لم تعش فيه من قبل ومع ما يترامى لنا في هذا العمل من الاستحالة فقد وفق اليه رجل أميركي آخر يدعى بوربانك استطاع ان ينبت نوعاً من الككتوس (أى التين الشوكي) ولكن ليس له شوك ويمكن المشاة أن ترعاه وتسيغه

والعبرة في أديسون أنه يحاول درس علم جديد وهو في هذه السن المتقدمة ولا يريد ان يقنع منه بالدرس بل يقصد منه إلى الاكتشاف والخلق

وحياة أديسون كلها عبر وخصوصاً لنا نحن . فان كثيرين منا يعززون عجزنا عن الاكتشاف والاختراع بأن المدارس لم تهيننا لذلك ولم تعودنا البحث العلمي وان أساتذة الجامعات في أوروبا والعلماء في العواصم الكبرى يتوقفون الى الاكتشاف بما عندهم من معامل ومختبرات ليس لنا مثلها ولكن أديسون يكذب هذا الزعم . فهو نفسه لم يظفر في حياته بأية تربية علمية ومع ذلك فله ٩٠٠ اختراع مسجل في الولايات المتحدة كلها يعرف منها المصباح الكهربائي والفنوغراف والسينما توغراف

ثم هو استطاع ان يخترع هذه الأشياء وهو دون الناس كفاية لانه أصم وهنا مكان العجب من رجل أصم يخترع الفنوغراف ويتحسس بخياله شيئاً لا يمكنه أن يسمعه بأذنيه الا أضعف السمع

واشقه ثم ينجح في النهاية . وهو في هذا يشبه بهوفن الموسيقي الاصح . وقد نشأ أديسون عصامياً يبيع الجرائد في القطارات . وابتكر ذهنه الصغير في ذلك الوقت أن يجمع بضعة حروف يؤلف منها جريدة للقطار فكان هذا العمل باكورة لمخترعاته العديدة فيما بعد . ولسنا نضرب المثل بأديسون لكي نقول انه لا فائدة من تعليم الجامعات وتوفير أدوات البحث في المعامل والمختبرات بل بالعكس نحن نعتقد أنه لو كان أديسون قد ظفر بتعليم عال ونشأ على أصول العلم الصحيح لازدهرت قريحته أكبر ازدهار وكانت منفعته أعظم . فانه للآن يؤخذ عليه أنه لم يضع مبدأ جديداً في العلم وليس شك في ان نقص تربيته هو من الاسباب المهمة في ذلك . ولكننا نضرب المثل بأديسون لانه توفر على الاختراع دون ان يتأهل له بالتربية العلمية وأثبت بذلك ان النشاط والتربية والدأب صفات تعوض صاحبها من النقص مهما كان مبلغه . ثم نضرب به المثل أيضاً لانه بعد ان جاز الثمانين شرع يدرس علماً لم يدرسه من قبل فكان نفس هذا الشيخ الفاني ما تزال فتية بل صبية لم تفقد بعد روح التعجب من الخفايا ولا روح الدرس والشوق إلى زيادة المعرفة . فهذا الطالب الكبير الصغير الذي يرفض ان يعيش الآن في دعة الشيخوخة يتسلى بمسبخته ويدمن التفكير في الموت يجب ان تكون لنا فيه جملة عبر ننتفع بها في حياتنا وأكبر هذه العبر حبه للدرس وتحديد ذهنه حتى وهو في الثمانين

في التعليم

يقال أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أغنى أقطار العالم الآن وأكثرها صناعة وأرقاها زراعة . وفيها من السكان ما يقرب من ١٢٠ مليوناً يعيشون في رخاء ووفر . ومع ذلك فانه قلما يذكر أحد منا أن هذا القطر قد عاش قبل قدوم المهاجرين الاوربيين اليه آلاف السنين لا يسمع بغناه أحد ولا يخرج منه اختراع . وربما كان سكانه لا يريدون على مليون نفس يعيشون باقتيات الأثمار الفجة وصيد الوحوش من الغابات

والارض هي الارض لم تبدل مناخها ولا تغير مناخها . وانما الذي تبدل هو الناس . فقد كانوا قبلاً جهلاء لا يعرفون كيف يستغلون بلادهم فصاروا بعد ذلك علماء يستنبطون الذهب والبترول منها ويزرعون قحطها ويكشفون مخاى ثروتها ويخترعون فيها شتى المصنوعات فالفرق بين أميركا القديمة وأميركا الحديثة هو الفرق بين الجهل والعلم وعلى ذلك يجب أن نعد العلم أساساً خطيراً من أسس الثروة ويجب أيضاً أن نعرف أن مهما أنفقنا من المال على التعليم فاننا لن نتهم بالاسراف أو الشطط

وقد كان التعليم في الازمنة القديمة زينة يترن بها الرجال أو كان نوعاً من التبرج الذهني فكان المتعلم يدرس البلاغة والاشعار لكي يباهى بتأليف خطاب منمق أو قصيدة مزخرفة ولم تكن هذه حال الشرق فقط بل كانت أيضاً حال الغرب حين كان يتعلم أبناء الأغنياء للتشقق فقط . أما سائر الناس فكانوا يتعلمون صناعة « راقية » مثل درس الديانة أو الطب أو التعليم وبقيت الحال على ذلك الى وقت قريب بل هي عندنا ما تزال كذلك في مدارسنا الكبرى لا تعلم عندنا سوى الصناعات الراقية التي يتوهم أبناء الأغنياء أنها تليق بهم دون سواها . فعندنا مدارس عليا لتخريج المحامين والاطباء والمهندسين والمعلمين وهي صناعات تتسم كلها بأن صاحبها يستطيع أن يعيش وهو نظيف اليد واللباس وقد ينال بها منصباً يقف فيه موقف المدير المسيطر

وقد خرجت أوروبا وأميركا من هذا الطور ورفعت شأن الصناعة بجعلها جزءاً من التعليم الجامعي . وقد اضطرت الى ذلك بتقدم الصناعة من جهة ولأنها رأت أن النظريات العلمية تزيد تقدمها

ودانت الصناعة الى عهد قريب من محتكرات العامة وكانت وضعية يترفع عنها الخاصة ولكنتا نعيش الآن في عصر صناعي لا يبلغ الرقي فيه من الامم سوى تلك التي مارست الصناعات واستخدمت العلم في سبيلها ولذلك فان التعليم الصناعي قد ارتفع الى مكانة التعليم العالي وصار الدباغ الذي يشتغل بدبغ الجلود كيميائياً عظيماً له حرمة الطيب أو المحامي ويمتاز عليهما بالثروة ومما يدل على قيمة الصناعة أن دول الحلفاء مدة الحرب الكبرى كانت ترسل جواسيسها لكي تسرق من ألمانيا سر صناعة الاصباغ فهي لم تحاول أن تسرق منها سر الفلسفة أو سر الآداب الالمانية وانما جهدت جهدها لكي تسرق منها سر الصناعة

وفي هذا كله عبرة لنا نحن المصريين فتعليمنا العالي يجب ألا يقتصر على الثقافة والآداب والعلوم النظرية بل يجب أن ينظر فيه الى ترقية الصناعات فنحن نريد متخرجين حاصلين على شهادات عليا تساوي شهادة الطب أو المحاماة في القيمة والاعتبار ولكن صاحبها يستطيع أن يحترف بها حرفة صناعية فيدير مصنعاً كيميائياً أو ميكانيكياً أو يدير مزرعة يستطيع أن يستغلها استغلالاً علمياً ويستنتج فيها السلالات الجديدة من النبات أو الحيوان

ولسنا بذلك نتقص من قيمة الآداب أو الثقافة في التعليم بل نريد أن نقول أن الاختصار عليهما قد صار لا يجدي نفعاً عظيماً ولا يجلب للأمة الثروة التي ترفعها الى مصاف الامم الراقية لأننا مهما تمحلنا من أسباب الرفعة للأمة فاننا لانستطيع أن نقول بأن الرقي ممكن في أيامنا هذه مالم تدعمه ثروة ضخمة للأمة . وسبيل الثروة هي الصناعة

فيجب لذلك أن يتجه التعليم في مصر نحو الصناعة ورفع شأنها حتى يقبل عليها الشباب ويرى وهو يمارسها أن كرامته محفوظة وأنه لا عار عليه في أن يكون صاحب مخبز أو مصبغة أو ورشة

سعة الصدر وحاجتنا اليها

ربما كانت سعة الصدر من أهم علامات الرجل المهذب الذي تثقف بمختلف الآداب والعلوم كما هي أيضاً من أهم شروط الحضارة فالرجل الذي غذا نفسه وثقفها ووقف على آراء المتقدمين والمتأخرين لا يسهه أن يتعصب لفكرة سوى الفكرة القائلة بحرية الرأي أي القائلة بعدم التعصب فهو يستطيع أن يتحمل كل نقد ويتسامح فيه لأنه لسعة ثقافته قد وقف على آراء الكثيرين المختلفين وقدر وجهات نظرهم وعرف حسناتها كما عرف سيئاتها . أما الرجل الجاهل فيتعصب لرأى أو فكرة ويحتد في الدفاع عنها لأنه قاصر عن الوقوف على وجهات النظر التي تخالفه

وسعة الصدر أيضاً من الشروط اللازمة للحضارة . وهي هنا تسمى التسامح . فليست تقوم في العالم حضارة بلا تسامح . وذلك لأن الأمة بطبيعتها تنقسم في الآراء والمذاهب طوائف متباينة فاذا لم تسامح هذه الطوائف واذا لم ترض لغيرها بالوجود كما ترضى لنفسها به فان التعصب يدفعها الى التناحر الذي قد ينتهي بحرب أهلية فيها فناء الأمة وحضارتها . والتسامح هو الرضى بالآراء المخالفة ولو كان في التصريح بها ما يؤلمنا بعض الألم . فكل منا بطبيعته غيور على أن يرى آراءه الشخصية أو الطائفية فاشية حوله ولكن لا يمكن أن تقوم حضارة حتى تتسع صدورنا لآراء الغير الشخصية والطائفية ولو كنا نشعر ببعض الألم أو قد يصيبنا قليل من الأذى لنشرها أي اننا يجب أن ننزل عن شيء من مصالحنا تسامحاً ومحافظة على الحرية الفكرية

هذا يؤدي بنا الى القول بالتسامح في النقد تقبله دون احتداد أو شكاية مادامت النية حسنة والغاية المنشودة هي الخير بل يجب علينا أن تتسع صدورنا للنقد ونعده عاملاً من عوامل التقويم لأن الانسان مقطوع على الزهو والغرور فاذا قرأ نقداً من أحد الخصوم رأى نفسه كما يراه غيره فيتشعشع عنه الزهو ويقيم من نفسه ما عوج . وقد تتألم لهذا النقد ولكن النظر الصادق للمصلحة يجب أن يزيل هذا الألم

وهنا يجدر بنا أن نقول أن الأحرار أو الحريين الذين لا تخلو أمة من حزب لهم في أوروبا انما يقصدون من هذه اللفظة السخاء وسعة الصدر كما يقصدون منها الحرية . فحزب الأحرار هو

حزب الاستخياء الذين يقولون بعدم الضن بالاصلاح على الطبقات الفقيرة . فالرجل الحر ليس هو الذى يطلب الحرية لنفسه فقط بل هو أيضاً ذلك الذى يحس بالارحية وسخاء النفس وسعة الصدر ومثل هذا الرجل ضرورى لكل هيئة اجتماعية راقية

وقد انتهى الناس من التعصب الدينى وعرفوا أن التسامح فى العقيدة الدينية هو خير ضمان للسلم والامن بعد ان قضوا مئات السنين فى الحروب الدينية التى لم ترد أحداً عن عقيدته ولكنها بللت الارض بالدماء وزادت الاحقاد والضغائن وأخرت الامم ودمرت الحضارة . وصار الناس الآن تتسع صدورهم للاختلاف فى المذاهب الدينية وباتت الحرية الدينية أساساً من أسس الحضارة ولكن الاختلاف فى المذاهب السياسية قد أوشك أن يأخذ المكان القديم الذى كان للاختلاف فى المذاهب الدينية فامتلات النفوس احنا وضغائن كثيراً ما بعثت الأيدى المجرمة على ارتكاب الجرائم وصار هناك نوع من الهوس السياسى يشبه ذلك الهوس الدينى القديم حين كان يشعر كل انسان أنه على حق بل يحتكر الحق وان غيره من الخصوم على باطل لا يعرف سوى الباطل وليس هذا الهوس أو التعصب الادليلاً على ضيق الصدر وقلة الثقافة لان الجاهل لجهله مناحى الفكر الاخرى يتعصب لفكرته أما العالم المثقف فلعله بها وتوسعه فى الدرس يرى فى نفسه من التسامح وسعة الصدر ما يمنعه من التعصب . والرأى السياسى عند العالم المثقف لا يعدو ان يكون رأياً يقبل التنقيح والابدال ولكنه عند الجاهل عقيدة راسخة لا تقوم على عقل وروية . فلتكن دعوتنا الى التسامح وسعة الصدر للنقد . ولتكن أدواتنا التى تتوصل بها الى ذلك زيادة المعرفة ونشر الثقافة بين الناس حتى لا يقتصروا على وجهة واحدة من الرأى تتجمد فى نفوسهم فتصير عقيدة راسخة بل تعمل على أضعاف روح التعصب بزيادة الثقافة بينهم حتى لا يرون مالمثل . أو للشخص فقط بل يرون ما عليه أيضاً

البذرة

(فلتكن تلك البذرة الحسنة أو القدوة الفاضلة للجيل القادم)

عند الالمان أمثلة تقصها الأم على ابنها ويرويها الكبير للصغير لى تكون غرساً صالحاً يلذهن بوجه قوى للناس للخير والبر يسمعا الصبي فتنبطح بذهنه وتختلط بدمه وتتأصل فى عناصره فاذا شب عمل بها واتجه نحو الغاية المقصودة منها . والمثل الشائع بين الأمة كما ان الأمثلة التى تقص على الصغار للعظة والعبرة وكلاهما يدل على عقلية هذه الأمة وما تتشوف اليه بل يمكن معرفة طبائع الأمم وأخلاقها من أمثالها

يقول الالمان فى أمثالهم : ان سائحين كانا قد نزلا فى قرية فيهما هما قاعدان فى خان إذ ابنا ر قد شبت فى القرية

فقال أحدهما : ليس هذا شأنى

ولكن الآخر نهض وعدا نحو النار فانقذ بعض الناس وكثيراً من الأناث . فلما عاد الى رفيقه سأله هذا : ومن أمرك بان تخاطر بنفسك لمصالح غيرك ؟

فقال الرجل الشهم : ان الذى أمرنى بهذا هو الذى أمرنى بأن أدفن البذرة لى تنبت وتكثر فقال الآخر : ولكن لو كنت أنت قد دفنت فى هذه النار ؟ فأجابه الثانى : إذن كنت اكون هذه البذرة

فهذه أمثلة جميلة لو ان أحد شعرائنا وضعها فى مقطوعة يحفظها الصغار لكأنت من خير المحفوظات التى تقوم الأخلاق وتغرس فى نفس الناشء روح البذل والتضحية . ففيها معنى الاثار وبذل النفس لمصلحة الغير ثم فيها هذا المعنى الخطير وهو ان كل كلمة تتفوه بها أو عمل نعمله هو بمثابة البذرة التى تنبت وتثمر آلاف البذور

وهذا يبعثنا الى ان نحاسب أنفسنا فلا نزرع من البذور الا أصلحها . فكلمة السباب التى ننطق بها أو نكتبها هى بذرة سوء ستنبت كالشوك بين الجيل الجديد الذى ينشأ على تعلمها والتلفظ بها . وخواطر الحقد والحسد والجبن والاثرة التى تتفوه بها أو نكتبها ستجد صدى فى نفوس الذين يسمعونها أو يقرءونها فينشئون عليها نشأة سيئة

فكل منا زارع وما من عمل يأتىه أو كلمة يتفوه بها إلا وهى بمثابة البذرة تنمو وتربو وتثمر الثمرة الصالحة أو السيئة . وذلك لاننا نعيش بين الناس فهم قدوة لنا ونحن قدوة لهم وهم يتأثرون بأعمالنا وأقوالنا كما تتأثر نحن بهم . وأكبر عامل فى الأخلاق بل يكاد يكون العامل الوحيد فيها هو القدوة فنحن ننشأ على غرار من حولنا من الناس الذين نعاشرهم أو نلاصقهم فى معاملة أو زمالة أو نحو ذلك . ومراجع هذه القوة التى نراها فى القدوة هو ما فطرنا عليه من المحاكاة لغيرنا . فنحن نحاكي الناس فى حركاتهم وكلامهم وأعمالهم على غير وعى منا بحيث أننا نحب ونكره الناس والأشياء أو نعجب بهم فى أكثر الأحيان ان لم نقل فيها كلها تقليداً ومحاكاة وليس عن سبيل التفكير والاختيار . فاذا كان هؤلاء الناس يذرون البذرة الصالحة فى القول والعمل نشأنا مثلهم وإذا كانوا عكس ذلك ينطقون بهجر القول ولا يستحيون من فساد أعمالهم فاننا نقتدى بهم ونسير سيرة السوء التى يسبونها علينا . ومن هنا نفوذ الكاتب أو الزعيم أو

أى انسان آخر له وجهة المال أو الحسب أو المركز فانه يستطيع بالقول أو العمل ان يكون قوة للخير أو الشر وان يكون بذرة تنبت للجيل الذى يليه فينتفع أو يستضر بها فى أخلاقه. ويجب لهذا السبب ان تكون فىنا روح ذلك الانسان الذى يرمى بنفسه فى النار لكي يتقذ بعض الناس أو الاشياء راضياً بأن يكون كالبذرة تدفن فى التراب لكي ينتفع بها أبناء الجيل القادم إذا لم ينفع أبناء الجيل الحاضر. وإذا كنا نؤمن بأن الوسط يؤثر فى الانسان فالتا يجب ألا ننسى اننا أنفسنا أحد أجزاء هذا الوسط الذى يتألف منه الكل. وكما ان الوسط السيء يجعل اللص الكبير رئيس المنسر والعاشر السكير والمبذر من الأبطال الشهام فكذلك الوسط الحسن لا يقر بالبطولة والشهامة الا للرجل الطاهر الذى يسعى للخدمة فيعمل لتأسيس مدرسة أو مستشفى أو اصلاح أحوال العمال أو نحو ذلك مما هو فى نسق الرقى الحديث وشهامة القرن العشرين. فيجب ان نكون نحن تلك البذرة الحسنة والقودة الفاضلة للجيل القادم

من اعلام اليقظة

..... ثم رأيت الريف المصرى وقد تبادل عما كنا نعرفه ولبس ثوباً زاهياً من النظرة فى الحقول والنظافة فى القرى فكانت القرية بعيدة كل البعد عما كنا نألفه من تلك المنازل المبنية بالطين والطوب المجفف فى الشمس تلك التى كنا نراها فى أيامنا كامدة اللون كثيرة الغبار والتراب بل كانت القرى الجديدة أشبه شئ بالمدن الصغيرة فكانت البيوت مشيدة بالحجر كل بيت يتألف من طابقين والأنابيب تحمل المياه إليها وهناك أنابيب أخرى تحمل الغاز للاضاءة والطبخ. وكانت الشوارع مفروشة بالأسفلت ووراء كل بيت حديقة صغيرة للزهر وشجيرات الزينة

وتأملت الفلاحين أنفسهم فألفيتهم يلبسون ملابسنا نحن الأفندية. ولم يكن أحد منهم فى أيامنا يعرف الجورب البماغ أو القميص الذى يغلى فى الماء حتى كأنه يسلق فيخرج أبيض ناصعاً فكانت أرى الفلاحين فى هيئة الأفندية المتأنفين فأتساءل: من أين جاءتهم هذه الثروة وكيف يعملون فى الحقول وهم بهذه الملابس الفاخرة؟

وشرعت أدرس أحوالهم فأتضح لى بعد قليل أنهم تركوا الطرق الزراعية التى كنا نتبعها فقد كان كل فلاح فى أيامنا مهما تراوح عقاره من بضعة قراريط الى بضعة أفدنة يعمل لنفسه فيشتري لنفسه آلات للرى وأخرى للحرث ويشتري الماشية لخدمة أرضه وكان فقيراً مريضاً

ينزل الى خصره فى الماء الآسن فتعلق به ديدان البلهارسيا وتصيب جسمه آفات كثيرة ولكن هؤلاء الفلاحين رأوا أن التعاون خير من الانفراد. فجعلوا القرية أشبه شئ بالشركة المساهمة والقوا هذه الشركة لرى الارض وزرعها وجلبوا لها المهندسين والزارعين الذين كانوا ينظرون الى القرية والارض التابعة لها كأنها مزرعة يملكها رجل واحد فاشتروا لها الآلات القوية لرفع المياه وحرث الارض. فقد كان فى القرية نحو الف ساقية وتابوت وطنبور للرى يعمل فيها نحو الف رجل فحى كل ذلك وصار للقرية كلها آلة واحدة قوية تبلغ قوتها الف حصان يديرها رجل مهندس اذا جاء ميعاد الرى روى جميع الارض المحتاجة الى المياه. وصار مثل ذلك فى الزراعة. ولما كان الزارعون المشرفون على الزراعة خبراء متعلمين فانهم وجها أكبر نشاطهم وهمهم الى زراعة الخضراوات والفاكهة فكانت غلة الفدان لاتقل عن ٧٠ أو ٨٠ جنيهاً وكانت مصر تصدر الفاكهة والبقول الى جميع أرجاء العالم. ولم يكن الفلاح يزرع أرضه بنفسه وانما كانت شركة التعاون تقوم بالرى والزرع والحصاد وتعطيه فى آخر السنة قيمة حصته بحسب ما يملك فى زمام القرية. فكان لصاحب الفدان سهم بينما كان لصاحب العشرة الألفة أسهم وهلم جراً

وفى الوقت نفسه لما وجد الفلاحون أنفسهم بلا عمل وأن الحديد والنار بأشراف المهندسين والخبراء يقوم مقام عضلاتهم فى الماضى عمدوا الى الصناعة فأسسوا مصانع للغزل والنسيج والخبز والاحذية والاثاث والورق. ورأيت القطن يجنى من الحقل فيوضع فى طرف من المصنع فيحلج ثم يغزل ثم ينسج ويخرج قاشاً جميلاً من الطرف الآخر وكان للصناعة شركة تعاون أيضاً تقسم الربح آخر العام بالمساهمة بين الذين اشتركوا فى خدمتها والعمل فى مصانعها وأثرى الفلاحون من ذلك أثراً فاحشاً فزال أمراضهم وكادت تمحى جرائمهم وصاروا يتأقنون فى ملايسهم ومساكنهم ويشتركون أحياناً فى بناء مدرسة أو مسرح حتى لقد رأيت منهم أجواقاً تمثل هامليت وروميو وجوليت وصارت لهم أندية يمشون فيها وقت الفراغ. وكان بعض القرى يميل الى تأسيس المكاتب وبعضها ينفق النفقات الباهظة فى انشاء المدارس وبعضها يتباهى بتأليف الجوقات الموسيقية أو التمثيلية

وكما توافر لديهم المال كذلك توافر لديهم الوقت فلم يكونوا يضطرون الى استخدام أبنائهم فى الحقول بل كانوا يرسلونهم الى المدارس فلا يخرجون منها الاحوالى العشرين فيستخدمون بعد ذلك بأجور عالية فى شركة التعاون التى تدير الزراعة أو تلك الشركة الاخرى التى تدير الصناعة وفشت الحضارة والنظافة بين الفلاحين فصارت القرية تجذب سكان المدن وكان هذا حلماً من أحلام اليقظة

العلم والعمل

من الكتب الفريدة التي ظهرت هذا العام كتاب «العلم والعمران» الذي أصدرته إدارة المقتطف وهو مجموعة من الخطب العلمية التي ألقاها أساطين العلوم في مجمع تقدم العلوم البريطاني في الثلاثين سنة الماضية. ولغتنا أحوج لغات العالم الى مثل هذه الخطب التي تبث الروح العلمية في نفوس القراء.

ولغتنا بطبيعتها لغة أدبية تؤاقي الكاتب على الزخرف ولكنها لا تؤاقيه على الدقة العلمية ولذلك فإن مثل هذا الكتاب من النوادر التي يجب أن نقتنيها ونعممها لأنها تعمل على تقدم لغتنا وجعلها لغة علم وتدقيق.

ونحن الآن نعيش في عصر الصناعة وأساس الصناعة هو العلم. فأيما أمة عنيت بالعلم وارتقت بذلك في الصناعة فلها السيادة على سائر العالم. ولكن العلم ليس نظريات تحفظ في المدارس وتجاز بها الامتحانات لانه لا يشمر الا اذا كان نزعة في النفس ينشأ عليها الصغير ويتربى عليها الصبيان حتى اذا شبوا نظروا للاشياء نظرة النقد وفكروا تفكير المخترع والمكتشف.

والقراء يعرفون أن أعظم ما غاظ الانجيز من الالمان تقدم هؤلاء في الصناعة وانهم شرعوا عقب الحرب الكبرى ينقلون عن ألمانيا طرق التربية العلمية. بل هم كانوا يقولون بذلك قبل الحرب بسنوات كما يرى القارىء من خطبة الاستاذ ديور سنة ١٩٠٢ فقد ذكر معمل بير الذي

يصنع الطيوب والاصباغ من الفحم وذكر أن فيه ٥٠٠٠ عامل و١٦٠٠ كيميائياً و٢٦٠ مهندساً ميكانيكياً و٦٨ كاتباً ثم ذكر تفوق الالمان على الانجليز وقال في ذلك (نقلنا عن كتاب العلم والعمران) «ولا يظن أحد اننا نقدر أن نرد ما فات ونسد هذا النقص بما عندنا من المدارس ووسائل

التعليم لأن الميول العلمية توجد في النفس قبل المدارس الصناعية. فيجب علينا أن نربي أبناءنا في صباهم تربية عقلية حتى يزونا الامور بميزان العقل ويحلوا المشكلات بعين الروية لا بما يحفظونه من القواعد العلمية فانه يخرج من مدارسنا كل سنة كثيرون من المتعلمين فن الكيمياء ولكن لا يصلح

أحد منهم لمعمل بير الالمانى المشار اليه آنفاً فان عقولهم مفعمة بما استظهروه من القواعد العلمية ولكن اذا عرضت لهم مسألة عويصة ليست في كتبهم عجز عليهم عن حلها لانه لم يصير جزءاً من عقولهم ولذلك يوحلون كلها عرضت لهم مسألة جديدة. والذين يسهل عليهم حل المشاكل هم

الذين اعتادوا التفكير والتدبير قبل دخولوا المدارس الجامعة. فالأمر المهم ليس هو أن الالمانيين أخذوا من يدنا هذه الصناعة أو تلك بل أنهم سبقونا في التربية العقلية العمومية حتى لا نستطيع أن نلحق بهم في أقل من ستين عاماً هذا اذا بذلنا أقصى الجهد.

فاذا كان الاستاذ ديور يقول هذا القول عن الانجليز والكتب العلمية فاشية بينهم ولغتهم تطاوع العالم على التعبير والوسط الذي ينشأ فيه الصبيان صناعي يبعث على التفكير العلمي فما هو حالنا نحن أمام هذا الرقي العلمي؟ واذا كان الانجليز الذين يستعمرون بلادنا بالصناعة والسياسة يحتاجون الى ستين سنة لكي تعود أذهانهم الاسلوب العلمي في التفكير فكم سنة نحتاج نحن اليها لكي نبلغ مبلغ المانيا؟

حقاً اننا عندما نفكر في حالنا من حيث العلم والصناعة نواجه معضلات عدة أقلها هذه اللغة التي يأبى علينا بعض علمائها ان نغذوها بالالفاظ العلمية الغربية وأدبرها بث الروح العلمية في الصبيان حتى يصير العلم كما يقول الاستاذ ديور «جزءاً من عقولهم» فان طريقة التعليم الفاشية بين صبياننا الآن تعودهم الاستظهار وسرد القواعد فينشئون على ان العلم لاعلاقة له بالحياة ويعيشون عيشة غير علمية لا يفكر أحدهم في اختراع أو اكتشاف.

اننا يجب أن نرسم لنا غاية نتجه ونرتقي اليها وهذه الغاية هي أن نرى الى أن تكون لنا في المستقبل حضارة صناعية تنهياً لها بالعلم. وهذا التهيؤ يحتاج الى بث الروح العلمية بين الصبيان والشبان هذه الروح التي تعمل للبحث العلمي والتي تجعلنا نملك ناحية الطبيعة ونعيش عيشة علمية.

زراعة الجو

كلنا يسمع الآن عن عجائب العلم من الطيارات التي تقتحم الجو وتركب السحاب وتعبث المحيط ومن الغازات الخائفة التي توشك ان تلغى الحروب خوفاً من الحروب ومن انتصارات العلم الكثيرة في الطب والجراحة. ولكن أعجب الاشياء في العلم الحديث هو اقتدارنا على زراعة الجو وتفصيل ذلك أن أهم العناصر التي تقوم بها الحياة هو عنصر النتروجين وهذا العنصر لا يمكن

الحيوان أن يحصل عليه الا من النبات ولا من النبات ان يحصل عليه الا من الارض. وذلك مع ان الجو ملوئ به حتى يمكن ان يقال ان كل قدم من الارض يقوم فوقه نحو طن من النتروجين ولكنه مع كثرتة هذه لا يمكننا نحن ولا النبات ان نلتفع به لان النبات يحتاج اليه مركباً وهو

في الهواء بسيط. فالنبات يمكنه أن يتغذى بالكربون الذي في الهواء ولكنه لا يمكنه ان يتغذى بالنتروجين الا اذا كان في هيئة أملاح تذوب في التربة وتمتصها الجذور

وحوالى سنة ١٩٢ تمكن السير كروكس من ان يجعل غاز النتروجين يحترق في مجرى كهربائي بين قطبين ويتولد منه مركب يمكن ان يوضع للنبات فيمضه كما يمتص سائر الاسمدة. والآن يستخرج من الجو كل عام نحو مليون طن من سماد النتروجين. وهو يباع في مصر للزراعيين

باسم الثرات فيسمدون به الذرة والقمح . وقد هم استعمال هذا السماد في جميع الاقطار الزراعية فاذا نحن فرضنا ان كل طن قد زاد غلة القمح بنحو ٢٠ أردباً فاننا بهذا التقدير نكون قد اكتسبنا من الجو نحو ٣٠ مليون أردب من القمح

وهذا هو ما نقصد بقولنا اننا الآن نزرع الجو . فنحن نربح من الجو كل عام هذا المقدار من القمح . وهذا المقدار نفسه سيزداد بتقدم السنين فيزداد عدد السكان في العالم من ان يكنى القطر الزراعي عشرة ملايين سيكفى ٢٠ أو ٣٠ مليوناً ويقل الخوف من القحط . كذلك يجب ألا ننسى ان هذا السماد نفسه المستخرج من الجو يستعمل في تسميد النباتات الاخرى التي تنبت القطن والكثبان والفواكه ونحوها

لقد اهتدى جدودنا المصريون القدماء الى زراعة اليابسة ففتحوا فتحاً عظيماً للانسان وزاد بذلك سكان العالم أكثر من مائة ضعف . ونحن نسمع الآن عن زراعة البحار والانهار والبحيرات يجلب اليها بيض السمك من البحار البعيدة ويربى فيها كما تربى بذور النبات على اليابسة ولكن اغرب من هذا وذاك زراعة الجو واستخراج ملح الثرات منه

وهكذا يسير العلم الى الامام فيقف الكيمياء في معمله يجرب ويختبر في بضع زجاجات وكأنه يلعب ولكنه يخرج بنتائج خطيرة كهذه النتيجة المهمة التي تضاعف غلات العالم وتوشك ان تضاعف سكانه

والآن يلعب العلماء باستخراج السكر من الخشب . ويلعبون بصنع البترول من الفحم . وقد مضى عهد اللعب بصنع الحرير من الخشب وصار هذا النسيج يباع في الاسواق ويزحم الحرير الطبيعي ويطرده من الاسواق . وما يلعبون به الآن سيكون له شأن عظيم في رقي الامم في المستقبل واذا أنت نظرت الى الامم الراقية ألفتيتها تلك التي تعتمد على العلم وباعتمادها على العلم قد صارت أما صناعية لان العلم هو الاساس الذي تبنى عليه الصناعة . وهذه الامم تسود العالم بقوة علمها وارتقاء صناعاتها

ولكن لنا عبرة أخرى من اكتشافات العلماء وهي أن المستقبل كفيل بان يظهرنا على معجزات عجيبة ويفتح لنا فتوحاً جديدة ويجعلنا نستغل الجو والبحر واليابسة باكثر جداً مما نستغلها الآن . فلن نستغرب منذ الآن نجاح أحد العلماء في صنع اللبن من النبات فيغنيانا بذلك عن المشاق التي نعانيها الآن في تربية البقر وحلبه واتقاء الامراض التي يحملها اللبن الى أطفالنا . ولن نستغرب في المستقبل ان تطبخ ملابسنا طبخاً بدلاً من ان تغزل وتنسج

وهكذا يسير العلم ويرفع الامم التي تمارسه ويجعل لها السيادة على الامم التي تهمله

الفقر

كلنا الآن حكومة وأمة وجماعات وأفراداً مشغول البال بمسألة اصلاح الاحوال التي يعيش فيها عمالنا وخصوصاً الفلاحين منهم . فالحكومة تواصل العمل جادة في زيادة ثروتهم بتوزيع الارض التي تملكها عليهم . ومصلحة الصحة تدرس المشروعات الخاصة بايصال الماء المقطر الى القرى وانشاء المستشفيات العديدة بينهم . وقد سن قانون خاص ببناء العزب أحيط به الفلاح برعاية لم يكن يحلم بها من قبل . فهذه كلها مقدمات تبعثنا على التفاؤل بالمستقبل . وان اليوم الذي نرى فيه قرانا نظيفة جميلة وفلاحنا صحيح الجسم راغد العيش ليس بعيداً . والواقع الآن انه ليس شيء يجرح كرامتنا القومية ويقذى العين بمنظره مثل هذه القرى التي ترقد بين الحقول الخضراء كأنها القروح المتقيحة في الجسم الجميل . فينا الطبيعة تزين أرضنا بنضارة الحياة وزهوتها اذا بنا نقيم في وسطها أكواخاً متراكمة من الطين ليس فيها شيء من جمال الهندسة أو النظام . ومع ان الريف في جميع الاقطار مكان التنزه والراحة والنسيم الذي يحمل أرج الزهر فانه في قطرنا خلو من كل ما يجذب اليه النفس بل فيه الشيء الكثير مما يصد ويبعث على الاشمئزاز . ولكن العلة الأصلية التي ترجع اليها الامراض التي يشكو منها الفلاحون وسائر العمال وكذلك علة القذارة التي يعيشون فيها أحياناً هي الفقر . فاذا نحن أردنا ان نجعل ريفنا جميلاً وقرانا نظيفة تشاكل بنظافتها فصاعة الطبيعة التي تحوطها واذا أردنا ان نرى العامل المصري في بزة حسنة يعيش في منزل له هيئة المنازل فسيل ذلك هو محو الفقر أو مكافئته حتى يمحي

وقد تدفعنا الانانية أحياناً الى ألا نبالي بالفقر مادامنا بعيدين عنه ولكن الفقر أبو الرذائل التي تنتقل من الفقير الى الغني وتصيب أفراد الأمة على السواء من أمرائها الى صعايلها . فجميع الاوبئة الوافدة نقد أولاً على الفقير وتعيش وتترى في بيئة القذارة التي تحوطه ثم تنتقل منه الى الغني فتصيبه كما تصيب الفقير ولولا هذه البيئة القذرة الاولى لما وجدت الامراض الوافدة التربة الصالحة لنموها وتفشيها . فاذا أراد الغني ان يتقي الامراض ويصون صحته من الضعف فأؤكد السبل الى ذلك ان يكافحها بين الفقراء أنفسهم ولا يكون ذلك الا بمكافحة الفقر . ونحن نعرف الآن ان كثيراً من الامراض تنقلها الحشرات . فالبراغيث تنقل الطاعون والقمل ينقل التيفوس والذباب ينقل التيفوئيد وهذه الحشرات كلها لا تعيش الا في الوسط القذر حيث يحول الفقر دون النظافة . وكلنا عرضة لهذه الحشرات التي تدب على أرجلها . فقد يقعد أحدنا مرة

واحدة في الترام أو القهوة فيقوم وقد علفت بملابسه قلة تنقل اليه حى التيفوس وتقضى عليه . وقد يشرب أحدنا قليلا من اللبن قد لمست ذبابة تحمل في أرجلها ميكروبات التيفويد فتقتله بعد لام مضنية . والفار الذى يسكن بيوت الأغنياء كما يسكن بيوت الفقراء يحمل على جسمه البراغيث التى تصينا من وقت لآخر بالطاعون

ونحن نلبس الفقر فى كل مكان مهما تخيلنا اننا بعيدون عنه . فنحن نستخدم الفقير فى بيوتنا يطهى لنا طعامنا ويحمل أولادنا الذين يتعلمون منه لغته . ويتلبسون بشيء غير قليل من أخلاقه ويحفظون ألفاظه بل أولادنا يعاشرون الخدم أكثر مما يعاشروننا فيجنون من ثمار الفقر شيئا غير قليل يلزمهم طول حياتهم

والفقر يؤذى الأغنياء لأنه يخلق من الفقراء مجرمين يعتدون عليهم . ويحدث أحيانا أن تحترف الفتاة الفقيرة حرفة البغاء فتنتشر الامراض الويلة بين الاغنياء

فمن ذلك كله نرى ان الفقير يعدى الغنى ويحملة شيئا من جرائره ونرى أيضا ان واجبنا جميعا ان نمحو الفقر ان لم يكن حبا بالفقراء فحبا بأنفسنا وصيانة لها من الامراض والردائل فالانانية تقضى علينا بأن نحب غيرنا كما نحب أنفسنا وان نعمل لاصلاح الاحوال التى يعيش فيها عمالنا كما نعمل لاصلاح أنفسنا وليس ذلك شاقا علينا فهذا طور قد قطعه أوروبا فكل ما علينا أن ننقل منها ونحذو حذوها

العادة

يحدث أحيانا اننا نرى رجلا قد أسن بعد أن قضى حياة طويلة فى الرذيلة التى جلبت عليه الفقر وأضاعت أمواله وحطت من كرامته ثم نراه بعد ذلك ممعنا فى الرذيلة لا يكف عنها ولا يبالي بعواقبها على طول خبرته بها فتعجب لهذه التجارب كيف تمر به وهو لا ينتفع بها . فكلنا يعرف ان الرجل المحرب خير من الغريب الساذج لان خبرته أوسع ومعرفته أوفى ولكن الامعان فى الرذيلة لاتزيد التجارب صاحبها حكمة بل تزيده أغلالا هى أغلال العادة

وذلك أن شارب الخمر أخبر بها وأكثر تجارب لها وأعرف بعواقبها وما تجلبه من مرض وشقاء على مدينها من ذلك المتعفف عنها الذى لم يذوق قط فى حياته . ولكنه مع معرفته وتعدد تجاربه لها يعجز عن الكف عنها ولو رغب فى ذلك أشد الرغبة لان الخمر قد تملكته جسمه وأعصابه وصار لها عليه سلطان العادة

والعادة هى من القوة بحيث قد وصفت بأنها الطبيعة الثانية . وهى فى كثير من الناس علة شقاؤهم وقرهم ولكنها عند الآخرين سبب السعادة والرقى . فهذا يشق لانه اعتاد الاكباب على الشراب أو تناول المخدرات أو الاسراف فى المعيشة ، وهذا يسعد لانه اعتاد الاقتصاد والصحو والاعتدال فى معيشته

وهذه أمثلة واضحة لا يشق على أحدنا أن يراها ويرى عواقبها فيمن يصادقهم أو يعرفهم . ولكن للعادة أحيانا مسارب الى النفس وطرقا الى الذهن أدق وأخفى من ان تتضح لنا فنحن نرى آثارها دون أن نراها . وذلك أن كل مانعمله فى حياتنا يجرى منا مجرى العادة . فنحن نصف أحد الناس مثلا بأنه خفيف الروح نكاد نعد مجالسته لنا فضلا منه علينا فاذا دققنا النظر فيما تنطوى عليه وتتألف منه خفة روحه الفيناها فى بضع عادات صغيرة قد تعودها : فى تلك الابتسامة التى تجعل وجهه بشوشا يمش الى أصدقائه ، وفى قوام نحيف اعتاده الجسم من الاعتدال فى الطعام وفى فكاهة ظريفة ينطق بها كأنها ... كأنها عادة

فنحن ننشط الى الحركة والكلام والعمل والسعى بطبيعتنا ولكن العادة تصقل هذه الطبيعة فاننا نكتسب الرشاقة فى الحركة والكلام بما تعودده من العادات الصغيرة كالطفل ينشأ وبه الدافع الطبيعى الى الحركة والكلام ولكنه يتعود طريقة خاصة فيهما تلازمه مدى حياته

ويمكن أن يقال مثل ذلك أيضا عن طريقة التفكير التى نفكر بها فى الشئون الخصوصية أو العمومية وعن الآمال التى تؤملها ونضعها نصب أعيننا فى الحياة فانها كلها عادات تعودها وقلبا نستطيع الخلاص منها . واذا كان مدمن الخمر يشق عليه أن يكف عن تناولها وقد يؤثر الموت وارتكاب أية جريمة على ذلك فان ذلك الرجل الذى اعتاد طريقة خاصة فى التفكير والنظر للحياة يشق عليه جدا أن يبدل هذه الطريقة أو هذا النظر . ولهذا يشق على الغربى أن ينظر الى الحياة نظرة الشرق أو يعيش عيشته كما يشق على الشرق عكس ذلك أيضا وكلاهما فى الحالتين خاضع لسلطان العادة هذا السلطان القوى الذى هو أصل سعادتنا وشقاؤنا

ولذلك يجب علينا اذا كنا صغارا ألا نتعود الا ما ينفعنا من العادات واذا كنا كبارا يجب أن نلزم عاداتنا الحسنة ونكافح عاداتنا السيئة بما يجانسها ويقاربها من العادات الحسنة ثم يجب أن نذكر انه مامن سيئة أو حسنة نأتيها الا وفيها بذرة العادة ومامن خاطر يمر برؤسنا الا وهو يطبعنا بطابع خفيف ولكنه سرعان ما يغور ويتعمق اذا تكرر وصارت له قوة العادة ولندكر أن العادة طبيعة ثانية بل هى احيانا أشد من الطبيعة فان من يتعاطى المخدرات يرضى بالجوع ويقهر بذلك طبيعته ولكنه لا يرضى بالنزول من عادته فى تناول المخدر

معنى الفكاهة وكراهة الاسفاف والقسوة والمبالغة والخرافات والحياء الكاذب والتجرو على التمتع بالحياة والرغبة في الحصول على تربية حرة والقدرة على الاعراب عما في النفس

وهذه هي صفات الحضارة الراقية كما يراها المستر بل في أحسن العصور الذهبية لثلاث أمم من أعظم الأمم في تاريخ العالم . وهي مقياس يمكننا أن نقيس به الدرجة التي بلغناها في معارج الرقي . وأول ما نتساءل عنه هو : هل نحن نجعل للعقل السيطرة التامة في شؤوننا العامة ؟ ثم هل نحترم الجمال والتسامح ونكره القسوة والمبالغة ؟

أن المتتبع للغة الصحف في الشهرين الماضيين لا يتالك من الاسف لما بلغته من الاسفاف في وصف خصومها والمبالغة في هذا الوصف حتى لقد ذكر أحد الكتاب حزبا من الاحزاب بأن أعضائه عواهر ولم يقنع بهذه اللفظة العامة المعبرة عنها

أن في سمات الحضارة الراقية التي ذكرها المستر بل أشياء جديرة بالنظر والدرس . ولكن نحن في ظروفنا الحاضرة نرى أن شروط المجاملة والتسامح وكراهة المبالغة والاسفاف قد غابت من الصحف في الشهرين الماضيين وصار الكاتب يصف خصومه السياسيين بالجنون والخيانة والعهر وسائر مترادفات هذه الالفاظ وهو لا يبالي بما يقول . فعلينا جميعا أن نذكر أمثال هذا الكاتب بشروط الحضارة الراقية ونسأله : هل أنت متمدن ؟

في التقدم

تتقدم الامم وترتقي بجملة وسائل منها التسلط على الطبيعة وذلك باختراع الآلات التي توفر على الانسان مشقة العمل وتزيد بذلك حريته ورفاهيته . ومنها الارتقاء في الاخلاق وليس هذا الارتقاء سوى الرضى بالتعاون بدلا من التنازع والنزول عن الاثرة من أجل الايثار . ومنها رفع المستوى في التعليم حتى يفوز كل انسان بحقه في الثقافة العالمية

هذه بعض الوسائل التي تتقدم بها الامم . فاما من حيث التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة الانسان فهذا واضح من الآلات الكثيرة التي لاتجعلنا نركب الهواء فقط بل نزرعه كما نزرع الارض ونستخرج منه النتروجين ، وكذلك تقدم الصناعة بالكيما . التي جعلتنا أوبالاحرى جعلت من هم أعلم منا وأثقف يصنعون الحرير من الكرنب والموز والخطب وربما قضوا على زراعة القطن عندنا يوماً ما

ولكن الى جانب هذا التقدم الصناعي نجد تقدماً في الاخلاق فالرق قد الغى منذ القرن الماضي وكان الغاؤه لحافز انساني لان الاديان لم تحرمه قط . وكانت المرأة الى وقت قريب في

ما هو التمدن

من الناس من لا يهتمهم من التمدن الا أن يعرفوا هل هو التمدن أو التمدن . أما أنا وأنت فلا نبالي بذلك بحقيقته وماهيته

ونحن نبالي بذلك لأننا نرغب كلنا في أن نكون متمدين وأن نبلغ من التمدن أعلى درجاته ولذلك يجب علينا أن نعرف ما هو التمدن

لقد سأل أحد الكتاب الانجليز وهو المستر بل هذا واجاب عليه بكتاب ضخيم استقرى فيه أحوال الامم المتمدنة في العصور القديمة والحديثة لكي يعرف منها تلك السمات التي تتسم بها وتشترك فيها الحضارات مهما اختلفت أزمانها أو أقاليمها . ولكنه قبل أن يشرع في بحث هذه المحاضرات ومقابلتها الواحدة بالآخرى عمد الى الاوساط المتبربرة حيث لاتكون الحضارة فوجد فيها جملة صفات هي في الواقع أساس الحضارة ولكنها ليست بها كما نفهم نحن الآن من مدلول هذه الكلمة

ففي الاوساط المتبربرة نجد احترام الامتلاك في العقار والايان باله ما وبالحياة الاخرى ثم احترام المرأة والصدق والنظافة والطهارة والدفاع عن الوطن . فهذه صفات توجد عند المتمدين وغير المتمدين وهي قد تعد أساساً للحضارة ولكنها ليست الحضارة كما نفهمها الآن فاننا نطلب من الرجل المتمدن أو المتحضر أشياء أدق وأخص من هذه العموميات

وليس من الحكمة أن نبحت عن الحضارة فيما نتخيله من صفات نميل اليها بمزاجها الذهني أو بحكم صناعتنا أو الظروف الوقتية التي نعيش فيها وانما علينا أن نعلم الى الامم التي اشتهرت بالعصور الذهبية وقت ارتقاء حضارتها ثم نفتش فيها عن الصفات البارزة التي تشترك فيها وتعد هذه الصفات شرطاً للحضارة أو التمدن الراقى . وهذا هو مافعله المستر بل . فانه بحث حضارة الاغريق القدماء في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد ثم بحث عصر النهضة في ايطاليا ثم العصر السابق للثورة الفرنسية في فرنسا ووجد بالمقابلة أن هذه العصور الثلاثة تشترك في جملة صفات هي مانعنا نحن الآن بالحضارة الراقية . وهذه الصفات هي سيطرة العقل وتسويده على جميع المناحي التي ينحو اليها نشاط الامة . وهذه السيطرة التي للعقل ثورت الامة ذوقا خاصا يحترم الحق والجمال ويبعث على التسامح وشرف الذهن والتألق والمجاملة والاستطاع وادراك

معظم أرجاء العالم تعيش كالامة التي لا أرى لها في شأن ما أمام زوجها ولكن الرجل نزل عن حقوقه راضياً ورفعها الى مستواه فصار لها رأى في البرلمان وسائر المجالس النيابية . وقد كان من الحوادث الجميلة في عصرنا الحديث ان نرى أمة كبيرة تبلغ نحو ١٢٠ مليوناً من السكان نغني بها الولايات المتحدة . ينزل فيها الرجال عن حقهم في شرب الخور ويمرحون بها على أنفسهم بشرعة خاصة وفي الوقت نفسه يمنحون المرأة حق التصويت للبيئات النيابية اسوة بهم . ليس هذا ارتقاء في الاخلاق

ومن الظواهر التي تدل على التقدم في الاخلاق تلك الغاية التي نراها لمصلحة العمال وتعليمهم واسكانهم في مساكن نظيفة وتحديد ساعات العمل لهم ومنحهم المعاشات عندما يبلغون سن الشيخوخة . فبهذه العناية قد قام بها الاغنياء لمعاونة الفقراء وكان الدافع اليها تلك الاريحية التي يشعر بها الرجل المذهب قسوخ نفسه بالاصلاح ولو كان فيه بعض الخسارة أو المشقة عليه . وقد قامت أحزاب الاحرار في أوروبا وأمريكا بضروب من الاصلاح لم تتحقق للان في روسيا نفسها . بل الواقع ان في إنجلترا من الاشتراكية أكثر مما في روسيا . وليس ذلك الا لان في إنجلترا طبقة من الاغنياء المهذبن نزلوا عن كثير من حقوقهم راضين للعمال . ولم يكن لهم من باعث سوى سمو أخلاقهم

وتم وسيلة ثالثة نراها في التعليم وارتقائه بين الامم المتقدمة . فعظم الامم الراقية الآن لاتقنع بالتعليم الابتدائي الاجباري بل تتجاوزه الى جعل التعليم الثانوي أو بعضه اجبارياً . ولم يعد التعليم يجرى على التقاليد القديمة بل هو يماشى حاجات الثقافة الحديثة . ففي المانيا يتعلم التلاميذ في احدى المدارس الابتدائية كيف يصنعون الطيارات ويركبونها . وفي معظم المدارس الالمانية أيضاً يتعلم الصبي صناعة التصوير بالفتوغرافية

هذه الامثلة الثلاثة للتقدم أي التقدم في الصناعة والاخلاق والتعليم تدل على رقي محسوس لا يمكن أحداً منا انكاره . وقد يمكننا ان نذكر بعد ذلك تقدم العالم في الصحة وفي العلاقات الالامية كما يدل على ذلك ميثاق كيلوج وعصبة الامم ومحكمة الهاي وكلها ترمى الى نحو الحروب فلا نشك بعد ذلك في ان العالم يتقدم

الاجتهاد

يستعمل علماء الشريعة الاسلامية السمحاء لفظة « الاجتهاد » لمعنى آخر غير المعنى اللغوي الذي هو استفراغ الجهد في تحصيل أمر من الامور . فالاجتهاد في حدود الشريعة واصطلاح

الاصوليين هو ضد المقلد أو هو الذي يستنبط الاحكام بذهنه ومنطقة حين يجد ان التقيد بالتقليد لا يعود بالمصلحة المنشودة للامة

وما أحرانا نحن بأن نكون « مجتهدين » ايضاً فلا نقلد في الادب أو الفن أو العلم أو الحياة ذاتها وانما « نجتهد » في استنباط الاساليب المثلى للعيشة فنلبس ونأكل ونسكن كما تلهمنا عقولنا وكما ثبت لنا الاختبار والتجربة أن هذا الاسلوب أو ذاك هو خير ما يضمن لنا الراحة والصحة والسلام والطمأنينة . فليس علينا أن نقلد آباءنا واسلافنا بلا روية ونعيش كما كانوا يعيشون نلبس ملابسهم ونلزم أخلاقهم ونبنى منازلنا على طرائقهم وانما علينا أن « نجتهد » ونستنبط ونصطنع امثل الطرق التي تضمن لنا الفوز والراحة في هذه الدنيا . ففسير حياتنا في تجدد مستمر ولا ترك ذلك الركود الآسن الذي يرى الآن في الامم الميتة

والتجديد في الحياة يرمى الى وضع العقل فوق النقل والى العناية بالحاضر أكثر من الماضي والى رعاية الخلف القادم أكثر من السلف البائد . وهو دليل على ان الاحياء ينبضون قوة ونشاطاً ويمرحون من حرية الحياة في ميدان فسيح لا تحوطه الاسوار ولا تقيدهم الاغلال

وما أحرانا بأن « نجتهد » في الادب فنستنبط فيه الوسائل التي تلائم حياتنا الجديدة وتجعله صورة لهذه الحياة يعمل في تقدمها وبسطها والتوسع فيها غير قانعين منه بالتقليد ولزوم الطرق القديمة أجل اننا في حاجة الى « المجتهدين » في الادب والى المجتهدين في الاخلاق ولكن أساس ذلك كله يجب ان يكون « الاجتهاد » في الحياة ولن يكون ذلك الا بأن نعمل عقولنا في طرق العيش الشائعة فنصلح ونستبدل منها غيرها ولا نرضى بشيء مما خلفه لنا السلف الا ما يتفق والمنطق والعقل والمصلحة

ان العلوم لم تتقدم الا عندما خرج العلماء من النقل الى العقل اى من التقليد الى الاجتهاد فبعد ان كانت الجامعات تعاقب الطالب اذا اخطأ في شيء نص عليه ارسطو طاليس صارت تكافئه اذا استطاع أن يقع على غلط لهذا المعلم الاول . وما يروى بهذه المناسبة أن طالباً وجه نظر أستاذه عنده استعمل التلسكوب الى ان على الشمس بقعاً . فكتب اليه الاستاذ يقول : « لا يمكن ان يكون على الشمس بقع لانى قرأت كتاب ارسطو طاليس مرتين من أوله الى آخره وهو قد قال انه لا يقع على الشمس فظف منظارك فاذا لم تكن البقع عليه فهي على عينيك »

ولكن الطالب لم يقلد مثل استاذة بل صدق عينيه . ونحن نعرف أن الطالب كان محققاً وارسطوطاليس مخطئاً

وبمثل هذا الطالب تقدمت العلوم هذا الحد العظيم حتى تنأحياناً نخشاهما ونرى أننا لانستطيع اللحاق بها لأن سرعة تقدمها تفوق وتعدو حدود النظم الاجتماعية الراهنة التي مهما تطورت فإنها دون التقدم العلمي وابطأ منه

فنحن في حاجة الى مثل هذا النظر في الادب حتى نعمل كما عمل هذا الطالب في اعتماده على العقل دون النقل بحيث لا نخشى أن نقول أن ذلك الشاعر أو الكاتب كان مخطئاً وأن ذلك الاسلوب البليغ في عرف القدماء هو في نظرنا معقد عويص بلا داع الى تعقيد أو تعويض. كذلك نستطيع أن نجهر بأن تلك الاخلاق القديمة لم تعد توافقنا فنحن في حاجة الى « الاجتهاد » فيها والخروج من التقليد

وبعبارة اخرى يجب ان نتجدد في اخلاقنا وادبنا وشرائعنا وان ننزل هذه الاشياء كلها منزلة العلم الذي لم يتقدم الا بالخروج على السنين القديمة والتقاليد العتيقة

وقد يخشى بعض الناس ان الافراط في ترك التقاليد يؤدي الى الفوضى . ولكنهم ينسون ان الانسان بطبيعة الوسط الذي يعيش فيه محافظ يكره التبدل ويرى فيه ما يجهد ذهنه وأعصابه . فاللغة التي تتكلمها هي لغة الوف السنين الماضية وهي تطبعنا بالرغم منا بطابع السلف وعاداتنا وادياننا ومعظم أحوالنا المعيشية هي عادات الاباء التي لانستطيع الخروج منها الا قليلا مهما « اجتهدنا » ولكن على هذا القليل يتوقف تقدم الناس ورفيهم وتفوقهم

ثورة الشباب

كثيراً ما نسمع هذه الأيام أن فتیان الجيل الحاضر وفتياته قد استسلموا لاهوائهم وخرجوا عن الحشمة التي كان يتسم بها آباؤهم وجدودهم وتفشى بينهم الزهو والخلاعة وان أخلاقهم قد ضعفت فاخذ منهم النزق مكان الحزم وانهم صاروا من العصيان بحيث لا يحترمون وصايا الاديان أو نصائح الشيوخ

وقديما ذكر التاريخ هذه العيوب التي تعاب على الشباب حتى يقال انه كشف في « طروادة » حجر قد نقش عليه كلام بهذا المعنى يرجع الى الف سنة قبل المسيح . وقلبا يقعد الانسان أمام جدة قد أوفت على الثمانين الا ويسمع مثل هذا الكلام أيضاً

ولكننا نسمع الآن عن الفتاة النزقة التي تقص شعرها وتقصر ثيابها وتسترجل في أخلاقها فتمشي مشية الرجال وتستقل الترام وحدها وتؤدي أعمال الرجل . وقد نال هذه الفتاة لوم كثير

لهذه البدع الجديدة عند أول ظهورها ولكننا الآن نرى السيدات المسنات والجدات العجائز يعتدن هذه البدع ويكففن عن لومهن السابق

ونسمع عن الشبان الذين يدخنون ويشربون ولا يحسبون عواطفهم فتهمهم لأول وهلة بالنزق ولكننا اذا دققنا النظر في أحوالهم ومعيشتهم الفينا هم أصدق نظراً للحياة من جدودهم وفيهم من الرجولة والبرورة مانعجز عن وجود مثله عند اسلافهم ونحن الآن نعرف أن حبس العواطف والتشدد في الوقار الى التزمتم يفعل في النفس فعل البخار المحبوس لا يكاد يجد منفذا حتى ينفجر منه . بل نحن نعرف ذلك الكلب الذي يقيد طول النهار ثم يطلق في الليل فيعود وحشاً لأن عواطفه المحتبسة في النهار تنفجر عند انطلاقه في الليل فهو يؤذى كل من يلقاه . فاذا كان الشاب يكره المبالغة في الوقار الى حد التزمتم ويفرج عن نفسه من أن لآخر بالملذات البريئة فهو يحسن فعلاً ويكون بهذا التفرج أقل ضرراً لنفسه ولغيره مما لو حبس عواطفه وتخرج من المسرات

وهناك من يعيب على الشبان عنايتهم بالجمال وينسبهم الى الاستثناءات كما ينسب الفتاة الى الاسترجال لقص شعرها وقصر ثيابها الى الركب . ولكننا نعرف الآن أن العناية بالجمال فضيلة يجب أن يمارسها الرجل كما تمارسها المرأة . ووسامة الوجه واعتدال القامة وصحة الجسم غايات يجب أن ننشدها جميعاً بالتعليم والرياضة وهي أخطر عند الامة السديدة النظر في الثروة والثقافة والشباب في العالم كله في ثورة على النظم القديمة فهو ثائر على الحرب التي يدبرها الشيوخ من الساسة ويصطلي بنارها الشبان . وهو ثائر على الاستعمار الذي لا يختلف عن الرق القديم الا في الاسم بل ربما زاد الضرر منه على الرق وهو ثائر على النظام الاقتصادي الذي يجلب الفقر لطبقة كبيرة من الناس . وهو ثائر أيضاً على نظام الحكم سواء أكان ديمقراطياً أم استبدادياً وهو ينظر بعين النقد والتمييز الى الاديان ولكنه مع ذلك ليس مادياً في نظره فان فيه من الشجاعة وسخاء النفس وروح البذل ما نعرفه جميعاً

فالحروب والاستعمار والنظم الاقتصادية الجائرة ونظم الحكومة الناقصة كلها أشياء يرثها الجيل الحاضر عن الأجيال الماضية ويسعى لاصلاحها ويثور عليها بحق . وهو في كل ذلك جدير بالشأن لا يستحق لوماً واذا كان في ثورته هذه لا يلزم الوقار السابق الذي توارثه من السلف القديم فان ما يعالجه من هذه المسائل أكبر وأخطر من أن يعتد فيه بالوقار

ونحن نعيش في زمن صار للشك فيه المقام الأول في البحث فن حق الشباب وهو يرى الدنيا تتخبط في نظم العيش والاخلاق أن يشق لنفسه طريقاً صالحاً فليست الحكمة من محتكرات

الأقدمين وإن لم تكن أيضاً من امتيازات الحاضرين ولكن إذا كان «زواج العشرة» الذي يقول به القاضي الأميركي بدعة سخيفة تعزى سخافتها إلى تهوّر أبناء الجيل الحاضر فإن الحرب الكبرى التي قتلت أكثر من عشرة ملايين نفس هي إحدى العادات الفظيعة التي ورثناها عن الأجيال الماضية

وعلى كل حال لا تتمالك من الاعتراف بأن ثورة الشباب فيها من الابتداع ما لا نجد في جود الشيوخ. والابتداع على العوام خير من الجمود والنقد النير الزيه خير من التسليم الاعمى. ونحن مل من الأجيال الماضية أعباء ثقيلة خير لنا شبابنا وشيوخنا أن نتخلص منها لأنه لا يمكننا أن نقول مع الشيوخ أنه ليس في الامكان أصلح مما كان. فان على هذا القول طابع الجمود الذي نأباه والدنيا في حاجة إلى الإصلاح والثورة كحاجة الجسم إلى الهواء

درس للعقل والقلب

قد تختلف جميعنا من حيث القيمة الفعلية لمقترح اسماعيل صدقي باشا في حجب مومياءات الفراعنة عن أنظار الجمهور ولكن لا يمكننا أن نختلف من حيث أن هذا العمل دليل على أنه قد صار للفراعنة كرامة في نفوسنا وحرمة في قلوبنا كادت القصص التاريخية التي ألفها أعداؤهم أن تزيلها منا. فقد نشأنا على أن الفراعنة كانوا طغاة عتاة لا يعرفون للعدالة معنى حتى أنه لما أخذ الأوربيون ينتهبون إلى القيمة التاريخية التي لمصر وصاروا يطلبون منا آثاراً بائناً لم نعارضهم بل كنا نبذل لهم ونسوخو في البذل حتى صارت متاحف أوروبا بل ميادين المدن فيها تزدان بآثار الفراعنة وقد حجب ملوكنا الأقدمون عن أنظار الجمهور في المتحف المصري ولكن كثيراً من آثارهم ما زال مبعثرة في جميع أرجاء العالم. وإذا كان من الكرامة أن نحجبهم ونرى فيهم حرمة الملوكة ووقار الموت فإنه مما لا يقل كرامة عن ذلك أن يقوم بيننا سياسى آخر مثل اسماعيل صدقي باشا يكمل عمله ويسمى في استرجاع آثارهم إلى مصر وجمعها من متاحف العالم. ولن نكون في مثل هذا العمل أنانيين كما يتوهم القارىء. فان كل رجل مثقف الآن كائن ما كان وطنه ومولده على هذه الكرة الأرضية يشعر أن له وطنين الأول هو ذلك المذى ولد ونشأ فيه والثانى هو مصر فقد ثبت الآن ثبوتاً لم يعد ثم سبيل إلى نقضه أن ثقافة العالم الأولى أو البذرة التي نبتت إلى الحضارة إنما نبتت في مصر وحدها. فمصر هي التي خرجت بالنوع البشرى من العصر الحجري إلى الزراعة وهي التي علمت الناس التقويم الشمسى وهي التي تركت الاحجار وصنعت الآلات

من النحاس وهي التي عرفت قيمة الذهب وهي التي ابتكرت الدولة والملوكية وعلمت الناس الدين وخلقت الآلهة وابتدأت عهداً للفنون بصنع التماثيل والاصنام. وأينما سار الانسان في احدى القارات الخمس في أوروبا أو استراليا أو أميركا ولا أقول آسيا أو افريقية يجد آثار مصر في الاهرام والمومياءات والتقاليد المصرية القديمة

بل ماذا أقول؟ ان البحوث الجديدة التي يقوم بها الآن أمثال برى واليوت سمحت تثبت ان ملوك العالم الحاضرين والغابرين يمتون بصلة النسب ورباط السلالة إلى فراعنة مصر القدماء. وان الاشراف الحاضرين والغابرين أيضاً هم أبناء أولئك الاشراف الذين كانوا يعيشون في هليوبوليس حول المسلة القائمة الآن قبل ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ سنة. فأي شيء في العالم بل أي خيال أغرب من هذه الحقيقة حين تعرف أن ملك الانجليز هو مثل «ميكادو» اليابان من نسل الفراعنة المصريين الذين مازلنا نرى مومياءاتهم والذين مازالت لغتهم حية في كنائس الاقباط؟ فمصر هي وطن الثقافة الاولى للانسان وهي لذلك وطن جميع الناس منها خرج الامراء والاشراف وأسسوا الحضارة بين الشعوب التي كانت قانعة بان تعيش في حال همجية تقتلع الجذور وتلتقط الاثمار ولا تعرف الزراعة أو استنباط المعادن. وهؤلاء الامراء كانوا من أعضاء الاسرة المالكة وكان يرافقهم في خروجهم بعض الاشراف المحيطين بهم في العاصمة المصرية وكانت غايتهم البحث عن المعادن واستنباط الذهب فكانوا يؤسسون الدول وينشئون المعابد حول المناجم ويحفظون أجسام موتاهم ويعلمون الناس الزراعة والتقويم الشمسى والكتابة ثم مازالوا يوالون الاكتشاف وارتباد الاقطار حتى افشوا الحضارة في العالم كله تقريباً

ومن هنا معنى الاتصال في المؤسسات القائمة في أقطار العالم بمؤسسات من القديمة واتصال ثقافتها الاولى بثقافة مصر. فمصر هي المسرح الاول الذي مثل عليه الانسان أول فصل من هذه الدراما الشائقة الحافلة بالحروب والاكتشافات والخرافات والعلوم والآداب. ولا يمكن أحداً ان يدرس الحضارة ونمو الذهن البشرى دون أن يدرس مصر ويعرف المحاولات الاولى التي حاولتها لاجراج الناس من العصر الحجري إلى عصر الزراعة والحضارة

وإذا كان هذا الدرس يغذو عقل الانجليزى أو الالماني أو الياباني وينير ذهنه ويفتح له أبواب الثقافة القديمة فإنه لا يغذو عقولنا نحن المصريين فقط بل يغذو قلوبنا أيضاً وليس ذلك لأنه يملأنا كبرياء وطنياً قد يدعو إلى الغرور والصلف بل لأنه يحثنا على ان نكون خير من يحمل مصاييح الثقافة والحضارة في الوقت الحاضر فقد بدأنا السلسلة فعلينا ألا نخليها بل علينا أن نحملها ونتابع السير في الرقى كما كان دأب أسلافنا. وعلينا ان نستأنف درس الفراعنة فندرسهم عن حب وتعلق لاعتنا كراهة واحتقار ونرى فيهم أساتذة العالم الاولين

فدرس الفراعنة الآن هو واجب كل رجل متعلم ينبغي معرفة الاصول الحضارة بلاده سواء كان في استراليا أم أفريقية أم أوربا أم أميركا لان هذه الاصول كلها مصرية وإذا كنا نطلب استرجاع الآثار المصرية إلى مصر فليس ذلك لفائدتنا نحن فقط بل لفائدة العالم كله واجتماع الآثار في بقعتها الاصلية أدعى إلى اتقان درسها ومعرفة العوامل التي أثرت فيها مما لو كانت مشتتة في عواصم العالم

الحرية : أباحة أم مسئولية

كثر الكلام هذه الايام عن حرية الرأي بمناسبة الغاء بعض الصحف أو تعطيلها . وليس يشك أحد في أن تقدم الامم يرافقه على الدوام زيادة الحرية من جميع أنواعها فقدما كان الرق فاشيا بين الناس يستعبد الانسان الانسان يبيعه ويشتره كما يشتري الحيوان فالغنى الرق وصار العبيد أحراراً وبذلك تمتع الزوج بهذه الحرية الابتدائية حرية الروح والغدو والتصرف وكان هذا تقدماً أفاد الاسياد كما أفاد العبيد لأن السيد الذي يعيش بين العبيد يربونه وهو كبير ينشأ ضعيفا ليس فيه تلك الصلابة التي يبعثها الاستقلال في الشخص حين يضرر أن يعتمد على نفسه

وقدما كان الناس يقيدون بدين من الأديان بل بعقيدة من العقائد يلزمون سنتها ويجرون على شعائرها فاذا خالفوها عوقبوا بالتعذيب والقتل وقصة محكمة التفتيش من القصص العجيبة في تاريخ الحرية الدينية . ولكن جاء وقت ألغيت فيه هذه المحكمة وعرف الناس قيمة الحرية الدينية وانتفعوا بهذه الحرية التي تجعلهم أصدق ايمانا من قبل . فقد كانوا أيام التقييدات السابقة يسلمون تسليماً أعمى بما يملى عليهم فكان ايمانهم عن خوف . ولم يكن البحث في العقائد مشروعاً أو مأمون العاقبة ولكن الآن يعيش الناس في الحرية الدينية وتباح لهم المناقشة في العقائد وقد انتفعوا من هذه الحرية لأنها زادت ايماناً بمقدار ما زادتهم نوراً يبعثه البحث والمناقشة وقد كانت هناك أنواع أخرى من الرق مثل الولاية التي كانت تقضى في أوربا على العامل بأن يلزم أرضه يزرعها لمولاه ولا يستطيع مبارحتها . وقد كانت في مصر شئ يشبه هذا أيام الممالك فكانت الزراعة في أسوأ حال يتهارب العمال منها . ولكن عند ماسادت الحرية ارتقت أحوال الزراعة لأن كل عامل عرف أن يعمل لنفسه وكذلك حال المرأة التي برحت منذ التقدم تذلل للرجل يتزوجها ودأبه يتسراها فلم تكن

رفيقتة بل أمته . ولكن الناس عرفوا أن الأمة لا تنجب الرجال فنحوا المرأة جميع حقوق الرجال المدنية ورفعوها إلى مستواهم فارتفعت . وهانحن أولاء نرى العالم مشطوراً شطرين أولئك الذين عملوا لتحرير المرأة فصاروا في المقدمة ، وأولئك الذين لم يعملوا لهذا التحرير فصاروا في مؤخرة الامم

ففي كل هذه الحالات نرى أن تقدم الأمة منوط بزيادة الحرية والغاء أنواع الرق الثقيل أو الخفيف . فالناس يرتقون بحرية الرأي والدين وتحرير المرأة والغاء الرق والولاية ولكن في الوقت نفسه يجب أن نفهم معنى هذه الحرية : أهى أباحة أم مسئولية ؟ وخير مثال يوضح لنا معنى الحرية هو أقربها إلينا معنى نزعة الحرية التي نزعتها المرأة الأوربية حديثاً فكلنا يعرف أن المرأة في أوربا تنزع نزوعاً شديداً إلى الحرية حتى أن كثيراً من الكنائس اضطرت أن تحذف من صلاة الزواج شرط الطاعة التي كان يجب على المرأة أن تعترف بها لزوجها

ولكن تحرير المرأة في أوربا كما نتبعه من أخبارها قد اتخذ شكلاً خاصاً يدلنا على معنى الحرية وهو زيادة المسئولية فالمرأة تطلب الحرية لكي تتحمل مسئولية الحكم بالتصويت والانتخاب والتوظيف والاشتغال بالأعمال الحرة . فهى بهذه الحرية الجديدة قد زادت مسئوليتها . وكلنا يعرف أن الرجل المتمدن أوسع حرية من الرجل الذي يعيش في أمة متأخرة ولكنه في الوقت نفسه أكثر مسئولية . ففي أوربا يعاقب الأب اذا أهمل تعليم ابنه كانعاقب نحن اذا أهملنا تطعيم الطفل بلقاح الجدري . وصاحب المصنع في أوربا يرى أن مسئولياته ازاء عماله من الكثرة بحيث يؤمن على نفسه منها عند شركات التأمين . فحرية في استخدام العمال محوطة بعدة مسئوليات خاصة بصحتهم ونظام عملهم وهندسة المصنع وتعويضهم ومعالجتهم الخ

فالحرية في أوربا هى المسئولية ولم يفهمها أحد يوماً ما بمعنى الاباحة . فاذا كان الصحفي المصرى ينشد حريته التي ضيقها الحكومة فعليه أن يركى هذه الحرية بما يرافقها من مسئولية يأخذها على عاتقه

كيف نرفع اسم مصر

تنفق حكومتنا كل عام مبلغاً غير قليل من المال للاعلان عن مناخ بلادنا الطيب وآثارها الجميلة لكي تجلب إليها السياح . وحكومتنا تقصد من هذا الاعلان الفائدة المحسوسة من ازدياد

السائحين وانفاقهم أموالهم في أسواقنا وان كان ثم فائدة معنوية أخرى هي الاشادة بفضل جدودنا وما يستتبعه هذا من رفع اسمنا

وليست تنفرد حكومتنا بهذا الاعلان ، فان جميع حكومات العالم المتمدينة لا تبخل بتأليف الكتب عن آثارها والاعلان عنها بكل مايسعها من مجهود . وهي لا ترمى بذلك الى جلب السائحين فقط بل أيضاً الى رفع اسمنا وزيادة كرامتها في عيون الامم الاخرى والواقع ان العالم الآن رقيب على كل أمة فيه . ولا يمكن أمة مهما بلغت قوتها أن تتغاضى عن آراء الامم الاخرى فيها اذ هي تشعر أنها في حاجة الى عطف العالم ورضاه وإعجابه . ولهذا الرضا أو الإعجاب أثر محسوس في حياة كل أمة

وأبرز الامثلة على ذلك أمة اليونان التي لا يعزى استقلالها الا لإعجاب أوروبا بتاريخها القديم . فقد نالت استقلالها قبل نحو مائة سنة لان ييرون الشاعر الانجليزي هجر بلاده اليها وجعل يؤلف القصائد الخالدة يتغنى بها بمجد اليونان القديم ويستثير نخوة أوروبا لكي تحرر اليونانيين من التير التركي ويذكروها بالثقافة القديمة التي انتفع بها أبنائها واستناروا بنورها . ومنبت هذه الثقافة هو أثينا التي ترسف في اغلال السلطنة التركية . فاستجابت أوروبا لهذا النداء وقالت الا تراك وأخرجتهم من اليونان

ونحن أيضاً في حاجة لان يرتفع اسمنا وتزداد كرامتنا في أعين الأوربيين حتى اذا ضغطنا الاستعمار البريطاني واستجرنا بالعالم المتمددين وجدنا منه تلبية واستجابة وعطفا . فان هذا العالم يجهلنا ويتخيلنا أمة شرقية خاملة تؤمن بالاساطير وتحبس النساء وتكره العلوم الحديثة ونحو ذلك من الاعتقادات التي تؤذيها وتجعل الرأي العام مع خصومنا علينا

وقد حدثت ثلاث حوادث في هذا العالم جديرة بأن ترفع من اسمنا وتكبر من شان وطننا كأنها الاعلان عن حضارتنا ورقينا . فنما عبور اسحق حلمي للبانش اذ يمثل بهذا العمل قوة الشباب المصري وصحته . ومنها زواج فتاة قبطية لامير من الأسرة الملكية الفرنسية . ثم زواج فتاة أخرى يهودية مصرية من أسرة لورد انجليزي . وفي هذين الزواجين ما يفتح عن أذهان الأوربيين ذلك الوهم القديم بأن المصريين افريقيون سود البشرة يتسمون بقبح الوجوه . ثم هذه المؤتمرات التي تعقد بالقاهرة جديرة أيضاً برفع اسمنا لانها تجمع الخاصة المثقفة من كل أمة يتبادلون الخطب والاحاديث مع خاصتنا ويقفون منها على أحسن ما عندنا من صفات العلم والاخلاق ولكن أكبر اعلان يعلن عنا وينشر فضلنا في العالم ويجلب لنا عطفه وحبه هو هذه الآثار المصرية القديمة أو ثقافة اسلافنا التي تثبت البحوث الآن انها اخرجت البشر من العصر الحجري

الى عصر الزراعة والحضارة انها الاصل في علوم الامم وأديانها وآدابها . وعلينا أن نستغل هذه النظرية الجديدة التي تجعل مصر أمماً لجميع الامم ، وحضارتها أسأ لكل الحضارات . واذا كانت اليونان الحديثة قد نالت استقلالها بفضل اسلافها الأقدمين واشادة الشعراء بفنونهم وفلسفاتهم فاننا نحن أيضاً يجب أن يكون لنا من اسلافنا ما يعلن عن فضلنا في الرق البشرى فلا ينظر اليها العالم كلها شكونا من خصومنا نظرة الجمود ، بل نستثيره في هذه النظرة ذكرى اسلافنا القدماء فيعطف علينا ويكون رأيه معنا لاعتنا . ولذلك علينا واجب جديد هو درس الفراعنة والكشف عن آثارهم

وللفراعنة في نفوس المتمدنين مقام كبير لا يقل عن مقام فلاسفة الاغريق حتى أنه عند ماتولى الملك فؤاد اقترحت احدى الصحف الاميركية أن يسمى فرعون مصر وليس كبيراً على الاقدار أن تهى لنا شاعر آخر مثل ييرون يشيد بفضل الفراعنة مؤسس الحضارة كما أشاد هذا بفضل الاغريق القدماء ويكون لنا من ذلك تحقيق استقلالنا كما تحقق الاستقلال اليوناني

في نهضة الشرق

قلنا يكون الخوف رائد خير وباعثاً للرقى . ولكن من يتأمل أحوال الشرق والغرب الآن لا يسهه الاعتراف بفائدة الخوف أحياناً

ففي الغرب نهضة اصلاحية يبعثها الخوف من الشيوعية وتفشيها بين العمال . وجميع الحكومات الغربية تعنى الآن بالمعامل العناية القصوى من بناء المساكن له وزيادة رفاهيته بالتعليم والاجور العالية ومعاش الشيخوخة والمساعدة وقت البطالة ونحو ذلك . والعامل اذا رأى هذه العناية من حكومته انصرف عن الآراء الشيوعية وقنع بهذه الاصلاحات

وفي الشرق نهضة اصلاحية يبعثها الخوف أيضاً . ولكنه ليس الخوف من الشيوعية بل هو الخوف من الاستعمار الغربي ، فهذا الانقلاب العظيم في تركيا وهذا السيل الجارف الذي يكتسح كل ما امامه في أفغانستان وفارس في سبيل الاصلاح لا يرجع في الواقع الا الى الخوف من أوروبا فهذه الامم تريد ان تنحضر بالحضارة الاوربية خوفاً من الحضارة الاوربية . وذلك لأن طبيعة هذه ان تطغى على ما يخالفها من الحضارات العتيقة وتتغلب عليها فالامة التي لا تسليح بها تقع فريسة لها وهذا هو ما وجدته تركيا بعد مئات من السنين . فقد أغارت عليها أوروبا المرة بعد المرة وصارت تقطع منها اقاليمها الغربية حتى كادت تطردها الى آسيا ، ولعلها كانت تنوى القضاء عليها

حتى في آسيا . وهنا وقف مصطفى كمال يدير عينه في تاريخ أمته ويتأمل أحوال بلاده فلم يجد علاجاً يعمل للنجاة الآن يتسلح بالحضارة الغربية نفسها ويحارب الغربيين بها . وهذا هو ما وجده الأمير الذكي ملك أفغانستان وما تجده فارس أيضاً

ولعلك أيها القارئ تعتري بانه كان لمصطفى كمال مندوحة عن هذا الانقلاب الكلي بان يقنع منه بما هو خاص بالجيش والحرب فينقله عن أوروبا ويبقى مع ذلك محتفظاً بتقاليد حامياً لوطنه من غارات الغرب . ولكن هذا وهم كبير فالحضارة كتلة متماسكة مترابطة لا يمكننا ان نأخذ جزءاً منها دون الآخر ، ولا يمكن أمة أن تفوز في الحرب على الطريقة الأوروبية الا اذا نزعت النزعة الأوروبية وقت السلم . وذلك لأن الحروب تقوم الآن على الصناعة الآلية من مدافع وبارود وطائرات وغازات واساطيل . فاذا لم تكن الامة صناعية وقت السلم لها المصانع الكبيرة العديدة فانها لن تتمكن من التهيؤ للحرب والوقوف موقف النذل من تعاضها من الدول الأوروبية . لانها بهذه المصانع التي تصنع ادوات السلم تستطيع ان تصنع ادوات الحرب

والفرق الاساسي بين الشرق والغرب الآن ان الاول يعتمد على الصناعة . وهذا الفرق هو اصل سائر الفروق من فقر الاول وغنى الثاني وقوة الغرب ورفاهية المعيشة فيه وسعة الثقافة عنده وضعف الشرق والجهل المنقش بين سواد السكان فيه . ومننا من يضحك عند ما يرى الحاح الزعماء في الشرق في اتخاذ القبعة وحلق اللحية وتحرير المرأة ونحو ذلك ويعتقد ان هذه ظواهر لا قيمة لها . ولكن الواقع ان هذه الظواهر أثر في النفس ينتهي بأن يجعل الشخص يتوهم انه غربي فينزع النزعة الغربية فيطمع في الثروة ويقبل ناشطاً على الاعمال الصناعية والتجارية فانهضة الشرقية الراهنة في افغانستان وفارس وتركيا تعود الى عامل الخوف من أوروبا التي تطغى بطبيعة حضارتها على سائر العالم . وأحياناً يتسرب الاستعمار الأوروبي الى قلب الامة فيهدم كيانه الاقتصادي والاجتماعي دون ان يحتاج الى سلاح أو حرب كما هو واضح عندنا في مصر حيث يسير احدنا في الشارع وليس على جسمه من أم رأسه الى أخمص قدميه شيء من مصنوعات بلاده حتى النقود التي في جيبه مسكوكة في أوروبا . وما أشد حاجتنا نحن أيضاً ان نهض ونزع النزعة الأوروبية في ترقية المرأة واتخاذ الصناعة أساساً لثروة البلاد بدلاً من الزراعة . ولكن هذا لا يكون ابداً ما لم نزل على الآراء الغربية والاساليب الغربية انقاء لشعور الاستعمار

ماهية الحضارة الأوروبية

يكثر الكلام جداً هذه الأيام عن حضارة الشرق وحضارة الغرب وهل نحن أمة أوروبية أو شرقية ، وهل أخطأ الأتراك والأفغان والفرس في اصطناعهم القبعة أو لم يخطئوا ونحو ذلك

من البحوث التي تختلف أو تتفق في الرأي عنها . وقد كانت هذه الصفحة مجالاً لمثل هذه البحوث . ولذلك نظن انه من حق القارئ أن يعرف الصفات البارزة للحضارة الأوروبية تمييزاً لها بما نسميه بالحضارة الشرقية : فأول مميزات الحضارة الغربية انها تنجح الى الصناعة دون الزراعة والعلم دون الادب أو الفلسفة . وهي من هذه الوجهة مادية لانها تثمر المخترعات والمكتشفات أما حضارة الشرق فليست مادية لان الادب أو الفلسفة لا يمكن ان يكون نتاجها محسوساً في آلة مخترعة أو شيء جديد يكتشف . فالعلم الأوروبي عملي مادي أما الادب والثقافة الشرقية ففكرية تعمل في عالم العقل وحده وتثمر عقائد دينية ومذاهب فلسفية لها شأن في ترقية الانسان وتهذيب النفس . وبعبارة أخرى نقول ان العلم في أوروبا يستخدم العقل واليد فيثمر الصناعة والمخترعات أما الادب أو الفلسفة في الشرق فلا يستخدمان سوى العقل ، ولذلك فان نظريتهما لا يمكن تطبيقها على الاعمال . ومن هنا انفصال الثقافة في الشرق عن الحياة اليومية . بل العالم الشرق أشبه الناس بالناسك يعتزل ويعتكف ويجتر نظرياته وحده ، أما العالم الغربي فدائم الاتصال بالحياة اليومية يعمل بيده في الاختراع والاكتشاف ويتصل بالصناعة

ولسنا نغني ان العلم في الغرب يتسلط على كل شيء وانما نغني انه نزعة جديدة قد تغلبت بعض التغلب . وهو يعمل للصراحة والوضوح ويحاول ان يتغلب على روح السياسة القديمة سياسة الاثرة والخداع والمواربة . فروح العلم في أوروبا هي روح عصبة الامم والمؤتمرات الاقتصادية والصحية أي روح النظام التي تحاول ان تغلب على روح السياسة العتيقة التي تعقد المعاهدات في الظلام وتكلم بلغة الادب الفصيحة عن الوطنية والمجد الحربي والامبراطورية وروح الحضارة الأوروبية على وجه العموم هي روح الاعتدال في كل شيء . فنحن نحب من الزينة كل ما بولغ في زخرفته مما يتوهج ويتلألأ . ولكنهم في أوروبا يقنعون بالقليل من الزينة وهذا واضح في أثاث المنازل عندنا وعندهم . ونحن نكثّر من توبلة الطعام وفلفلته وهم يقنعون بالكلام القليل في الوصف ونحن نأتي بالمتراقات . وقبلنا نسمع أحداً في أوروبا تدفعه المبالغة الى اليمين بينما نحن نسمع الايمان المخرجة كل يوم من صبياننا ومن شيوخنا على السواء . وهم يقنعون من احترام السادة بالكلام المعتدل . فترئيس الوزارة في انجلترا ليس « صاحب دولة » بل هو مستر مثل غيره من أبناء الامة

ومن شأن هذا الاعتدال الذي نجده حتى في الموسيقى والاغاني والشراب ان يسمح على الامة تلك المسحة الديمقراطية التي تعمل للتيسير في المعاملة . لان الافراط أو المبالغة في احترام السادة يكسبهم من السيادة أكثر مما يتفق والروح الديمقراطية والحكومة النيابية وروح الحضارة الأوروبية أيضاً هي روح الحرية والصراحة . وهذا واضح من معاملة

الاوربيين للمرأة وفصل الدين عن الدولة. فالشرق والغربي كلاهما يحترم المرأة ولكن الغربي يحترمها بعد أن ينزلها منه منزلة المساواة ويأذن لها بمماراته ومباراته في الاعمال العمومية. والشرق يحترمها وهي في حدود منزلها فقط أو وهي محجبة. والشرق والغربي كلاهما له دينه أو صوفيته ولكن دين الشرق يلبس معاملاته وأعماله اليومية أما دين الغربي فقصور على ضميره والخلاصة أن حضارة الشرق تميل الى درس النظريات والادبيات بينما حضارة الغرب تعمل للماديات. وواضح اننا نرى التفوق في زماننا الحاضر للماديات فعلى الشرق. لكي يثبت أمام الغرب ويفوز في جهاد الحياة وتنازع البقاء أن يعتمد الى العلم والصناعة فيجعلها أداة رقيه وفوزه وذلك دون أن يهمل ثقافته القديمة

السعادة الحقيقية والسعادة الصناعية

كلنا ينشد السعادة ويتوسل اليها بما يستطيعه من وسائل. ولكننا نختلف من حيث اختيار هذه الوسائل. فهناك الوسائل الزائلة التي تهذب بذهاب اللحظات، وهناك الوسائل الباقية التي تدوم مدى حياتنا

هناك السعادة الصناعية التي نجلبها بالخمر والمخدرات فنشعر بالهناء واللذة بضع لحظات أو بضع ساعات. وهي ساعة كاذبة تقوم على الوهم بل هي أشبه شيء بذلك الجمال الكاذب الذي تجلبه المرأة بالنظرة والتبرج والمسايق والأصباغ

ولكن كما أن الجمال الحقيقي الباقي يجب أن ينبع من الداخل أى من الدم النقي والصحة التامة والنفس السليمة كذلك السعادة الحقيقية الباقية يجب أن تتبع من نفوسنا فلا نشترىها ببضع كؤوس من الخمر كما تشترى المرأة العليقة جماها الكاذب بالأصباغ والمسايق

والصحة طبيعية في معظم الناس ولكن أغلبها يحتاج الى رياضة وتمارين لكي يحتفظ بها وكذلك السعادة طبيعية في كثير من الناس أيضا ولكنها تحتاج أحيانا الى أن يمارس لها الانسان فنا يتوخى به تحقيقها ويحقق به اسمى صنوفها. لأن السعادة أنواع ودرجات فمنها السعادة التي ترضى البهائم ولكنها لا يطيقها الانسان الراقى. فقد يكون الضفدع أسعد من الأسد وأهدأ بالا ولكننا نحن الناس لا نطبق سعادة الضفدع بل نؤثر عليها بؤس الاسد وشقاءه وذلك لأننا مفطورون على الشرف والسمو فما نحسبه سعادة عندما توهم الراحة والدعة والأمن نراه عند التحقيق شقاء لا نطقه اذا وقعنا فيه

ولذلك يجب ألا نختار أسير الطرق الى السعادة. فكما أنه لا يليق بنا أن نرضى بسعادة اللحظات والساعات التي تجلبها الخمر والمخدرات كذلك لا يليق بنا أن ننشد سعادة الحيوان. واذا كان للصحة فنون نجلبها بالرياضة واختيار الغذاء فانه ينبغي أن يكون للسعادة فنون نجلبها ونحافظ عليها

واسمى صنوف السعادة التي يجب أن ننشدها هي تلك السعادة الدينية أو الصوفية حين يستقر في قلوبنا الحب لهذا العالم والرغبة في الاتصال به وارادة الخدمة له، ويكون لنا من هذا الشعور باعث يبعثنا على الدوام الى الرقي فنرق بأنفسنا وبغيرنا ونسير في هذه الحياة ودائن العالم كله يتطور بنا ويرقى

ولكن لكي نحقق هذه السعادة يجب أن تتوسل اليها بالصحة والمال والجمال والثقافة. على اننا يجب ألا ننخدع بهذه الاشياء لانها هي في ذاتها ليست السعادة المنشودة وانما هي الوسيلة الى السعادة اذا كانت تؤدي بنا الى الرقي المتواصل والبر بهذا العالم

فالصحة وسيلة الى السعادة لان المرض يعوق صاحبه عن العمل وقد يضطره الى لزوم الفراش فيعيش عيشة النبات بلا حركة ولا جهد فيستشعر من عجزه بما في حياته من عقم وعبث فيحس لذلك بشقائه العظيم

والجمال شرط آخر للسعادة وليس يجب أن ننشده في أثاث بيوتنا وملابسنا فحسب بل في أنفسنا حتى ينطبع في مزاجنا فلا نختار عند الزواج الا أجمل الفتيات نفسا وجسما ولا نشترى القبح والدمامة مهما رجونا من المأل وعلقنا عليهما من الآمال. ونحن نعيش في عصر يحتم علينا ان نعتد بالمال بل أحيانا لا يمكننا ان نحقق الصحة أو الثقافة أو الجمال الا بالمال ولذلك يجب ألا نحتقره أو نهمله. ولكن علينا أيضا أن نتريد من الثقافة حتى يترتب في أنفسنا ذلك المزاج الذي يعمل للرقي والحب. لان السعادة هي قبل كل شيء مزاج في النفس قبل أن تكون مالا أو جمالا أو صحة. وما هذه الاشياء الا وسيلة الى تربية هذا المزاج. وبالثقافة يزداد عرفانا بالعالم واتصالنا بالخلقة وحبنا للطبيعة فننتهي الى الشعور بالرق المتواصل والرغبة في ارتقاء البشر جميعهم وهذا هو البر والخير أو هو النظر الصوفي أو الديني للعالم. وخلاصة القول اننا ينبغي ان ننشد السعادة الباقية فلا ننخدع أنفسنا بنشوة الخمر الزائلة. ولذلك يجب ألا نقنع من السعادة بأدونها، سعادة الحيوان والحواس، بل يجب أن نجهد أنفسنا لكي نكون سعداء

الاخلاق الصريحة

كلنا يحب الصراحة والسذاجة وأن يكون الانسان في كلامه وعمله وأخلاقه عفو نفسه لا يراى ولا يداجى كما اتنا نكره النفاق وان يحاكي الانسان غيره ويستعير منه كلامه أو أخلاقه فليس أثقل علينا من العجوز التي تتصايب فتلبس ملابس الفتاة وتتكلم بلهجتها وتصطنع حركاتها ورشاقتها فانتا نرى في هذه الاخلاق محاكاة كاذبة وخروجاً على الطبيعة نستسمجها جميعاً فنحن نحب من العجوز ألا تكذبنا في سنها أو أخلاقها كما اتنا نستسمج من الفتاة وقار الشيخة وتعاقل الطاعنات في السن وفي كلتا الحالتين يعود استسمجنا الا أننا لانرى الشيخة أو الفتاة على حقيقتهم ثم هناك الفقير يحاكي الغنى في معيشته وبذخه يريد أن يجلب احتراماً وتقديرنا فلا ينال مناسوى الاحترار لانه لا يبدو الينا على حقيقته كما يسمح له بها دخله وانما يكذب علينا وعلى نفسه ويكلف نفسه عناء في سبيل هذه المحاكاة التي تدل على صغار في النفس حين لا يجد الكرامة من طبيعتها وسجيته فيحاول أن يصطنعها اصطناعاً بمحاكاة من هم أغنى منه ثروة وكرامة . وهذا كله نقص في الاخلاق الصريحة لان لكل منا شخصية عليه أن يبدو بها للناس حية فاعلة مستقلة وهذه صفات تقتضى الصراحة لانه اذا وجد الانسان في نفسه الكرامة وفي شخصيته الاستقلال لم يعد في حاجة الى أن يحاكي غيره من الناس أو ينزل على آرائهم في العقائد أو الملابس أو المعيشة والنزول على رأى الغير هو أكثر أنواع الصغار والهوان تفشياً بين الناس

فيجب علينا جميعاً أن نكون أنفسنا فنعيش في صراحة واستقلال ونصون شخصيتنا من عبس المحاكاة فكل فرد منا هو في الحقيقة الطبعة الاولى من نوعه في الوجود لم يخلق قبله ولن يخلق بعده أحد مثله ومن الصغار والهوان أن يكون النسخة الثانية لشخص آخر نمحو شخصيتنا أمامه ونقمص شخصيته ومن أعظم ما يرفع قيمة الانسان هو استقلاله في رأى . ولن يكون هذا الاستقلال حقيقياً كاملاً حتى يشمل المعيشة كلها ويجب أن تذكر انه مهما حاولنا من تحقيق الاستقلال الشخصى ومهما اجتهدنا في مصارحة الناس بلباب آرائنا الشخصية فانتا لن نبلغ منها الا القليل لاننا بحكم معيشتنا والبيئة التي تكتنفنا واللغة التي تفاهم بها والثقافة التي ورثناها تلبس بآراء غيرنا ونجري على انماطهم في المعيشة والتفكير فلن نبلغ من هذا الاستقلال الذى ننشده وتلك الصراحة التي تتوخاها سوى القليل : ولكن هذا القليل يبدو جميلاً كاملاً في تكوين شخصيتنا وهذه الشخصية شيء غامض تسمع الناس ينسبون لها لحد الرجال وينكرونها على غيرهم .

فاذا دققنا النظر فيها لا تخرج عن الاخلاق الصريحة والاستقلال في رأى والمعيشة . وربما كان أعظم الناس شخصية هو ديوجينيس الفيلسوف الاغريقى الذى بعثه الاستقلال في رأى الى ان يهجر الناس ويعيش في برميل : فاذا كان لديوجينيس كرامة وهو في برميله فيجب أن يكون لكل منا كرامة فلا يحاكي أحدنا الآخر . وليس معنى كلامنا ان نفعل فعل ديوجينيس فانه هو له رأيه في الكرامة والشخصية والاستقلال ، فيجب أن يكون لنا رأينا الخاص في هذه الصفات أيضاً فلا نحاكيه فيها لأننا ننقض بذلك نظريتنا

والعالم كله يتحرك ويتقدم بالشخصيات المستقلة والاخلاق الصريحة وهو يسكن ويركد بالمحاكاة والقذوة والجرى على آراء الغير ولزوم عقائدهم . وكثيراً ما نجد في كتب الادب من التنويه بحياة أحد المؤلفين والاسهاب في ذكر التفاصيل الصغيرة لاحواله وأحاديثه ومعيشته ما نراه يفوق ويتجاوز ما نعرفه من مؤلفاته حتى نندرك من ذلك انه عاش أكثر مما ألف ، وكانت حياته الفن الاول الذى يمارسه وأدبه الفن الثانى . وبعبارة أخرى نقول انه كان يرى شخصيته ويصنع منها ما يشبه التمثال الجميل . فهذا مثلاً هو ما نراه في غيته الالماني وجونسون الانجليزى . وعلينا نحن جميعاً ان نربي شخصيتنا بالصراحة في القول والاستقلال في المعيشة

تجميل بلادنا

تعنى الحكومة والامة في انجلترا بتجميل الريف . فقد تأسست الجمعيات التي تحض الناس على وقايتهم من الاعلانات التي يقيمها التجار قشوه جماله وتخفى وجه الطبيعة عن أعين المتنزهين الذين يتركون المدن لكي يتفرجوا بهواء الريف وخضرته بضع ساعات

وللريف في أوروبا جمال لانعرفه نحن في مصر وليس لأن الطبيعة تختلف هنا عما هي هناك اذ هي واحدة في الاثنتين تكسو وجه الارض بالخضرة النضرة التي يحمل النسيم نفحات أزهارها ولكن الاختلاف يرجع الى السكان فهم هناك يبنون المنازل والطرق المبلطة التي تتفق وجمال الطبيعة ونحن هنا نشوه جمال الطبيعة بمنازل جافية كابية ولنا طرق من التراب يطير غبارها في الوجوه فاذا كان السير بين الحقول في أوروبا متعة تلذ للحواس والذهن فهو عندنا ألم مرهق يؤذى العين والانف والاذن

واذا كان على كل أسرة ان تزين بيتها الذى تعيش فيه وتوثقه بأجمل الرياش وتقتنى الصور والتحف فعلى كلنا باعتبارنا أمة أن ننظر لوطننا كأنه بيتنا الكبير الذى يجب أن نزخره فلا

نسمح بأن يقام فيه منزل قبيح أو يشق فيه طريق غير مبلط بالأسفلت . وعلينا ان نقيم التماثيل في شوارعنا كما علينا ان نزين مدننا بالمنتزهات الكثيرة التي تغزو العين بجهاها الطبيعي كما تغزو الرئة بهوائها النقي

وكلنا يعرف الآن التربية الحققة لا تقوم بالنصائح والتعليم وانما تقوم بالقدوة والنشأة الاولى الصالحة بل هناك من العلماء من يشك في ان الاصول الاولى للتربية يمكن غرسها في النفس بعد السنة الرابعة من عمر الطفل . وذلك لأن أخلاقنا هي مجموعة الاستجابات التي نستجيب بها للوسط الذي يحيط بنا . وهذه الاستجابات تثبت في انفسنا ونحن دون الرابعة . فنحن نشأ على أن نستجيب لما يحدث حولنا بالخوف أو بالشجاعة وبالصرخة أو بالمرأوخة ونبتى على ذلك مدى حياتنا لانكاد نتبدل . وهنا معنى الفائدة من الوسط الجميل . فاذا نشأ الطفل على أن يرى الجمال مثلاً حوله في التماثيل والصور والاثاث الحسن والمدينة النظيفة المنظمة والريف الجميل فانه ينمو الى الشباب وهو ينشد الجمال ويلج في تحقيقه سواء أكان ذلك في طعامه أم لباسه أم مسكنه بل في أخلاقه أيضاً . ويكون له من هذه التربية هذا الذوق الرفيع الذي يحضه على الدوام بالألا يقنع من الحياة بالدون الرذل بل يطلب اطايها ويبذل جهده في ألا ينحط من المستوى الذي يفرضه لنفسه لكي يكون اقرب الى الكمال

وجميع الذين زاروا الاقصر قد راعهم منظر الشارع المؤدى الى معبد الكرنك تقوم على حافتيه تماثيل الاسفنكس التي تسمى الكباش . فهذه التماثيل التي كانت تزين الطرق بين هياكل المعبد المختلفة تدل على عناية آبائنا بالجمال واجتهادهم في مزج الفنون الجميلة بالدين والعبادة . وقد تتساءل نحن : لماذا لا نغنى بشوارعنا ونقيم عليها التماثيل استدراجاً للنفس الى الجمال وتربية للذوق كما كان يفعل آبائنا ؟

أن بلادنا حظاً غير قليل من الجمال الطبيعي في صحوا سياتها وخضرة حقولها فيجب أن يكون لها حظ آخر من الجمال الفنى في بناء المنازل الحسنة واقامة التماثيل الرائعة ورصف شطوط النيل وقنواته الكبرى وتشديد المباني العمومية والعناية بالطرق الزراعية بحيث تكسى بالاسفلت وتضاء في الليل ، وكذلك العناية بمنازل الفلاحين حتى تكون قصوراً صغيرة تزين الطبيعة وتزيدها جمالا

واذا كانت طبيعة بلادنا تجذب اليها السياح يشتشفون بهوائها ويتمتعون بدفئها في الشتاء واذا كانت آثار أسلافنا الفراعنة العظام تجلب الينا علماء الامم وأغنيائها لكي يدرسوها ويعتبروا بعبرها ودرسها فان علينا أيضاً ألا نكون دون الطبيعة ودون الاسلاف في تزيين مدننا بالفنون

الجميلة . فهذه السويس مثلاً يجب أن يكون ميناء القاهرة ويكون بينهما طريق مبلط ويخرج اليه المنتزه ويحس فيه بهواء الصحراء وخلوة البيداء ، وهذه القاهرة علينا أن نجعلها عاصمة أفريقية لا من حيث الجسامة بل أيضاً من حيث الجمال

الصناعات الكلامية والصناعات اليدوية

تنقسم طائفة العاملين في كل أمة إلى قسمين : أحدهما يعمل بلسانه في الصناعات الكلامية كالحاماة والتحرير وكتابة حسابات الحكومة أو المخازن أو البنوك أو نحو ذلك . وهذا القسم يسمى الآن في إنجلترا وأميركا قسم ذوى الملابس السوداء من العمال والقسم الآخر هو الذى يعمل يديه في الصناعات الميكانيكية وهو القسم الذى نطلق عليه اسم العمال عموماً . أما القسم الاول فاننا كثيراً ما نرفعه عن درجة العمال لاننا نعتقد ان الصناعات الكلامية أشرف من الصناعات اليدوية وانها أدعى الى استعمال الذهن . ولا بد ان هذا الاعتقاد قد انحدر الينا من الازمنة السالفة حين كان صاحب الصناعة الكلامية هو الحاكم الذى يستبد ويظنى كما يشاء ، وسائر الامة تتألف من عمال الزراعة الذين يعيشون في جهل وذل ومثل هذا الاحتقار نجده في بعض الكتاب القدماء مثل الغزالي فانه ينصح لقرائه بالألا يتناولوا من الصناعات ما خس منها . وقد ضرب مثلاً لهذه الصناعات الخسيسة بالحلاقة فان قراءه يجب أن يربأوا بأنفسهم من ان يكونوا حلاقين

ولكننا نعيش في زمن قد تطورت فيه أحوال العيش والارزاق وأصبح الشأن الاول فيها للصناعة اليدوية . واذا أردنا أن نميز بين صناعات الكلام وصناعات اليد من حيث الربح العائد على المشتغل باحدهما ، أو من حيث مقدار الذكاء الذى يحتاج اليه لقلنا ان صناعات اليد في مجملها احوج الى استعمال الذهن وأعود على صاحبها بالربح من صناعات الكلام . فمعظم أعمال الكتاب مقصورة على ان يجرى على أوضاع واصطلاحات يتقيد بها ولا يحيد عنها ولا يشغل ذهنه بها حتى يشبه عمله اليوم عمله في الامس والغد . أما العامل الميكانيكى فانه تعترضه مسائل عويصة تكده ذهنه حتى لتضطره الى ان يكون مخترعاً . ونحن نعرف جميعاً أن ميدان الاختراع الآن هو ميدان الصناعة اليدوية وليس ميدان الصناعات الكلامية . وعظماء العالم الافذاذ مثل فورد واديسون ينتسبون الى طبقة الصانع اليدوى ولا يعرفون شيئاً من صناعات الكلام . ونحن في مصر نرى انفسنا بأزاء مسألة بل مشكلة اجتماعية هي بقاء آلاف الشبان الذين تعلموا الصناعات الكلامية في بطالة قد طالحت حتى لتكاد تكون دائمة . وذلك بينا نرى جميع أصحاب

الصناعات اليدوية في رواج من الاعمال ليس فيهم عاطل . وأحوال الجاليات الاوربية بيننا جديرة بأن تفتح أعيننا . فانهم أيسر حالاً منا يعيشون في رغد يرجحون الكثير وينفقون الكثير من المال لانهم يشتغلون بالصناعات اليدوية أو أن معظمهم يفعل ذلك . فهم لا يستحيون من تأسيس الفنادق والمطاعم والقهوات ودور السينما توغراف ولا يرون أية خسة أو ضعة في أن يفتح الانسان دكاناً للحلاقة أو الخياطة أو في أن يعمل بيديه في التجارة أو ترميم الآلات والعدد . فهذه كلها صناعات يدوية تدر الربح الجزيل على من يعمل فيها وتحتاج الى كد الذهن أكثر مما تحتاج اليه الكتابة في دفاتر الحسابات أو التحرير في الصحف

وما اجد رنا نحن المصريين بأن نقشع عن أنفسنا أو هام القرون الماضية ونعرف أن كل عمل يحتاج اليه الناس هو عمل شريف فنقبل على الصناعات اليدوية ونربي أولادنا على أن ينشأوا عليها ويشتغلوا بها حتى اذا بلغوا سن الرجولة استطاعوا أن ينتفعوا بتجارهم ويرتقوا من طبقة العمال الى طبقة المالكين

فعلينا أن نواجه حقائق الدنيا ونكف عن أوهامنا القديمة . فمن هذه الاوهام ان الوظيفة الحكومية هي خير ما يناله المرء في حياته وهذا الوهم يرجع الى ان صاحب هذه الوظيفة في الازمنة السابقة كان حاكماً بأمرة يستطيع أن يستبد ويظف ويرتشي كما يشاء ولكنه ليس الآن كذلك لانه محدود بل أحياناً محروم السلطة قليل الأجر . وهؤلاء الأجانب بيننا لا يشتغلون بالوظائف الحكومية ولكنهم مع ذلك أغنى منا وأروج أعمالاً وذلك لانهم يقبلون على الصناعة والتجارة ولا يستحيون من تناول العمل الصغير يبق في أيديهم إلى أن يكبر . فهذا الحياء الكاذب الذي يمنعنا الآن من الاعمال الحرة هو من أكبر أسباب فقرنا . ومن العظائم التي يجب أن نعتبر بها أنه ليس في لبنان كله فندق كبير أو مطعم كبير يديره رجل غير لبناني . بينا الحال عدس ذلك في القاهرة والاسكندرية حيث لا يوجد فندق أو مطعم كبير يديره رجل مصري

حقاً أننا بازاء ذلك يجب أن نلوم كل عاطل وخصوصاً أولئك الذين مازالوا يعتقدون شرف الصناعات الكلامية على الصناعات اليدوية

قيمة المظاهر

يحكي عن رجل انجليزي أن حكومته أرسلته حاكماً لأحد الأقطار النائية في الامبراطورية حيث كان جميع السكان زنجاراً مايزالون في طور الهمجية . فكان اذا جاء ميعاد العشاء لبس ملابس السهرة الانجليزية كأنه يستعد لدخول الاوبرا . وهو لم يكن يفعل ذلك انسياقاً مع العادة السابقة

التي ألفها في لندن بل لانه كان يعرف الطبيعة البشرية التي تنحرف نحو التراخي عند اسقاط التكاليف . فكان يقول : « اذا أنا أهملت هذا العرف الذي توجه به الحضارة فاني لا بد واجد نفسي يوماً ما قد أسقطت التكاليف الاخرى الخاصة بالاجتماع والاخلاق فأنزول الى مستوى هؤلاء الزنوج . ولذلك اعتقد أن ملابس السهرة ضرورة هنا أكثر مما هي في لندن »

وقد رويت عن ستانلي الرحالة المشهور مثل هذه القصة . فانه رحل الى افريقية لكي يبحث عن لفنجستون الذي كان قد انقطعت أخباره فقضى الشهور بل السنين وهو يجتاز بالغابات والانهار وينام في الخيام ويأكل الجشب من الطعام . ولكنه مع كل ذلك لم يكن يهمل حلاقة لحية كل صباح كما كان شأنه في بلدته بين المتمدنين

ولم يكن ستانلي يفعل ذلك لكي يؤثر في الزنوج الذين يراقبونه بل لكي يؤثر في نفسه فان هذه التكاليف الحسية التي كان يكلف نفسه بها كانت تعاونه على أن يكلف نفسه تكاليف معنوية أخرى في الاخلاق ، لانه مادام يحكم نفسه في السير من الحلاقة فانه يحكمها أيضاً في الجلد على المكارة التي يلاقيها في سبيل البحث عن لفنجستون . ولم يكن هذا البحث هيناً لانه لم يضل في قرية أو مدينة أو قطر بل في قارة

وما احزاننا جميعاً بان نعلم النظر في هذين المثالين ونفهم العبرة منهما فان للرجل المتمدن تكاليف مادية محسوسة هي دعامة التكاليف التي يكلفها نفسه في الاخلاق . فهو يقعد الى المائدة مع أولاده وقد لبس ملابسه تامة كانه في مطعم لا يرضى بان يلتهم الطعام التهاماً أو يتناول به يده مهما شق عليه الجوع . وذلك لانه يعرف أنه اذا تراخي في هذا العرف الذي اصطلاح عليه المتمدنون تراخي أيضاً في عرف الاخلاق فهو يروض نفسه بهذه المظاهر في اللباس والهندام لكي يستطيع أن يروضها على الاخلاق الحسنة والطريق المستقيم تلزمهما دون انحراف . وليس شك في أن لمظهر الانسان تأثيراً فيمن حوله من الناس بل نحن جميعاً نحترم الناس لأول رؤيتهم بمقدار ما نعرف من جودة لباسهم وحسن هندامهم . ولكن ليس هذا غرضنا من هذا المقال لاننا انما نرمي الى أن اللباس تأثيراً في صاحبه لانه أشبه شيء بالرياضة له على الصيانة والارتفاع من الدنيا وذلك أنه مادامت النفس قد ارتضت مشقة التكاليف في الملابس والهندام فانها لا بد راضية بتحمل عبء التكاليف الاخرى في الاخلاق

وهذا الذي نقوله في الملابس يصح أيضاً قوله على أثاث المنزل . فاعضاء الأسرة الذين يتشددون في نظام منزلهم ونظافة أثاثهم واعتيادهم العادات الحسنة في الطعام والنوم يتشددون أيضاً في اختيار الالفاظ التي يستعملونها في الكلام وفي لزوم الاخلاق الحسنة والفضائل السامية . أما حيث يكون

التراخي والاهمال في نظافة المنزل وترتيب أثاثه حين ترتجل مائدة الطعام ارتجالاً في غرفة النوم وحين يستقبل الضيف على البديهة في أية غرفة من غرف المنزل ويقابله أعضاء الأسرة وبعضهم أشبه بالرجل على وشك الاستحمام ، فهنا يكون التراخي في الاخلاق أيضاً والتهاون في ارتكاب الرذيلة لان مثل هؤلاء الناس الذين لا يطبقون هذه التكاليف المادية الصغيرة لا يطبقون أيضاً تكاليف الاخلاق ولا تنضبط لهم معاملته ولا يعرفون شيئاً عن محاسبة أنفسهم هذا الحساب الدقيق الذي يعرفه الرجل المتمدين

أنا جميعاً لانكر قيمة المظاهر في التأثير في الناس ولكن يجب الانسى تأثيرها في أنفسنا التي يجب أن نستدرجها الى ممارسة الفضائل بممارسة هذه المظاهر ونعلبها التكاليف الصغيرة لكي تسلس لنا وتقوى على التكاليف الكبيرة ومن ذلك نفهم اننا اذا عشنا عيشة المتمدين واتخذنا عاداتهم استطعنا أيضاً أن نقوى على ممارسة فضائلهم في النشاط والدأب في بلوغ الغاية المنشودة والدرس والهمة التي تنتصب للجليل من الاهمال . فظاهرها هي دعامة أخلاقنا ومن هنا يجب أن نحترم ستائلي حين يحلق لنفسه كل صباح في وسط الهمج والوحوش لانه كان يعرف ان التراخي في الخلاقة قد ينتهي بالتراخي في الاخلاق

في مدح الخطأ

كلما تأملنا الطفل وهو يحاول أن يدرك هذا العالم بمختلف التجارب التي يجربها لكي يزداد علماً به ، ونرى أمه تكفه وترجفه حنواً منها وخشية عليه من الخطأ شعرنا نحو الطفل بالعطف وأن اعترفنا بحق الأم في تأديب صغيرها

ونشعر بالعطف على الطفل لأننا نعرف أنه بهذه التجارب يريد أن يتعلم فهو يقفز من الكرسی الى الأرض ويمس النار بيده ويضع نفسه في مأزق خطرة يبتئنا عنها صراحة ، ويخرج الى الشارع باحثاً مكتشفاً ويخرج علينا الشتائم التي سمعها من الخدم لكي يرى وقعها في أنفسنا ويسير في ذلك بنية حسنة هـ ، نية التعلم ويكابد في كل ذلك آلام المرض والجرح والضرب من والدته ، ولكن نفسه الصغيرة مقحمة مقدامة فسرعان ما يمسخ دموعه ويعود الى درس الدنيا بهذه الطريقة الحاسمة طريقة التجربة والاختبار

ولهذا السبب نقول أننا اذا اعترفنا بحق الام في تأديبه وحياطته من الخطأ فانا لايسعنا إلا العطف عليه . فان خير طرق التعلم هي طريقة الخطأ . وللطفل حقه في أن يخطئ ويتعلم . وهو أسعد حالاً بجروحه وآلامه عند ما يخطئ من أن تصونه أمه وتحوطه كأنه جوهرة مكنونه يتفرج برؤيتها الناس

وقد كان نيتشه يقول : « كل ما لا يقتلني يقويني » ، يعني بذلك أن الخطب اذا نزل بنا أو الخطأ إذا ارتكبناه فيدنا تجربة واختباراً في هذه الدنيا فيزيدنا حكمة ، وهذا بالطبع اذا لم يكن من الفداحة بحيث يقتلنا . ويبدو لنا أنه لا يؤمن بقول نيتشه هذا سوى الاطفال الذين يودون لو يجربون كل شيء في هذه الدنيا . أما نحن الكبار فقد تولانا شيء من الجبن والخوف بهما نتقى التجارب

وليس شك في أن العلم والمعرفة يقومان بعض الشيء مقام التجربة ، ولكن في الدنيا أشياء وحالات لا يكفي فيها العلم والمعرفة ، بل في حياة الطفل نفسه ما يضطرنا الى أن نعرضه للاختبارات والتجارب . لأننا نجد أن العلم لا يكسبه تلك الاخلاق التي يكسبها بالاختبار ، فهو هنا يمس الدنيا مباشرة ويعالج المادة بنفسه كأنه مخترع أو مكتشف . أما العلوم والمعارف فليست سوى اختبارات الآخرين وتجاربهم ننقلها عنهم أو نقترضها منهم ، فليس لها قوة الاختبار فمارسه بأنفسنا

ولكن في الدنيا كما قلنا أشياء لا ينفع فيها سوى الاختبار . فالعلم أو المعرفة نفهمهما بأذهاننا فقط . أما الاختبار فانا نفهمه بأذهاننا وحواسنا الخمس . فالرجل الغني الذي يسمع عن الفاقة وآلام الفقر والحرمان يمكنه أن يدرك بذهنه فقط معنى هذه الاشياء ، ولكنه لا يفهمها تماماً كذلك الذي اصطلى الفقر وأحست حواسه الخمس بمعنى ذلك الحرمان حين قرقر بطنه من الجوع وأحس بوخز الابر لللباس الممزقة يمشي بها أمام أصدقائه أو رأى أولاده لا يشبعون بالطعام أو رأى زوجته تنكر عليه آلامها بينما تعترف بها عيناها . فهذا الرجل أدري بالفاقة وأحكم في الدنيا من هذه الناحية من الغنى الذي سمع وعلم دون أن يعاين ويحس

ولكن ليس كلامنا هذا دعوة الى التجربة فان علينا من التبعات ما يجعلنا نتقيها ولكن هو دفاع عنها فقط اذا وقعنا فيها على الرغم منا أو انما نحن هنا ندافع عن الخطأ نرتكبه فنزداد حكمة وعلماً بالدنيا وأن كان الثمن أحياناً يهبطنا . فالخطأ الذي يجرب علينا الافلاس والحرمان يعلمنا الادخار . وقلما يعرف أحد ميزة التسامح والوفاق حتى يصل بنا الخلاف والنزاع . وكلنا تقريباً قد ارتكب من الاخطاء ونزل به من المحن ما يذكره بالسروور لأنه استطاع أن يتقي بها ما هو أسوأ منها . فهذه قضية مثلاً قد خرجنا منها خاسرين ، ولكننا اتقينا بها صنفاً من الناس نعرفه بحب المشاكسة والمضايقة . وهذا أحد الناس قد تسامحنا معه واسقطنا بعض التكاليف فاذا به يستطيل علينا فتوقنا به بعد ذلك هذا المزاج الذي يجلب علينا ما يحبط بكرامتنا . بل كثير ما يحدث أن الخطأ في الصحة وهجوم أحد الامراض يرشدنا بعد ذلك مدى حياتنا الى أن نعيش تلك المعيشة الصحية بما فيها من قيود وحدود نلزمها دون أن نشعر بمضايقتها

وخلاصة قوانا أن المصائب والاختطأ تقوى الاخلاق ولما ان الجروح والرضوض في الرياضة البدنية برهان على الحماسة في اللعب ينظر اليها صاحبها كأنها أوسمة المجد في مضمار المنافسة. كذلك يجب ان نعد الاختطأ ثروة قد ادخرناها لنكتسب منها حكمة واخلاقا وبعد فما نكسبه في هذه الدنيا من الرخ الباقي الذي لا يرايلنا انما هو التجارب

الدنيا التي نصنعها

كلنا يعيش على هذه الكرة الارضية ولنا مستوى في رؤية نورها والتنفس بهوائها والسير على سطحها، ولكن لكل منا دنيا خاصة يصنعها لنفسه ويرتبها لكي توافق مزاجه وذنه حتى يرتاح اليها كما يرتاح المتعب الى فراشه وهذه الدنيا الخاصة هي مجموعة أمانينا ومعارفنا وعلاقاتنا مع أسرتنا وأفراد أمتنا وسائر ما نهتم به من هموم خاصة بالمعاش أو غير المعاش. فكلنا يختلف عن الآخر في هذه الدنيا التي ننشرها حول أنفسنا ونعيش فيها كما يعيش العنكبوت في نسيجه، وهي تقرر لنا السعادة أو الشقاء والعمر الطويل أو القصير والصحة أو المرض

فالدنيا التي يعيش فيها الرجل الجاهل تختلف عن الدنيا التي يعيش فيها العالم. فلأول هموم تقلقه عن الاساطير وتجهد نفسه وجسمه وله من الاماني والاحلام ما يعده الثاني سخافات لا يابه لها، بينما هو الآخر له هموم أخرى يشتغل بها لكي يرقى ذنه أو يرفع وسطه، وللرجل المتمدن هموم تختلف عن الهموم التي يهتم لها الرجل المتوحش. وكل من هؤلاء يخترع لنفسه دنيا يعيش فيها باحلامه وأمانيه ويرسم لنفسه من الغايات ما يسعى الى تحقيقها ومن الخطط ما يسير عليها مدى حياته. وهذه الدنيا الخاصة التي يصنعها كل منا لنفسه جذيرة كما قلنا بأن تسعدنا أو تسيئنا فعلينا أن نعني باختيارها فلا ننسج مثلاً حول أنفسنا من الاماني ما نشقى بالرغبة في تحقيقه طول حياتنا وهو لا يتحقق فنبقى في جهد متواصل يضني أجسامنا ويفنى قوانا، ثم هذا الجهد نفسه يجعلنا أشبه شيء بالعبد لا يعرف سوى العمل المكلف بتأديته فيعصى عن سائر مسرات الحياة. وكثيراً ما نرى أمثال هؤلاء العبيد في الرجل الذي يبغى الثروة يرصد كل قواه الى جمعها حتى لا يدخر لنفسه من الوقت أو المال ما يمكنه من التمتع بمسرات هذه الدنيا سواء أكانت مسرات الثقافة أم مسرات الطبيعة

فهذا الرجل قد صنع من أمانيه دنيا خاصة قد وضع نفسه في أسرها فهو يعيش مدى حياته

وقد تقيد بقيودها. نراه يكب على عمله من الصباح الى المساء ويخرج في ختام اليوم وهو مضنى لا يكاد ينطرح على فراشه حتى تذهب نفسه في غيبوبة النوم لفرط التعب والاعياء. ومثله ذلك الرجل الآخر الذي يصنع لنفسه من عاداته دنيا أخرى يعيش في أسرها كهذا الذي اعتاد الشراب أو غيره من المخدرات فلا يرتاح نفسه الا وهو غائب عن وعيه

فهؤلاء وأمثالهم قد صنعوا لأنفسهم عالماً خاصاً من العادات والاعمال والاماني يعيشون فيه وهم يتألمون ولكنهم لا يطيقون الخروج منه. فمثل هؤلاء ينبغي لنا أن نتوق ما وقعوا فيه ونعني العناية الكبرى بان نرسم لأنفسنا خطة نسير عليها دون أن تجهدنا كما نرسم لأنفسنا من الاماني ما يمكننا تحقيقه دون أن تستعبدنا هذه الاماني. فنحن في حاجة الى أن نقنع في أمانينا ونرضى بحدود معقولة لجهودنا، ولكننا لانعني قناعة العاجز الراضى بكل شيء الذي يؤثر الركود على النشاط ويتوقى الخطر والخطأ، فالتنا نعيش في عالم كله أخطاء وأخطار فيجب ألا نخشاه فنهجم وننكل في حين تقتضي الظروف الاقدام والمخاطرة. ولكن ليجعل كل منا دنياه الخاصة بحيث تضمن له الراحة مدى حياته فلا يتعود من العادات الالاماتكون الفائدة فيه واضحة ولا يجهد نفسه ويضنيها بالاماني التي تتجاوز الممكن من طاقته أو من الظروف وإذا كانت دنيا الجاهل ضيقة بحدود جهله ودنيا العالم واسعة برحابة علمه فيجب أن نجعل من الثقافة دنيا نعيش فيها وتتجاوز بها حدود الواقع من مكان وزمان. فلكل منا من ثقافته ميدان واسع يتسع للخيال والعمل ويتقلد به صاحبه تلك المقاليد السحرية التي تفتح له الماضي وتوقفه على تاريخ الانسان كما تفتح بصيرته لرؤية المستقبل. وهذه الدنيا الخاصة التي نصنعها لأنفسنا بما نتثقف به من مختلف العلوم والآداب كثيراً ما يفنينا عن العادات السيئة الاخرى التي تستعبد أصحابها. ثم هذه الثقافة تنزل بامانينا الى حدود الاعتدال، فلا نشط فيها اشتطاطاً يجلب علينا المتاعب والمكاره

وخلاصة القول اننا يجب أن نعني بالدنيا الخاصة التي نصنعها لأنفسنا ونعيش فيها بأعمالنا وعاداتنا وأمانينا فتتوقى منها ما يستعبدنا. ثم علينا ألا ننسى أن الثقافة العامة التي نتثقف بها هي أخص دنيانا الينا وهي اكبر ما يعمل لأن نعيش العيشة الحكيمة في الحياة

الخوف عقبة النجاح

إذا أردنا أن نجح وجب علينا ان نسأل الذين نجحوا كيف نجحوا؟

والمستتر فوررد واحد من هؤلاء الناجحين. وهو يعزو الفشل الى جملة اسباب أهمها في ظنه الخوف من الخطأ

فهو يقول ان الناس يخشون الخطأ فيتجنبون التجارب . والنجاح يحتاج الى تجارب عدة . ومن البديهي أن الانسان عند مايكرر تجاربه يقع على أخطاء مختلفة يحررها كلما زاد تجربة واختبار أو ينتهي منها الى الصواب

وللمستر فورد طريقة في اختيار المهندسين الذين يعملون في مصانعه فهو لا يختارهم من العلماء البارعين لانه يقول ان هؤلاء يعرفون ببراءتهم وعلمهم طرقاً عدة للخطأ ، فهم لذلك كلما خطر لهم ابتكار طريقة جديدة تخيلوا ما فيها من اخطاء وأخطار فلا يتجرأوا على تنفيذها . فهو يختار المهندسين المتوسطين الذين يجربهم جملهم بعض الجراءة فيبتكرون ويخترعون واذا خاب حسابهم وظهر الخطأ بعد ذلك فانهم يعالجونه بعد ان يتحسسوه بأيديهم ويدركوه بأذهانهم

وهذه حكمة رجل يصنع في اليوم ٥٠٠٠ اتومبيل ويعيش مله حياته نشاطاً وتفكيراً وتمتعاً . وهو رجل يحترف الاختراع بل يحترف النجاح . فهو ينصح لنا ألا نخشى الخطأ ونجعله عائقاً يمنعنا من ابتكار الطرق الجديدة ، بل هو يذهب الى أبعد من ذلك حين ينصح لنا ألا نتأدى في التفكير بالاطعاه المنتظرة ويصرح بأن الجاهل بعض الجهل إذا تجرأ وجرب واختبر خير من العالم الذي يتوقع الخطر والخطأ من كل ناحية فيتجنب التجارب والاختبارات

والعالم كله مخوف بالاطعاه وحياة كل منا تبدأ بايقاع أكبر الاخطار بأهماتها . فانه من المعروف أن أكبر ما يتعرض له الأم من الخطر انما يكون في ولادتها وهو يوم ايجاد حياة جديدة في العالم . والاطعاه تتأبنا من كل ناحية حين نمشي في الشارع أو حين نركب القطار أو حين نشرب الدواء أو حتى حين نقيم في منازلنا . واذا كان كل انسان يحسب للاخطار ويدقق في الحساب فانه لن ينشط الى عمل . فهو لن يبني مثلاً منزلاً خوفاً من الزلزال ، ولن يعبر شارعاً خوفاً من الاتومبيل الداهم ، ولن يركب قطاراً خوفاً من المصادمة . وليس في العالم طبيب يمكنه ان يؤكد لامرأة حامل انها لن تموت في ولادتها . ومع ذلك فالنساء لا يخشين الحمل والولادة . ولو ان من يتعلم سياقة الاتومبيل يحسب حساباً دقيقاً لما يتعرض له من الاخطار لما تجرأ على ان يسوقه ساعة واحدة

وعلى هذا القياس يجب أن نفرض وجود الاخطار حولنا ولا نبالغ في الوقاية منها ، لان هذه المبالغة تعوقنا عن ابتكار الطرق الجديدة وتجعلنا نجهد بالخوف فلا تتطور أبداً ولا نخترع أبداً . والامم كالأفراد في ذلك

وذلك انه كلما ارتقت الحياة ازداد تعرضها للخطر وكلما تقدمت المدنية ازداد المتمتعون بها تعرضاً للاخطار بمقدار تمتعهم بها . فمن يسكن مدينة كالقاهرة يتمتع فيها بما لا يتمتع به ساكن

الريف من أنوار كهربائية ومساكن صحية ووسائل للنقل سريعة وغير ذلك ، ولكنه في الوقت نفسه عرضة لأن يموت في أي وقت بهذه الاشياء نفسها التي لا يتمتع بها رجل الريف ولا يخشاها . فنحن نشترى مسراتنا وما تتمتع به من عيش أو نظام بما يرافقه من أخطار ، بل نحن نجيب أحياناً هذه الاخطار ونجد فيها من اللذة مثلاً نجد أهدنا في ركوب الطائرة . وقد حكى عن رجل بلغ المائة فسل كيف أمكنه ذلك ؟

فاجاب : « اني عشت عمري لا أسبيح ولا ادخن ولا اشرب ولم أتزوج ،

فأجاب سائله : « فلماذا تعيش اذن ؟ »

لقد عاش هذا الرجل عيشة الشجر يبغى السلامة بالسكون وتوقي الاخطار ولكن هذه العيشة لا تليق بانسان شريف . فالاطعاه والاطعاه تتوبل حياتنا فنسبغ لذاتها . وخير من مائة سنة تقضى في السكون والسلامة سنة واحدة نعيشها في الاخطار كما عاشها بيرد الذي طار الى مركز القطب الشمالي وعبر الاوقيانوس الاطلنطي وهو الآن في القطب الجنوبي تحفه جبال من الثلوج واذا كان فورد ينصح لنا بالانخاف ويتعمد اختيار المهندس الجاهل حتى يتجرأ بجملته على أن يخطئ . فعلياً نحن أفراداً وأمة ألا نخشى الاخطار والاطعاه بل علينا ان نجرب ونختبر ونتطور ، لان النجاح لا يتحقق إلا باتخاذ الطرق الجديدة . فلقد ورثنا عوائد وأخلاقاً لا يتحقق لنا النجاح الا بتبديلها أو تنقيحها

قيمة الفكر

اذا كانت الحضارة الحديثة تزيد الناس رخاء وهناك بمختلف ما فيها من مخترعات ومكتشفات فان الفضل في كل ذلك يرجع الى الفكر . فما من اختراع تتمتع الآن به الا وقد شغل واحد أو اكثر رؤوسهم بالتفكير فيه وعانوا مشقاته وعالجوا مصاعبه بأيديهم ورؤوسهم حتى استوى لهم كما تخيلوه وحقق الغاية التي أرادوها . وبذلك تم للناس طائفة من المخترعات تجعلهم يركبون السحاب أو يغوصون تحت الماء أو يصنعون الحرير من الخشب أو يبنون المنازل من الحديد

وكل هذا لم يتم الا لان كثيرين قعدوا يفكرون وخلوا الى أنفسهم في مكاتبهم أو مصانعهم يبتدعون الابتداع ويجاد شيء جديد في العالم فتخيلوا ودرسوا وماقتوا ينفردون ويعزلون بحال المسامرة واللهو وفي أذهانهم فكرة جديدة يجترونها كما يجتر الحيوان طعامه حتى نضجت بترديدها

في الذهن فاستعانوا باليد على تجسيمها . وما زال الذهن واليد يتعاونان وكل منهما يصلح نقص الآخر حتى استوى للناس اختراع جديد

ونحن كلنا نتمتع بالمخترعات الجديدة دون أن يكون لنا فيها حظ الاختراع فالحضارة الحديثة تكاد تكون كلها عارية قد استعزنا من أوربا . وذلك لاننا لم نتعود التفكير البكر والاستقلال في النظر والرغبة في ترقية الأشياء وجعلها بحيث تكون أقرب الى الكمال الذي ننشده

ولكى نخترع نحتاج الى شيئين . هما النزعة ، والطريقة فيجب أولاً وقبل كل شيء أن ننزع الى الاختراع ونسلط أذهاننا على كل ماحولنا من أشياء محسوسة أو معنوية فطلب فيها التحسين ولا نقتنع بالدون أو الوسط مادام من الممكن أن نتخيل ما هو أفضل منهما بل يجب علينا أن نعد المستحيلات ممكنة أو هي إذا لم تكن كلها كذلك فمعظمها يدخل في باب الممكنات . فنحن الآن مثلاً نرى من المخترعات ما كان يظنه أسلافنا مستحيلاً كهذا البرق الذي كان يتألق لهم بين السحاب قد صرنا نحن نومضه في زجاجات ونستضيء به في الليل كما نرى في المصابيح الكهربائية أو كهذه الأشعة التي اخترعها رونتجن لتخترق أجسامنا وتظهرنا على ماخفي من أحشائنا . فهذا اختراعان لولم يتحققا لظنناهما من المستحيلات . ولذلك نحن في حاجة الى مزاج جديد أو نزعة جديدة تهيننا لان ننقد الحاضر الراهن ولا نسلم بشيء تسليماً أعمى بل نرغب على الدوام في التحسين والترقية وترجيح الامكان على الاستحالة

يبقى علينا ثانياً أن ننظر في الطريقة . كيف نفكر التفكير الحسن هذا التفكير المثمر الذي يفتح لنا باب الاكتشاف والاختراع . والواقع أن حياتنا الراهنة لا تتيح لنا هذا النوع من التفكير . فنحن نجتمع باصدقائنا ومعارفنا أكثر من اللازم لصحة أذهاننا ونقضي وقتاً طويلاً في مسامرتهم أو ملاعبتهم على القهوة والاندية ونكاد نطرد عن أنفسنا التفكير باحتساء القهوة والتدخين المستمر . وذلك مع أن التفكير يحتاج الى خلوة النفس والجسم وتسليط الذهن على الموضوع في هدوء وصمت في وقت معين ثم ترك الخواطر تختمر عفواً في العقل الباطن حتى يستوى منها رأى

ثم التفكير لا يكون الا اذا سبقه درس وبحث واهتمام حتى لتنشأ في النفس عاطفة فيها قوة الاشتاء وألم العطش ويقظة الذهن ومعظم الناس اذا سألهم وجدتهم لا يفكرون ولا يهتمون وذلك لانهم لم يدرسوا . والدرس يحشد الذهن بموضوعات مختلفة تحتاج الى زيادة الدرس والرغبة في الحل ومن هنا يأتي الابتكار والاختراع ونحس بتلك النزعة التي ننزع بها الى النقد يجب الا ننتظر الفرص فننتهزها اذا عرضت بل علينا أن نخلقها خلقاً . فلنتعمد درس الأشياء ونقدّها . وكل ماحولنا جدير بالدرس والفهم اذا سلطنا عليه أذهاننا لانبث أن نرى فيه من النقص

ما قد نهتدى نحن الى سبيل الكمال فيه . وعندئذ ندخل في تلك الزمرة الشريفة زمرة المخترعين والمكتشفين ونعول العالم كما عالنا وما زال يعولنا

وأغلى ما في الانسان وأشرف ما فيه هو الفكر . فلا يصح أن يبقى راكداً يتطير مع دخان السجائر أو يذهب هباءاً في الحديث الفارغ واللعب العقيم وقضاء الوقت بل قتله على القهوة وكل عمل أو واجب يحتاج في أوله الى رياضة وتكليف ثم يأتيه الانسان عفواً يحكم العادة والمران فعلينا أن نكلف أنفسنا الدرس والانفراد حتى يصير كل منهما طبعاً لا نقسر أنفسنا عليه وإنما يلذ لنا أن نجري عليه

الكتاب والمصنع

كانت المدارس والجامعات وطن الثقافة والتعليم تحتكرهما تقريباً ولا يمكن الانسان أن يتربى الا اذا دخلها وقضى فيها السنين . أما الآن فلها مزاحم بل مزاحمان . هما : المصنع ، والكتاب ومن يتأمل أحوال الامم الصناعية الكبرى يشك في ان الجامعات تؤدي من نشر الثقافة وترقية العلم مقدار ما يؤديه المصنع والكتاب . ففي الولايات المتحدة مثلاً خمسمائة معهد علمي لم تنشئها الجامعات وانما انشأتها المصانع أي أن لكل مصنع كبير معهداً يعمل فيه العلماء للبحث العلمي في الكيمياء والهندسة والمعادن وما إلى ذلك . وفي هذه المعاهد يتربى العلماء على البحث ويرتقى العلماء . وغاية المصانع من هذه المعاهد ليست البر بالعلم بل بالرغبة في الربح فهي تشد الطرق التي توفر عليها الوقت أو تهديها الى مخترعات ومكتشفات جديدة تربح منها المال . فهذه المصانع تزاخم الجامعات في تأدية مهمتها وتؤديها احياناً بأحسن ما تؤديها الجامعة . ولكن للجامعة مزاحماً آخر هو الكتاب

والكتب الآن في أوربا وأميركا لا تؤلف فقط وانما تحرر أيضاً كما يحمر الصحفي صحيفته يجلب اليها أحسن الكتاب ويستكتب فيها أحسن الادباء والعلماء . ولا أغنى بالكتب تلك الموسوعات التي تحتوي في مجلداتها العشرة أو العشرين أو الثلاثين خلاصة الثقافة الانسانية من علوم وفنون وصناعة وآداب . فان المعقول في مثل هذه الموسوعات ان يقوم بكتابتها عشرات المؤلفين ان لم أقل مئاتهم لانه لا يحيط بمواد الموسوعة العمومية رجل واحد . ولكن أغنى تلك الكتب الاخرى التي كان يؤلفها المؤلف الواحد قديماً فصار الآن يحرقها كاتب من الكتاب المعروفين ويقوم بتأليفها عشرات من المؤلفين

اذكر من هذه الكتب « التاريخ الجديد » الذى نشرته احدى الشركات الانجليزية ويرأس تحريره المستر هامرتون . فان عدد المؤلفين الذين كتبوا مواده لا يقلون عن مائتين . وهو تاريخ ضخيم قد يبلغ ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ صفحة كبيرة . ولكن التحرير ليس مقصوداً الآن على الكتب الضخمة فاني اقرأ الآن كتاباً عن « مستقبل الانسان » يحرره المستر بيرد وقد قام بتأليف مواد ١٦ كاتياً معروفاً والكتاب كله مع ذلك ٤٠٨ صفحات

فالكاتب الكبرى أو المهمة تنتقل الآن من التأليف إلى التحرير وبدلاً من أن يقوم بها الفرد تقوم بها الجماعة . ولا عبرة بأن يناقض أحد المؤلفين الآخر في مجلد واحد فان غاية الكتاب الآن ليست الاقناع والاغراء بل التنبيه والايقاز

وقد أصبح الطبع والنشر في أيدي شركات كبيرة تؤلف الآن السلاسل من الكتب بحيث يمكن المبتدئ أو المتوسط ان يجد السلسلة التي تروقه فيقرأ الموضوع الذى يهواه وينتقل من الاسهل الى السهل ثم يرتقى الى ما هو ادمم مادة وما يزال كذلك حتى يحقق الموضوع الذى أراد درسه وهذا هو الذى يجعلنا نقول الآن ان المدرسة والجامعة تجدان مزاحمين عظيمين لهما في المصانع والكتب . بل يمكن أن نقول ان العلم لا يموت في أمة مثل الولايات المتحدة لوزالت الجامعات لان المصانع الآن تقوم مقامها في البحث العلمى كما ان الصحف والكتب تنشر هذه البحوث على الناس

ولكن غايتنا من هذا الذى ذكرناه ان نثبت للقارىء انه يمكن الانسان المجتهد الآن ان يتعلم ولو لم يدخل جامعة ولولم يظفر بشهادة . وكل ما يطلب منه أن يدأب في التحصيل . فاننا نعيش في زمن قد أصبحت فيه العلوم والفنون والصناعات ديمقراطية في متناول جميع الناس تقريباً يمكنهم تحصيلها من الكتب والصحف الراقية بل يمكن الصانع النشط ان يجعل مصنعه مختبراً يختبر فيه ويكتشف ويخترع

ولست أبالغ في هذا القول وأمامى مثالان عظيمان من رجلين استطاع كل منهما أن يربى نفسه ويبلغ من هذه التربية ذلك النبوغ الذى يغبط عليه . وأحدهما هو هذا المستر جارفن الانجليزى الذى يرأس تحرير أكبر موسوعة عرفت في العالم ، رهى الموسوعة البريطانية التى لا تقل صفحاتها عن ٣٠٠٠٠ صفحة وتتناول شتى العلوم والآداب والتواريخ والصناعات مع أنه هو نفسه لم يدخل جامعة بل لم ينل من التربية المدرسية العادية ماناله غيره ولكنه بالتحصيل من الكتب والدأب في الدرس قد استطاع أن يثقف نفسه وان يشرف على أكبر كتاب يضم في مجلداته مختلف الثقافات الانسانية

والمثال الآخر هو هذا المستر اديسون المخترع الاميركى المشهور فهذا الرجل لم يعرف الجامعات

بل أكاد أقول أنه لم يعرف المدارس ولكنه احترف الاختراع احترافاً حتى نبغ فيه وحتى يقال أن له أكثر من مائة اختراع مسجل في الولايات المتحدة وعبرة ذلك لنا أن نفهم أن وسائل التربية والتعليم لا تقتصر الآن على الجامعة والمدرسة وانما هى تتجاوزهما الى المصانع والكتب والصحف . وعليها أن نطالب مؤلفينا بان يعلمونا وأن تكافئهم الحكومة اذا اخلصوا في التعليم اذا لم يستطع الجمهور مكافئتهم وفي الوقت نفسه يجب الا نفتقر لاحد جهله اذا اعتذر عن ذلك بأنه لم ينل من التربية المدرسية أو الجامعية ما يبرز ذهنه ويثقفه

يوم الوفاة

للأمريكيين بدع مفيدة يتدعونها لزيادة المسرات في الحياة ، ولكن واحداً منهم هو المستر بابسون يتدع بدعة جديدة للموت يجدر بنا أن ندرسها جميعاً لأن الموت كآس حلوة أو مرة سنشرها يوماً ما ، إذ ليس شئ في العالم يستوى فيه الناس مثل الموت فهو يقول أنه يجب على الراحلين الذين عاشوا في لذة العيش أو ألمه واختبروا الحياة أن يتركوا للجيل الجديد أو لطائفة الاحياء التى تحضر الجنازة وتشهد الجثة قبل ايداعها القبر وصية يذكرون فيها اختبارهم ورأيهم عن الحياة

ثم هو يقول أننا نحضر الآن الجنازات جرياً على العرف واطراداً مع العادة ونبقى متبرمين بالتأخير نريد أن نسرع في تأدية هذا الواجب ونسمع ثناء الكاهن على الميت ونعرف منه أنه يكذب علينا وأنه انما يتبرع أو يتصدق بهذا الثناء فقط وأن ما يذكره من الخصال الحميدة التى كانت للميت نعرف نحن ضدها . ونخرج ونحن غير متعطين بهذا الميت الذى يسدل ستار النسيان على حياته

فهو لذلك يقترح على كل انسان قد بلغ الشيخوخة وترشح للموت أن يكتب وصية يبين فيها يحمل ما يعرفه عن الحياة التى عاشها وما انتفع به من التجارب وما استضر ، كما يذكر آراءه في السعادة والحب ونحو ذلك . فاذا مات وصار جثمانه بحيث يحيط به أصدقاؤه وقف الكاهن ولكن بدلاً من أن يثنى عليه وينسب اليه صفات لم تكن له يخرج هذه الوصية ويقرأها لهؤلاء الاحياء الوقوف الخاشعين للموت . وهذه الوصية اذا قرئت في هذا الظرف الرهيب كانت لها أكبر الاثر في النفس

فهى من جهة الميت تدل على الامانة والصدق لأنه وهو في حياته يعرف أن هذه الوصية أن تفشى إلا بعد وفاته حين لا يمكن أن يناقش فيها ، فهو يقول الصدق لا يهاب شيئاً فيه ، ثم

هو يخلص في النصيحة لأنه لا يبتغي من ورائها مأرباً

ثم هي من جهة الحضور تكون كبيرة الواقع في نفوسهم لأنها ثمرة الحياة الطويلة لصديق كانوا يعرفونه بالذات ويختلطون به ، وهم اذا كانوا يتهمونهم بالنفاق في الحياة فانهم لن يستطيعوا اتهامه بذلك وهذه الوصية تقرأ لهم وهو منسطح في نعشه ينتظر أن يهال التراب عليه . واذا كانت حياة الفرد درامة حاوية لمختلف الحوادث ، فان هذا الفصل الأخير منها هو أروع ما فيها وأدعى الى عظة الاحياء

وواضح أنه ليس كل انسان قادراً على أن يكتب مثل هذه الوصية ، فانها تحتاج الى القدرة على الاداء كما تحتاج الى ذكاء وليس كل انسان موهوباً بنهاتين الهيتين . ولذلك فهي اذا شاعت فانما تشيع بين الكهول أو الشيوخ الذين يستطيعون أن يتخلصوا من حياتهم خلاصة يمكن أن ينتفع بها غيرهم . وعندئذ يقول المستر بابسون أنه يصبح للجنازة قيمة كبيرة في الاجتماع والأخلاق فلا يتأفف الناس من حضورها بل يتهياون ويتزاحون لسماع الكلمة الاخيرة التي يقولها الميت وهذا كله حسن والاقتراح الى هنا يعد بدعة مفيدة . ولكن لنا من هذا الاقتراح عبرة اخرى وهي : ماذا كنا نكتب لو أننا ترشحنا للوفاة وأوشكنا على سكنى حى الموق ؟

أن هذا السؤال يجعلنا نراجع أنفسنا وتساءل : ماذا انتفعنا بحياتنا وما مقدار ما لذنا من من العيش وما هي عبرتنا من هذه الدنيا التي تقلبنا بين أحوالها المختلفة ؟

ومثل هذا التساؤل يعيد اليها توزننا ويردنا عن الشطط الذي تندفع أحيانا فيه ونساق فيه انسياقاً لأنه أشبه شيء بالوقوف يقفه الرجل وهو يعدو ليعرف كم قطع من المسافة ، وماذا بقي له ، وهل انحرف عن الحادة الحسنة وهو يعدو أو لا ؟

فما كثيرون يندفعون في اللهو ، وكثيرون أيضاً يندفعون في جمع المال كادحين مجهودين ولكنك لو عرضت على واحد من هؤلاء وهؤلاء مثل هذه الوصية التي يقترحها المستر بابسون وسألتهم : ماذا تكتبون عندما ترشحون للوفاة ، وما هي العبرة التي سينتفع بها الشاب منكم وأية كلمة حكيمة تنطقون بها أو ينطق بها عن لسانكم حين تسطحون أمام أصدقائكم للعبرة والذكرى ؟

لو أنك سألتهم هذا السؤال لجعلتهم يفيقون مما يشبه الذهول ويراجعون أنفسهم ، لأن الواقع أن كثيرين منا ينساقون في الحياة انسياقاً يحملهم الحياة كما يحمل سيل النهر حطامة الشجر وهم لذلك يحتاجون الى ما يذكّرهم بوجود التساؤل عن الغاية من الحياة واسلوب المعيشة والعبرة من ملذاتها ومشقاتها . ولو كلفوا أنفسهم كتابة هذه الوصية لاتفعلوا بها من هذه الوجهة كما ينتفع بها أصدقائهم بعد وفاتهم

الانسان والاقدار

اذا تأملنا أحوال الدنيا بل اذا تأملنا النواميس الطبيعية ذاتها لم يسعنا الا الاعتراف بأن كل شيء مقدر قبل ان يكون . وذلك ان ما في العالم الآن من طاقة تنبأ لأن تكون عملاً وحركة في الغد القريب أو البعيد سواء أكان ذلك في الجماد أم الحيوان لن تتجاوز حدودها المقررة الآن الكامنة في طبيعتها . ولو كنا مثلاً قادرين على قياس القوى الطبيعية الكامنة في التقلبات الجوية ومقدار الماء في السنة الآتية لاستطعنا أن نتنبأ بعدد قناطير القطن التي ستنتجها أرضنا في السنة الآتية . والعالم يسير بنواميس لا تتغير وما فيه من طاقة نجعلها اليوم ستكون عملاً في الغد نجعله أيضاً ومن أحسن ما قاله امرسون « ان القضاء والقدر هو الاسباب المجهولة » وذلك أن نتائج الغد الواقعة هي أسباب اليوم الكامنة المجهولة . وأكثر الناس ايماناً بالخط واستسلاماً للقدر هم الملاحون في البحار والضاربون في الصحراء والفلاحون لأنهم تكتشفهم جميعهم قوى يجهلونهم وهم لو علموها لاحتاطوا من شرها

وقد كان القدماء أكثر منا استسلاماً للاقدار لهذا السبب بل كان أخيل الاغريق القديم يعتقد أن الآلهة نفسها تخضع للاقدار . ولكن لما فشت المذاهب الفلسفية بين الاغريق واخذت المناقشة تمحص الآراء شرع المفكرون ينتقدون هذه النزعة ويبينون الاضرار التي تنجم عن أفكار الانسان لما فيه من عزيمة وارادة

ونحن الشرقيين مشهورون بالاتكال على الحظ نقول بأن كلا منا قد قسم له حظه في هذه الدنيا حتى اننا نعبر عن النجاح بالتوفيق ومعنى الحظ واضح في هذه اللفظة وللفيلسوف الالماني نيتشه ملاحظة حسنة عن ايمان الشرقيين بالقدر يجدر بنا ألا ننساها أبداً . وهي قوله : ان الشرقيين قد نسوا شيئاً خطيراً في عقيدتهم عن القدر وهو : ان ارادتهم جزء من هذا القدر نفسه فاذا نزلت بنا مصيبة أو اذا رأينا الفشل يلوح امامنا فلا نستسلم لها بحجة انها مقسومة اننا لنابل يجب ان نكافحها . وكفاحنا لها هو جزء من هذا القدر الذي تؤمن به . فان ارادتنا لم تخرج عن نظام الكون وتشد عن نوااميسه ، بل هي جزء منها وهي بذلك جزء من هذا القدر الذي يسير به عالمنا

كنا قديماً نؤمن بان الموت قدر محتوم أو حظ مكتوب لا يتغير ولكننا الآن نطالب مصلحة الصحة بكل صراحة بان تنقص عدد الوفيات في القاهرة . ثم نأخذ احصاء الوفيات عندنا

ونقابله بما عند الامم الاخرى ونعزو الزيادة عندنا الى أسباب نطالب مصلحة الصحة ونطالب
الاهلالي بمعالجتها . ولو أن أحد الاطباء نسب وفاة أحد الناس للقدر لتوقاه جميع المرضى
وكنا قدما نعزو الفقر للقدر ولكننا الآن نعزوه لاسباب اقتصادية واجتماعية ونطالب
الحكومة بأن تعالج الفقر أينما تراه

وكنا قدما نعزو الاخفاق كما نعزو «التوفيق» الى القدر ولكننا الآن نبحث بحثاً مادياً في
أسباب النجاح فنطلب من الشاب الذى ينشد التقدم أن يكون صحيح الجسم مستنيراً دموياً يعتمد
على نفسه ويتفائل ولا يتشائم

وهناك من الناس من يحسن الايمان بالقدر فيعتقد ان الاقدار تخدمه على الدوام وهو بذلك
يستهوى نفسه الى النجاح . وتلك كانت حالة نابليون عندما كان يعتقد أن له نجماً دائماً الصعود
لا يافل أبداً فكان تفاؤله هذا يبعثه على النجاح ومن أحسن الرسوم التى تخيلها عنه أحد الرسامين
رسم يمثله وهو يعبر جبال الالب بجيوشه ينحدر بها الى ايطاليا وفوقه عقاب يحلق وأمامه نجم
يضئ الطريق . وهذا الرسم يمثل ذلك الايمان المفيد بالقدر وهو أن نستهوى أنفسنا الى النجاح
ونجعل الاقدار تخدمنا بدلا من أن نستهوينا الى الفشل ونخضع للاقدار كأننا عبيد
وخلاصة القول أن الاقدار هى نواميس الكون التى لا تتغير ويمكننا استخدامها بطريقتين
الاول : زيادة معارفنا عنها ، والثاني : ألا ننسى أن ارادتنا جزء منها

